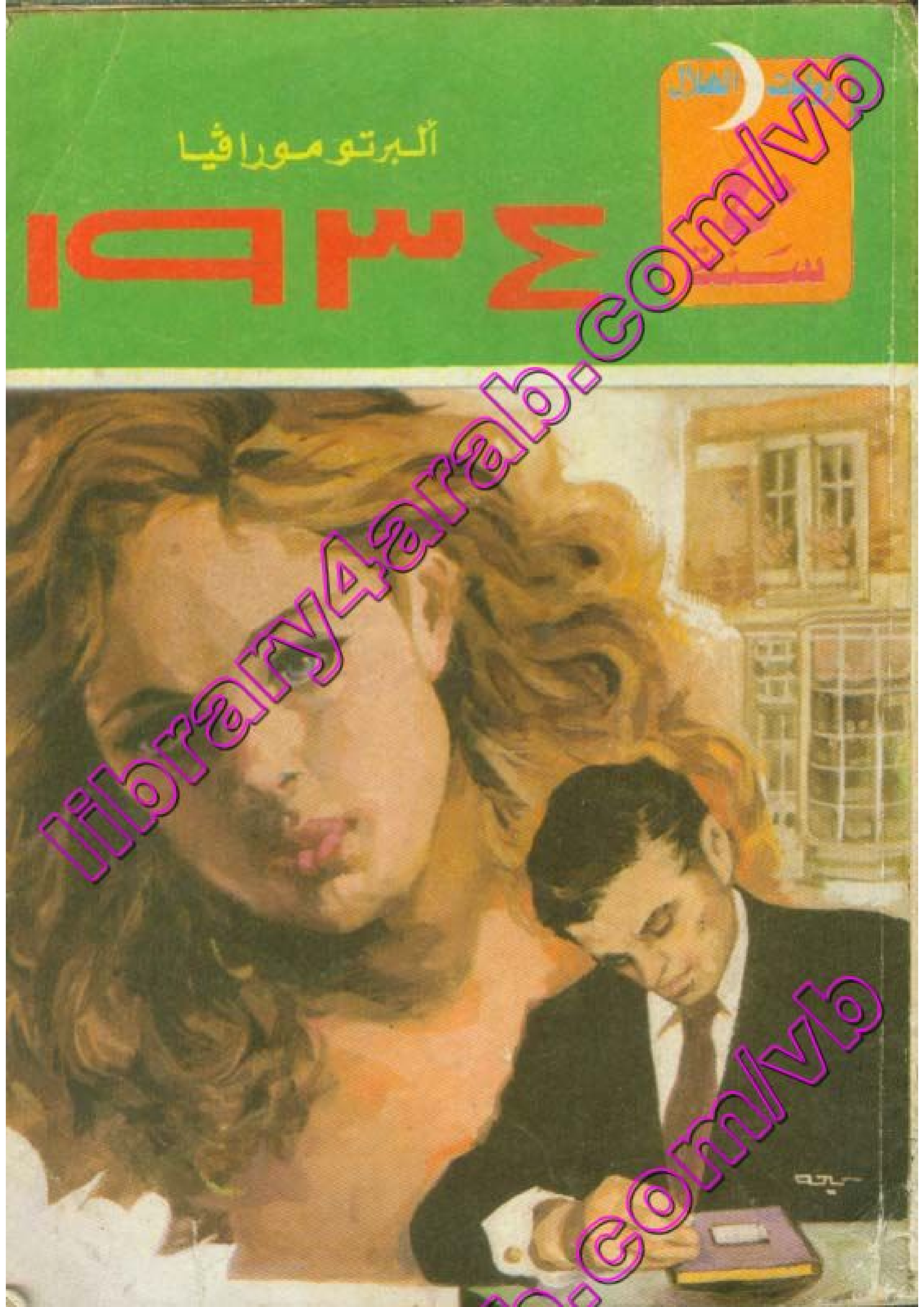

ألبرتو مورافيا
١٩٣٤
library4arab.com/vb

روايات الهلال

Rewayat Al Hilal

تصدر عن مؤسسة

دار الهلال

العدد ٤٨١ يناير ١٩٨٩

جمادى الثانية ١٤٠٩ هـ

NO- 481 JANUARY 1989

● الاشتراكات ●

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) فى جمهورية مصر العربية اثنا عشر جنيها ، وفى بلاد اتحادى البريد العربى والافريقى والباكستان ثلاثة عشر دولارا او مايعادلها بالبريد الجوى وفى سائر انحاء العالم عشرون دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج . م . ع . نقدا او بحوالة بريدية غير حكومية وفى الخارج بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال ، وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة عاليه عند الطلب .

أسعار البيع للعدد الممتاز فئة ١٢٥ قرشا :

سوريا ٦٠ ليرة ، لبنان ٨٠٠ ليرة ، الأردن ٧٠٠ فلس ، الكويت ٦٠٠ فلس ، العراق ٥٠٠٠ فلس ، السعودية ٧ ريالات ، الدوحة ٨ ريالات ، البحرين ١٢٠٠ فلس ، صنعاء ٦ ريالات ، دبى ٨ دراهم ، ابوظبى ٨ دراهم ، مسقط ٧٥٠ بيسة ، عدن ١٧٥ فلسا ، المغرب ١٨ درهما ، غزة والضفة ١ دولار ، ايطاليا ٣٠٠٠ ليرة ، لندن ١٢٥ بنسا .

للحصول على نسخ من روايات الهلال

اتصل بالتلكس : 92703 HILAL. U. N.

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب ـ القاهرة

تليفون : ٣٦٢٥٤٥٠ سبعة خطوط

روايات الهلال

مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

الغلاف بريشة الفنانة :
سـمـيـحـة حسـنـيـن

١٩٣٤

تاليف

ألبرتو موراڤيا

ترجمة

محمد عبد المنعم جلال

دار الهلال

هـذه ترجمة كاملة لروايـة 1934
تأليف ALBERTO MORAVIA

أربعون شمعة .. فى روايات الهلال

تعمدنا أن نحتفل بمرور أربعين عاما على صدور روايات الهلال لعدة أسباب ، من أبرزها أن هذه السلسلة هى الوحيدة التى استطاعت الصمود فى مواجهة كافة عوامل الاندثار . بينما توقفت كافة السلاسل المماثلة التى من أهدافها تقديم الابداع الروائى العالمى ..

وتجىء مناسبة الاحتفال فى مرحلة تحرص فيه السلسلة على تقديم الابداعات العالمية والعربية المميزة فى أحسن شكل وأفضل اختيار .. والحرص على تقديم الابداعات الحديثة فى ترجمات كاملة غير منقوصة حرف واحد . على أن تكون منتقاة بشكل جيد . كأن تقدم الروايات التى حصلت على أهم الجوائز العالمية وعلى رأسها جائزة نوبل ، وجائزة جونكور أو التى حققت أعلى المبيعات فى بلادها شريطة أن تتمتع بحس فنى راق . فليس كل الروايات صاحبة أعلى المبيعات بالافضل دائما ..

وفى نفس الوقت فقد حرصت الروايات على تقديم الابداع العربى المعاصر بشكل يتيح لقارئه فى مصر والعالم العربى أن يطالعه بأسعار أقل وبانتشار أكثر ، وقد بدا ذلك واضحا فى الروايات التى قدمناها على مدى الأربعين عاما . وبصفة خاصة فى السنوات الاخيرة ..

ويجىء احتفال روايات الهلال بهذه المناسبة فى فترة يزدهر فيها فن الرواية بشكل أكثر من كافة فنون الكتابة الأخرى . كما يجىء فى فترة توجت فيها الرواية العربية بحصولها على جائزة نوبل ممثلة فى كاتبنا الكبير نجيب محفوظ .

وقد اختارت روايات الهلال بهذه المناسبة اثنتى عشرة رواية عالمية وعربية ومصرية لتكون بمثابة هدية الى قارئها المتعطش لكل ماهو جيد ومميز فى الابداع الروائى .. أملين أن تكون السنوات القادمة كلها بمثابة احتفالات متكررة بصدور روايات هامة وممتعة واضافات جديدة لهذا الصرح العظيم .. على أن نستأذن القارىء فى أن يتحمل بضعة قروش زائدة فى حالات الطبعات الكاملة .. فقروش قليلة مدفوعة أفضل بكثير من أن نقدم طبعات مختصرة ..

وبهذه المناسبة فإننا نوجه الشكر لكل من ساهم بقلمه ، مترجما أو مؤلفا ، فى هذا العطاء النهرى المتدفق الذى شارك فى اشعال شمعة كبيرة نرجو لها استمرار الاضاءة فيما حولها ونرجو أن تكون رواية « ١٩٣٤ » مدخلا نموذجيا لهذه المناسبة .

« روايات الهلال »

- ١ -

هل يمكن أن يعيش الانسان يائسا دون أن يتمنى الموت ؟ تخيلت هذه العبارة لا لشيء الا لمجرد اللهو ، بل تخيلت هذا السؤال على راية مفرودة ، بين مخالب خفاش كبير فوق البحر ، اشبه بتلك اللوحة التى رسمها دورر ، والمعروفة باسم « ميلانكوليا » ، بينما كانت باخرتنا تقترب بكل سرعة من جزيرة كابرى . لعل الاحساس بعاصفة وشيكة الوقوع هو الذى أوحى الى بالتشابه مع لوحة الرسام الالمانى ، فى اللوحة ، يبسط قوس قزح الوانه الباهتة على خلفية لسماء مكفهرة ، والشاطىء الصخرى الكبير الاحمر يشرف على بحر هادىء وقاتم ، تلمع فيه هنا وهناك انعكاسات باهرة كصفيحة من الرصاص مكشوطة بحد سكين . فى ذلك المنظر الذى يبدو كأن كارثة وشيكة الوقوع ، كانت الراية التى تحمل السؤال الخاص باليأس فى مكانها الطبيعى ، كما كان الخفاش ، الطائر الليلى ذو الصرخة الحادة فى مكانه الطبيعى هو الاخر . السؤال يثير حيرتى منذ بعض الوقت ، بينما اعجز أن أجد له ردا مرضيا ، أراه باستمرار أمام عينى ، وحتى فى أحلامى .

تأملت ذلك المنظر لحظة من خلال فكرة دورر ، ثم خفضت بصرى ، وعندئذ رأيت أمامى امرأة جالسة على سطح الباخرة تشير الى برأسها فى هدوء وفى حزم ، كما لو كانت تقول لى : كلا . لا تتوهم . ليس هذا ممكنا .. ليس ممكنا حقا . ومع ذلك فان وهمى أكده تعبير عينيها . ولم يكن يعنى أى شىء ، وانما ارادة واضحة لكى تتحدث معى . اليأس ظاهر فى النظرة الحائرة والتعيسة لحدقتيها الكبيرتين الخضراوين ، تلك النظرة التى نمت عنها اشارة النفى تماما . كانت تلك المرأة يائسة ، كأنها تريد منى أن اعرف ذلك . بدت باشارتها تلك كمن تقول : ان لنا نفس المشاعر ، ولكن تتملكنى فكرة أخرى غير التى تتملكك . هذا هو ما ظننته فى بادىء الامر وأنا أرى تلك المرأة ترد بكل تلك الدقة على السؤال الذى لم القه عليها . قلت لنفسى فيما بعد ، أن تلك النظرة اليائسة يمكن أن يكون سببها الحول . أما حركة الرأس فلعلها لم تكن الا العتاب الصامت الرقيق لعدم اهتمامى بها حتى هذه اللحظة ، ولأننى تجاهلتها طوال الرحلة من نابولى الى كابرى .

عقدت العزم على مراقبتها ، بدافع الفضول طبعا ، ولكن دون تحيز وبموضوعية اكثر . يبدو انها تجاوزت سن المراهقة ، ومع ذلك فقد كان واضحا تماما انها امراة حقيقية ، ويؤكد ذلك خاتم الزواج في سبابة يدها اليسرى الطويلة والنحيلة . كانت ذات كتفين عريضين معروقين ، وحلمتا ثدييها بارزتين الى الامام ، وكانت تضم فخذيها بعضهما الى بعض ، كما لو كانت تشعر بالخجل من حجم حوضها . ولم يكن وجهها يكسبها أبدا أقل انطباع بالنضج ، فوق عنق أبيض عصبى ، أشبه بعنق طفلة . ذات عينين واسعتين وأنف دقيق جدا وفم بشفتين مكتنزتين . والشعر الغزير الاشعر والاشعث الذى يتهدل على جبينها يعطى كل هذا شيئا من الرشاقة . نظرت الى فى الحاح شديد ضايقنى ، توجيه ارادة عنيدة حتى اللحظة التى تحولت فيها الى الرجل الجالس بجوارها لكى تهمس بشىء فى اذنه . نظر الرجل الى بدوره وهو يوافقها بحركة من راسه . رأيت عندئذ اننى فى حل من أن أفحصه . كان من الممكن تماما أن يكون اباها ، ولكن اليد التى تضغط على يدها تقول انه ليس كذلك . انه يرتدى زيا مضحكا من اللون الكاكى ، ضيقا اكثر من اللازم ، ومليئا بالكراميش . يبدو بدينا وقويا ، أصلع الراس ، له صدغان منتفخان ورخوان ، بينهما أنف دقيق وفم صغير وذقن متهربة ، وبوجهه ندبة بعرض الجانب الايمن منه ، يلبس نظارة تخمن تحتها عينين زرقاوين كئيبتين جامدتين .

همست المراة فى اذن الرجل ، من غير ان تفارقنى بعينيها ، كى ترينى بوضوح أنها تتحدث عنى ، ثم أخذت وضعها الاول ، وعادت تحدق فى بنفس الالحاح ، ولكن من غير ان تهز راسها هذه المرة . وعندئذ لمت نفسى لأننى لم أكتشف وجودها منذ رحيلنا من نابولى ، ولهذا عقدت العزم على تعويض الوقت الضـــائع باقامة علاقات معها بأسرع وقت ، استنادا على تبادل النظرات فحسب ، كل هذه الاشياء التى يمكننى قولها بالكلام ، طبقا للترحيب الذى اتلقاه ، أدركت اننى أستطيع التعبير عنها ، بدبلوماسية أو باخلاص بنظراتى ، دائما بشغف وبدون تردد او تحفظ . أستطيع ان امنع نفسى من التفكير فى أن حديثنا المتقد سيعزلنا فى الجو الخاص خارج الزمن الذى يعيش فيه مطربان يندمجان فى شغف فى اغنية حب مزدوجة ، ونصبح شبيهين لهؤلاء الاشخاص الذين يصيبهم الحماس على خشبة المسرح ، بينما يصاحبهم الاوركسترا ويوجه حركاتهم موسيقيا أمام جمهور معجب ومبهور الانفاس . ومع ذلك احسست بأن هذا التشبيه لم يكن صادقا ، فنحن لم نكن من مطربى الاوبرا ،

وانما شخصان لم يتبينا انهما موجودان ، وأننا لم نكن على خشبة مسرح وانما فى واقع الحياة ، على سطح باخرة تقوم بالخدمة بين نابولى وكابرى . وددت ان اقطع هذا الحديث ، وان انظر الى مكان آخر ، ولكن شيئا منعنى ، انه الاحساس بالذات بأن لقائى بالمراة ذات النظرة اليائسة لم يكن طارئا ولا عابرا . بل من المحتمل اننى انتظرتها وبحثت عنها طوال حياتى ، وانني لا يجب اليوم أن أدع هذه الفرصة التى طالما حلمت بها تضيع منى . نعم ، انتظرت طوال حياتى هذه النظرة اليائسة التى يبدو اليأس فيها بحدة ووضوح . احسست وانا اطيل النظر اليها باحساس غريب ومثير كأننى سبق ان رايت تلك اللحظة ، ان لم يكن فى الواقع فعلى الاقل وانا اتمنى ان تتحقق ، فى الحلم ، كما لو أننا تواعدنا على اللقاء ، واننا نشعر اليوم ونحن نلتقى بالمشاعر التى توقعنا الاحساس بها .

ووسط هذه التأملات ، رايت اللحظة التى سوف تدخل فيها باخرتنا ميناء كابرى . تبخرت العاصفة التى بدت وشيكة الوقوع ، وتجمعت السحب الكثيفة السوداء فى سحابة واحدة متخذة شكل سيجار طويل رشيق . وقام جبل كابرى بصخوره الحمراء التى تكسوها الخضرة ، فى سماء زرقاء جدا . وقلت لنفسى أنه لم يعد لدى دقيقة أضيعها لتدبير لقاء حقيقى قريب . انطلقت صفارة الباخرة : مرتين وجيزتين ومرة طويلة ، اعلانا بوصولها .

نهض الزوجان اللذان يجلسان امامى . ونظرت الى المراة نظرة حادة ، آمرة ومستفهمة . اومات لها براسى ، مشيرا الى الجزيرة التى سنهبط اليها ، كأننى اقول لها : حاولى أن تدلينى فى أى فندق ستقيمين فى كابرى . احسست اننى اتصرف كمجنون فعلا . واننى يجب أن اراها بأى ثمن . سرعان ما أدركت انها لمحت اشارتى ونظرتى . ولكنها بدلا من أن ترد عليهما همست بشىء لزوجها . وكان رد فعل هذا الأخير سريعا وغير متوقع ، فقد انحنى نحوى ، وكنت لا أزال جالسا مكانى ، ثم سألنى بالالمانية :

ـ لا ريب انك تتكلم الالمانية أيها السيد ؟

اجبت فى دهشة وذهول :

ـ اننى اتكلم وافهم الالمانية . وقد حصلت على دبلوماتى من جامعة ميونيخ وقدمت بحثا عن كلايست ونجحت .

ـ حسن جدا . اذا كنت تتكلم الالمانية فاعلم اذن اننا سننزل فى بنسيون داميكوتا بكابرى .

ارتبكت بعض الشىء امام هذا الزوج الغريب الاطوار ، ومع

ذلك سولت لى نفسى قبول هذا الموقف الملائم والغامض ، واجبت على الفور :

كنت اتساءل عن مكان يمكن ان أنزل فيه ، فلم احجز غرفة بنسيون دأميكوتا ، بكابرى ، حسنا . اسمح لى أن اقدم لك نفسى : لوسيو ...

لم يدعنى اكمل عبارتى ، وصاح غاضبا :

— كلا . لا تقدم لى نفسك ، فلا جدوى من ذلك . اننى ذكرت لك عنواننا ، ولكن لا تظن ان بى رغبة فى رؤيتك . اريدك أن تكف عن تبادل هذه النظرات السخيفة مع زوجتى . وأرجوك ، ابتداء من الآن ، أن تبتعد عنا بقدر الامكان . مفهوم ؟

تلقيت هذا الهجوم الشفهى بشىء من الدهشة وبشىء من الضيق على وجه الخصوص . ونظرت ناحية المراة آملا أن تكون مستعدة للدفاع عنى ، لكن عينيها تحولتا عنى وهزت كتفيها هزة خفيفة كأنها تريد أن تقول : انت تستحق ذلك . وتملكنى فجأة احساس بالغضب والخجل . وراقبتهما وهما ينضمان الى صف المسافرين الاخرين . كانا مجرد مسافرين أشبه بغيرهما ، فكيف استطعت أن اعتقد أنه سبق أن ارتبطت بعلاقة غرامية حيوية ومهمة فى حياتى الماضية مع هذه المراة الشابة ذات الكتفين العريضتين والنحيلتين ، والشعر الاشقر الجميل . لكن يا للعجب ! ها هى ذى تستدير وتلقى الى نظرة كلها تواطؤ وتوسل ، هل تعنى الا آخذ زوجها مأخذ الجد ؟ أو تراها تريد أن تقول اننى لا يجب الا اتخلى عنها ؟... ربما .

وضع العمال القنطرة على الرصيف ، وبدأ المسافرون يهبطون . رايت الالمانية وزوجها يختفيان وسط الجمهور ، لم يخامرنى اى قلق أو ندم ، بل أحسست بشىء من السرور ، فقد تلقيت منها نظرة توسل وكنت أعرف اسم البنسيون ، ذلك يكفينى الآن . ومهما يكن ، فقد شعرت بحاجتى الى التفكير بهدوء عما حدث لى .

حاولت ذلك عبثا فى العربة التى اقلتنى الى انا كابرى . كنا ننطلق ببطء ، فى طريق يصعد بوعورة شديدة ، يبدو البحر بعد أن ابتعدت العاصفة ، أزرق مضيئا ، وعلى الناحية الاخرى ، يبدو الجدار الصخرى لجبل سولارو . اذن ؟... ولماذا ؟... بدلا من التفكير كما كنت انوى ، فى لقائى بامراة الباخرة ، بدات ابنى كل أنواع الافكار ، فى معنى المشهد الذى رايته . كنت على يقين ان هناك سببا ، وأن هذا يعنينى أنا وحدى . فان هذا المشهد ينقسم الى عنصرين مختلفين ، متضاربين ، احدهما عمودى وخطير ، يمثله الجبل الذى فوق راسى . والآخر افقى وآمن يمثله اتساع

البحر الهادىء المبتسم تقريبا . لكن الشيء الاكثر أهمية هو انني اري أن كلا من العنصرين خادع . من المحتمل أن الجبل الذى يمثل اليأس يمكن أن يقع على راسي ، في حين أن هدوء البحر الذى يمثل حبي يمكن بكل سهولة ، في وسط عاصفة هوجاء ، أن يطويني بين امواجه .

اذكر هذه الحماقات التي مرت بخاطري كي أعطي فكرة عن السعادة التي غمرتني فجأة . والواقع انني كنت سعيدا كما يمكن لأى امرىء أن يكون وهو في السابعة والعشرين من عمره ، وعلى كتفيه عدد لا باس به من سنين اليأس والأمل في حب كبير (سيكون حبا كبيرا ، وكنت على يقين من ذلك) . ولأول مرة اختلط اليأس والأمل كنهرين يخرجان من منبعين مختلفين . الاول ماؤه خفيف ، والثاني اكثر ثقلا من الاول . كنت ثملا من الفرح ، ومع ذلك اكثر يأسا من اى وقت مضى ، والمشكلة التي أزعجتني منذ بعض الوقت هي معرفة اذا كان من الممكن ان يأتي يوم اجعل فيه اليأس مستقرا ، او اذا أردت الدقة ، اذا كان من الممكن لي تطبيعه مع الحياة العادية والا اصل الى النهاية الحتمية والمنطقية واعني بها الانتحار ، ومن جديد احسست كما ، في اسوأ أيامي ، انني مستعد على ان أقتل نفسي ، ولكن هذه المرة ليس بسبب الافتقار الى الامل ، وانما بسبب امل كبير لا نعرف ماذا يفعل بالحكمة المريرة لانسان يائس ..

انقطع حبل افكاري فجأة على جلبة وضجة عجلات . كانت هناك عربة تنطلق خلفنا . جوادها أسرع من جوادنا ، على وشك ان يتجاوزنا . لم يكن حوذيا عاديا ، وانما شابا يافعا نحيلا ذا شعر مجعد ، يبدو عليه كأنه يلهو بجوار ذلك الشاب امرأة انتزعت قلنسوته لكي تضعها على شعرها الاشقر المشعث . تحققت حتى قبل أن أعرف الزوج المتهالك فوق المقعد الخلفي للعربة بهيئته المتواطئة والمقطبة أن المرأة هي الشابة الالمانية التي التقيت بها فوق سطح الباخرة . تمد ذراعيها الطويلتين النحيفتين أمامها لكي تهز العنان . وتحث الجواد بصيحات قوية . يبدو وجهها مرحا وحيويا تحت حافة القلنسوة . ولحقت عربتهم بعربتنا ، وتحاذت العربتان لمدة لحظات وجيزة . تلتقي عينا المرأة بعيني وترفع القلنسوة وتضعها فوق راس الشاب ثم تستدير لكي تقول شيئا لزوجها ولكي تنبئه بعينيها بوجودي . أتى الزوج بحركة تدل على الضيق وهز كتفيه كأنه يقول « وفيم تريدين أن يهمني ذلك ؟ » . ثم حث الحوذي الجواد فجأة فانطلقت العربة في سباق جنوني ، وتجاوزتنا كالسهم قبل أن تختفي خلف غابة صغيرة من أشجار البلوط الاخضر .

وبعد هذا الاختفاء تحول حوذى عربتى الى ، وهو رجل بدين يناهز الخمسين من عمره وتكلم فى سرعة وفى وقار مصطنع قائلا :

ـ الحوذيون يقودون العربات الان كأنهم يسوقون عربات ترام .

ـ لعل جوادك شاخ . بدا لى جواد زميلك اصغر بكثير .

قال محتجا وقد تملكه الاستياء :

ـ جوادى شاخ !... لم يتجاوز عمره سنتين بعد . اننى اعرفه ، وأعرف ما يستطيع أن يفعل ، وما لا يستطيع . غير اننى لا أعرف الجواد الاخر . ولكن هناك تلك المراة ، ومن الطبيعى طبعا ، فى مثل ذلك السن ... كيف يمكن أن ترفض شيئا لامرأة .

قلت لكى أحثه على الكلام :

ـ هناك رجال لا يعرفون كيف يرفضون .

ـ ذلك لانهم لا يحسون بشىء اذن .

واردف يقول مغيرا تغييرا طفيفا حكمة معروفة ، وان كانت سوقية بعض الشىء :

« الا تعرف أن شعرة من امرأة لها من القوة فى الشد أكثر من مائتين من الثيران . »

لم أزد . وانطلقنا فى صمت ، امسك اللجام بين يديه ، وسيجار بين شفتيه ، الى أن بلغنا أعلى المنحدر . عاد وصعد الى مقعده فى خفة ونشاط غريبين ، وخاطبنى فى لهجة حقود :

ـ هانحن الآن . سأريك ان كان جوادى قد شاخ .

وفرقع سوطه فأسرع الجواد فى الانطلاق . هل ساطته بقوة اكثر من اللازم أم كان الجواد صغيرا وجموحا ، فقد انتقل من الخبب الى العدو فى سباق جنونى ، استمر الحوذى يحثه بالسوط وبالصياح ، وعندما ادرك انه لم يعد سيد الموقف حاول أن يهدىء من عدوه ، وراح يشد اللجام ، ولكن عبثا ، فان الجواد فى هياجه انطلق بقوائمه الاربعة فى الطريق الضيق المؤدى الى أنا كابرى . كان من الممكن أن تصطدم العربة ما بين لحظة واخرى بالاشجار التى تحد الطريق . راح الحوذى يشد اللجام بكل قواه ، ويصرخ وينطق بكلمات لم أفهمها ، ولا ريب أنها كانت تنتمى الى لغة أهل كابرى . انطلق الجواد بضع لحظات فى جنون ثم اندفع نحو امراة تمشى فى جانب من الطريق وهى تولينا ظهرها . وتبينت فى لحظة انها ترتدى بلوزة بيضاء وجونلة خضراء ، ويتهدل فوق كتفيها شعر ناعم جميل ، مجعد وخفيف ويرتفع فى الهواء مع كل خطوة تخطوها . وقلت لنفسى قبل أن يقع ما كنت أخشاه : لا ريب ان هذه امراة شابة وجميلة .

مرت العربة بجوار المراة وكادت أن تلمسها لولا انها تمكنت فى آخر لحظة من الوثوب جانبا . واوقف الحوذى جواده ، واستدارت المرأة لكى تسب الحوذى . وأدهشنى عنفها ، وربما أدهشنى اكثر وجهها الذى لم يكن شابا ، ولا جميلا كما حملنى شعرها الجميل الهفهاف على الاعتقاد بذلك . كان وجه امرأة ناضجة ، ذات سمنة مفولية : عينان صفيرتان مسحوبتان نحو الصدغين ، وانف أفطس ، وفم بارز وان كان من غير شفتين . سمنة قرد صغير ، ومما زاد الطين بلة انها خضبت وجهها بمسحوق أبيض رخيص بدا كأنه دقيق ، وأحمر فاقع كان يرسم شفتين غير موجودتين ، وفكرت وأنا أراهما فى جرح حديث لا يزال يدمى . أسرعت المراة نحو الرجل ، حوذى العربة ، رافعة حقيبتها فى يدها لكى تضربه بها ، ثم راحت تسبه بالايطالية ، وان كانت تشوب لهجتها لكنة اجنبية ظاهرة . تقهقر الرجل الى ابعد مايستطيع وهو يحمى وجهه بذراعه اتقاء للضرب . ولكنه ظل محتفظا بهدوئه ، كشخص يجد نفسه فى موقف يعرفه جيدا ويعرف كيف يتصرف . واذ رأى أنها لا تهدأ رأى أن يخاطبها بلهجة متساهلة ساخرة وهو يدعوها سونيا بدون كلفة .

لم أفهم ماذا يقولان ، فقد كان هو الآخر يتكلم بلهجة أهالى الجزيرة ، ولكن المرأة لم تهدأ ، بل عمدت الى الضرب والكلام اللاذع باللغة الايطالية : يا ابن الزانية ... أيها الوغد ... ايها القاتل . واخشوشن صوتها وهى تصرخ ، خيل لى أنها تعبر عن شراسة قديمة قاسية أكثر مما تعبر عن غضب حالى .

وأخيرا قال الحوذى الطيب القلب فى صوت ساخر :

ـ كفى ، فانك اذا استمررت على هذا تصبحين دميمة . وردت عليه وهى تصرخ : أيها العجوز ... أيها الوقح . ودون أى توقع أخرجت له لسانها .

لا أدرى لماذا ارتبكت عند ظهور هذا اللسان الاحمر الشديد الاحمرار والذى سال منه اللعاب عند انبثاقه من فمها . دهشت وقلت لنفسى أنها فى الظاهر امرأة عجوز ، أشبه بالقرد ، ولكنها فى الباطن فتاة شابة ولسانها لا يتجاوز عمره الثامنة عشرة ، دام ذلك لحظة ثم تحولت الى وقالت :

ـ وانت ؟.. من انت ؟.

ـ اسمى لوسيو ...

ـ آه ... لوسيو . رأيتك تبتسم ايها المأفون الصغير ... ولكن لا عليك . عد الى بيتك .

ومرة أخرى اخرجت لسانها غير المحتشم بقوة الشباب ، ثم فجأة ، وبنفس الطريقة التي هاجت بها انفثأ غضبها واولتنا ظهرها ، وهزت الحقيبة التي تحملها فى يدها وعادت تمشى دون ان تلتفت الى الخلف . وتابعتها بضع لحظات قبل أن تختفى فى طريق فرعى صغير .

عاودنا الانطلاق ، ولكن فى هدوء هذه المرة . انتهزت الفرصة وسألت الحوذى عن هذه المرأة فقال انها روسية ، وتعمل سكرتيرة لدى السيد شابيرو ، وان هذا الشابيرو انجليزى الجنسية ، انشأ متحفا للصور فى اناكابرى ، وان سونيا سكرتيرة السيد شابيرو ومديرة المتحف فى نفس الوقت . واين تقيم سونيا ؟ تقيم مع السيد شابيرو عندما يأتى للاقامة فى كابرى . ولماذا لا يقيم السيد شابيرو فى آنا كابرى طوال الوقت ؟ انه لا يقيم فيها الا فى فصل الشتاء ، أما فى باقى الوقت فهو يقيم فى لندن أو فى الريفييرا . لم أدر ماذا أسأل بعد ذلك ، وتحول الحوذى الى وهو فى مقعده ، يستعد لمتابعة الحديث ، وعندما سألته كيف تتقن هذه الروسية اللغة الايطالية جيداً ، راح يضحك ، وقال انها تقيم فى ايطاليا منذ وقت طويل ، وان كثيرين من الرجال يعرفونها اكثر من غيرهم ، وانه من بين هؤلاء .

كان يشير حتما الى علاقاته الغرامية القديمة بسونيا وهو مسرور من نفسه ، ودون أى ضيق . وبعد صمت قصير اردف يقول :

ـ انهم يدعونها هنا فى البلدة « القردة » ولكنها تجد دائما من تروق له .

رحت أنظر الى الطريق ، واولانى الحوذى ظهره واشعل سيجاره من جديد ، وكان قد انطفأ بين شفتيه . وفرقع سوطه فى الهواء فراح الجواد يسير خببا .

اجتزنا ميدان الكنيسة ، وسلكنا جزءا من شارع آخر ثم توقفنا . ووثب الحوذى الى الارض ، ورفع حقيبتى فوق كتفه ، ودعانى الى مرافقته . وسرنا فى أرض فسيحة غير متناسقة ، بها دكك متراصة حتى القرية ، وتحدها بيوت متواضعة يختلف بعضها عن الاخر ، ولكنها كلها بيضاء اللون ونظيفة ، ومن غير نوافذ ، مبنية على الطراز العربى . وفى وسط هذه الارض ، حيث كان يمكن توقع وجود نافورة او نصب تذكارى ، لم يكن هناك غير شجرة زيتون ضخمة ذات جذع ملتو ملىء بالنتوءات مما يزيد من غرابة المكان .

تقدمنى الحوذى وحقيبتاى فوق كتفه واتجه نحو المبنى الوحيد

الذى يختلف فى بنائه عن نمط البلد ، عبارة عن بيت مبنى فى القرن التاسع عشر بواجهة حمراء ومن ثلاثة طوابق ، ونوافذه عادية كتلك التى نراها فى نابولى وضواحيها . انه بنسيون داميكوتا الذى كلمنى عنه الزوج الغاضب للالمانية ذات الشعر الاشقر .

لم يكن مدخل البنسيون يقع فى الميدان ، وانما فى زقاق جانبى . كان عبارة عن بوابة تفضى الى حديقة مهجورة تملؤها أشعة الشمس ، ولكنها مختفية وسط كل تلك المبانى . قطعنا بضعة آثار فى ممر تحيط من جانبيه أشجار الفار . دلفنا الى أرض ممهدة أمام الواجهة العمومية . والبنسيون يدير ظهره للقرية ويشرف على الريف . كنا نرى بوضوح منحدرات جبل سولارو التى تكسوها أشجار الزيتون . وفى الاسفل قليلا ، عند الافق ، عبر الحقول ، انعكاسات الشمس المتلألئة فوق البحر الهادىء ، ومظلة الباب قديمة من الحديد والزجاج تحمى الباب العمومى للبنسيون . وعند ظهورنا نهض ببطء كلب عجوز ، يغطى جسده وبر كثيف ، لكى يسمح لنا بالدخول . ودخلنا ، ومضينا الى مكتب صغير يقف خلفه رجل كهل ، أسمر البشرة ، له لحية طويلة تخفى صديرته ، ونظر الى من خلال نظارته ، من أخمص قدمى الى رأسى . أخبرته أننى أريد غرفة .

نظر الى طويلا وهو بادى الحيرة ، ثم سألنى ان كنت قد حجزت مسبقا ، وأجبته بالنفى فتنهد ، وفحص السجل طويلا وتخلل لحيته باصابعه ثم تنهد مرة أخرى وقال فى لهجة قاطعة :

ــ آسف ، لا توجد لدينا الآن غرف شاغرة .

دهشت من عنف يأسى وأنا أعلم أننى لن أستطيع الاقامة فى نفس الفندق الذى نزل به الزوجان الالمانيان . يأس مؤقت أكد بكل قسوة يأسى الدائم . وهكذا ، لن أستطيع رؤية فتاتى ذات الشعر الاشقر . بكل بساطة ، لان هذين الزوجين حجزا غرفة ، ولاننى لم أحجز فسوف يتبخر أكبر حب فى حياتى . تندت عينى بالدموع وقلت :

ــ ولكن هذا فظيع ... انها النهاية .

لم أعد أدرى ما أقول . لكننى أحسست أن هذه الكلمات الغامضة تعبر عن الحيرة التى تعتمل فى نفسى . رأيت الرجل الكهل ينظر الى فى دهشة من خلال نظارته . وأردفت فى انفعال شديد :

ــ اليك الامر أيها السيد . أنا كاتب وأشرع فى كتابة رواية . وقد اعتمدت كثيرا على هذا الفندق ، لقد بدا لى مناسبا كى أقضى فيه شهرا ريثما أفرغ من روايتى .

خطر لى اننى على جانب كبير من الدهاء فقد استبدلت فى عبارتى كلمة الحب بالادب فقدمت نفسى وحدثته عن نيتى فى قضا شهر بفندقه .

لم أفهم أيا من هـذه الحجج الثلاث اثارت اهتمامه اكثر من غيرها ، ولكن الظاهر انه غير رأيه حيث راح يداعب لحيته وقال :

ـ آه . اذا كنت تنوى بقاء شهر فقد أستطيع ان اعطيك غرفا بسريرين مؤقتا على أن انقلك الى غرفة بسرير واحد بمجرد أن تخلو واحدة .

واذا اندفعت فى طريق العواطف التى لا يمكن ضبطها فلم يسعنى الا ان أقول :

ـ لا أدرى كيف أشكرك يا سنيور ؟.

ـ جالامينى

ـ لا أدرى كيف أشكرك يا سنيور جالامينى . ليست لديك اية فكرة ، أو بالحرى ، لابد أن لديك فكرة عن اهمية وجود مكان لكاتب يستطيع ان يمارس فيه عمله . وانه لأمر حيوى قاطع ، فنافذة فى مكان معين ، وضوء فى مكان معين وصمت معين واذا بالرواية تنجز على أحسن ما تكون أو لا تتقدم على الاطلاق .

ـ فى فندقنا هذا نزل مؤلفون كثيرون . وفيما سبق ، اعنى فى زمن أبى ، اقام ابسن هنا . بل ان لدينا صورته . انها هنا . انظر .

وأشار الى صورة كبيرة فى اطار بيضاوى ، معلقة فى دعامة القبة التى تفصل الصالون عن غرفة الطعام . وبذلاقة منشأها فرحة حصولى على ما كنت اتمناه استطردت أقول :

ـ أوه ، ابسن !.. لكننى اعرفه جيدا ... ابسن . وماذا كان يفعل ابسن هنا فى أناكابرى ؟.. اعنى كيف كان يقضى ايامه ؟.

هز السنيور جالامينى كتفيه وقال :

ـ لا ادرى ، لان أبى لم يحدثنى عن ذلك . ولكنه كان يفعل كما يفعل الجميع طبعا .. كان يتنزه .

ـ ولكن أنت ؟.. الم تره أبدا ؟.

ـ لا أظن ذلك . كنت أقيم فى ذلك الوقت بنابولى ، أما أبى فهو الذى كان يهتم بادارة الفندق .

ـ آه يا سنيور جالامينى ، أشعر أننى سأكتب فى فندقك رواية جديدة ... بابسن .

تنهد السنيور جالامينى ، ثم عاد وامسك سجله لكى أفهم دون شك أن الحديث لا جدوى منه ، وأنه يجب ان ينتهى . وقال :

ـ سأعطيك الغرفة رقم ١٢ ، وهي غرفة بسريرين ، وبها نافذتان تطلان على الحديقة وتشرفان على البحر .

ـ شكرا ، شكرا ، شكرا ... آه يا سنيور جالاميني !... لقد أعدت الى الحياة .

ـ ها هو المفتاح . كارميللو ، رافق السيد الى الغرفة رقم ١٢ ! آه ، لحظة . بطاقتك الشخصية من فضلك .

أعطيته بطاقتي ، ولكي يأخذها مد يدا صـــغيرة تغطيها بقع سمراء ، دليل الشيخوخة . وكان امتناني عظيما بحيث أن نيتي كانت قد استقرت على تقبيل تلك السيد . ولا ريب أن السنيور جالاميني قد أدرك ذلك لانه قطب حاجبيه وهو ينظر الى مشدوها . واسرعت اقول :

ـ وبهذه المناسبة ، هل تعرف اذا كان السيد موللر وزوجته ، وهما زوجان المانيان قد وصلا منذ قليل ؟.. هي شابة فى مقتبل العمر ، شقراء الشعر ، وهو فى الاربعين ، سمين وطويل وثقيل .

لتقل ان ذلك كان دهاء مني ، فانني بابتكاري لاسم موللر ارغمت السنيور جالاميني على أن يصححني وأن يذكر لى الاسم الحقيقى لهذين الالمانيين . وكم كانت دهشتي عندما قال لى السنيور جالاميني بعد أن فحص سجله :

ـ نعم . لقد وصلا منذ ما يقرب من نصف ساعة . وهما فى الغرفة رقم ٨ .

ـ ولكن ، هل اسمهما موللر حقا ؟.

ـ أرى فى سجلى اسم موللر مدونا ولا شيء آخر .

احسست بســعادة لا حــد لها ، لانني عرفت الاسم ، ولانني حدسته .

كان اسم موللر شائعا فى المانيا شيوع اسم « روسى » فى ايطاليا . ولكن هذا لم يفسد احساسى بأنني محظوظ حقا ، كالمقامر الذى يربح من الوهلة الأولى . ثم ان حظى لم يكن مبعثه أننى خمنت اسم هذين الالمانيين ، وانما لانه خطر لى ان استخدم هذا الاسم التافه لكى اعرف الاسم الاقل تفاهة الذى عزوته اليهما فى البداية ، لم استطع أن أطلب من السنيور جالاميني اسم المرأة ، اخذت قلمه وملأت الاستمارة مسرعا ثم أعدتها اليه ، وضعها فى درج بمكتبه مع بطاقتي الشخصية .

وتوجهت بعد ذلك ناحية السلم ، خلف الخادم الذى يحمل حقيبتي .

وضعت حقيبتى فوق أحد السريرين على الفور ، وفتحتهمـــا . وبدأت افرغ محتوياتهما فى ادراج الصوان والدولاب .

كانت الغرفة كبيرة جدا ومعتمة بعض الشىء ذات سقف مقبب . بها رسومات مختلفة غريبة الشكل ، أما النافذتان اللتان ذكرهمـا سنيور جالامينى بكل فخر فتطلان على الحديقة ، بينما الاثاث قديم يرجع عمره الى القرن التاسع عشر ، كان من الخشب الغامق . ولما كانت غرفة لشخصين فكل ما فيها مزدوجا . سريران وصوانان ودولابان وستارتان تخفيان ركيزتين بابريقين وطستين .

وبينما ارتب حوائجى رحت افكر فيما يجب أن أفعل للتقرب من مدام موللر . فالزوجان يشغلان الغرفة رقم ٨ ، وحيث اننى أشغل الغرفة رقم ١٢ فقد داخلنى الامل فى ان نكون فى نفس الطابق . واذا ألقيت نظرة على أرقام أبواب الغرف لاحظت أن دورة المياه توجد على يمين غرفتى ، فى آخر الرواق . ونتيجة لذلك فان مدام موللر لابد أن تمر حتما أمام غرفتى لكى تمضى الى دورة المياه . تفتحت أمامى ثلاثة احتمالات . الاول : ان اترصدها خلف الباب ، وما ان تمر حتى أمسكها من ذراعها ، وأجرها الى غرفتى ، والثانى ان افتح الباب وأعزمها بنفسى وأضرب لها موعدا للقاء فى اليوم التالى . والثالث أن أوارب الباب وأقنع بالنظر اليها دون ان انطق بكلمـة ، فأترك لها المبادرة . ورغم بساطة هذه الاحتمالات ، فانها أثارت ارتباكى ، أخذت أروح وأجيىء من حقيبتى الى الادراج ، كما لو كنت فى حلم دون ان ادرى ما انا فاعل .

وبعد أن أفرغت حقيبتى ، وضعت اوراقى فوق مكتب قديم من خشب الجوز ، نخر ومبقع بالحبر ، بدأت بقاموس الالمانى ثم بالحافظة التى تضم مخطوطى الكامل تقريبا عن ميكائيل كوهيلهاس ، لهنريك فون كلايست ، والذى كنت أقوم بترجمته فى ذلك الحين . واخيرا ملفا رقيقا جدا للاسف يضم العشرين صفحة الاولى من الرواية التى تحدثت عنها بكل الحماس مع سنيور جالامينى ، واثنى عشر كتابا كنت انوى مطالعتها أثناء اقامتى فى اناكابرى ، وهذه الاخيرة صففتها فوق رف صغير بجوار الباب .

يجب ان اقول اننى احسست وانا اضع ملف روايتي فوق المكتب أننى مخطىء كثيرا ، فلم يكن الامر متعلقا برواية عادية يمكن تأجيل كتابتها الى ابعد ما أريد ، وانما برواية خاصة مرتبطة بمشاكل حياتى الحالية ، وضرورية فى الوقت الحاضر ، وأعتقد ان من الافضل ان أفسر ما أقول .

كما سبق ان أشرت ، كانت تستبد بى منذ سنوات فكرة ترسيخ اليأس . كنت أشكو من نوع من القلق منشأه انعدام الامل فى المستقبل القريب والمستقبل البعيد . وكانت فكرة الانتماء تراود ذهنى كثيرا كحل سواء للخلاص من القلق ، أو لانهاء منطقى وحتمى لفقدان الامل . ولكن لسوء الحظ ، أو لحسنه ، فنحن لسنا رجالا تماما ، أو بالحرى نحن رجال بنسبة ٢٪ فحسب اما بالنسبة للثمانية والتسعين فى المائة الباقية فنحن حيوانات . والنتيجة ان حل الانتحار العقلى والانسانى يعترضه جانب حيوانى وغير عقلى ليس من القوة بحيث يبطل اليأس ، ولكنه كاف لمنع ماتدعوه الجرائد فى أخبارها المختلفة بأنه عمل أخرق .

كان الامر بالنسبة لى تناوبا مستمرا بين الاثنين فى المائة من الانسانية والثمانية والتسعين فى المائة من الحيوانية . ولهذا السبب يبدو الانتحار لى تارة كفاكهة ناضجة فى آخر غصن يكفى ان أمد ذراعى لكى أجنيها ، وتارة اخرى ، كاليوم مثلا بعد لقائنا فى الباخرة ، يحدث لى ان انزع بأية وسيلة الى ارضاء رغباتى .

اخزانى هذا التناوب المتناقض بين اليأس والرغبة . لماذا ؟ كنت يائسا ، بل أكثر من يائس ، ومع ذلك فها أنذا اتورط مغمض العينين فى الحب ، وهو حب لا غرابة فيه فى مثل سنى هذه .

واخيرا واتتنى فكرة ، وهى رغم الجمود ورغم التناوب ، فان ترسيخ اليأس عمدا وطوعيا هو أفضل شيء . وماذا كنت اعنى بالذات بترسيخ اليأس ؟ اذا تصورت بطريقة ما حياتى كدولة فلابد من تقنين اليأس ، او اذا أردت الاعتراف به رسميا ، كقانون للدولة المذكورة ، وهذا بفضل وعى قد يسمح لى بخلق توازن ثابت لا يتغير بين اليأس والرغبة .

ولكن كيف السبيل الى هذا الوعى ؟ هنا تتدخل الرواية التى كنت أنوى كتابتها . سأتقدم فى تأليف روايتى وسأبتعد فى نطاق الممكن عن فكرة الانتحار مع التركيز على ابقاء اليأس ، وذلك لاننى سأذكر فى روايتى قصة رجل ينتهى به الامر الى الانتحار ، وبمعنى آخر سأنقل على الصفحات البيضاء ما ينوى ان يفعله فى الحياة فعلا بحيث

اننى وانا ازاول مهنتى ككاتب سأفلح فى ترسيخ اليأس وفى ان يغدو عندئذ بدون اى تأثير ، وهذا ما أعتقد تماما أنه يجب ان يحدث فى ايامنا وظروفنا العادية .

كل ذلك رغم الاحساس بضرورته وحتميته لاستمرار الحياة . لم يكن الا مخططا او شيئا أشبه بهيكل يجب أن نكسوه باللحم ، أو اذا اردت أشبه بموضوع قصصى يجب أن نجعل منه رواية محكمة البناء بمواقف وأشخاص واجواء .

وعندئذ بدات الصعاب ، فلكى ابتدع شخصا تؤرقه فكرة الانتحار . فان السبب الجنسى لا يكفى لأن يكون باعثا للانتحار ، وانما يجب أن أجد سببا مقنعا لوجود اليأس . وبعد تأملات كثيرة انتهيت باكتشاف ذلك السبب فى عداء شديد للنظام الفاشى الذى يدخل فى هذا الشهر اى يونية سنة ١٩٣٤ سنته السابعة . كان بالتأكيد سببا معقولا يدفع شخصية روائية للانتحار . اما فيما يتعلق بى فاننى مع احساسى بنفس العداء ما كنت لأنتحر أبدا بسبب النظام السياسى القائم فى ايطاليا .

وبعد التفكير ، بدا لى انه من الممكن ، فى حالتى انا على الاقل ، ان ابرر أن السياسة دافع لانتحارى . والحقيقة هى اننى ما كنت لأكون اقل يأسا لو ان الفاشية قد اطيح بها ، أو لو أن النظام الاجتماعى كله قد تغير . كان يجب ان يكون لبطل روايتى سبب محدد وواقعى ، وعلى الخصوص ، مزيد لكى ينتحر . اما اذا كانت هذه الاسباب غامضة ومبهمة ومتعددة على الخصوص فاننى اظن بأنه سينتهى بأن لا ينتحر ويمنعنى من ترسيخ اليأس باجبارى على ان افعل مباشرة ، فى الحياة ، ما لم أستطع ان افعله بطريقة غير مباشرة فى روايتى . يجب أن ينتحر بطل روايتى لكى يمنعنى انا من الانتحار ، ويجب أن ينتحر مدفوعا بيأس تسبب فيه دافع سياسى محدد من هدفه ان يسمح لى بالاستمرار فى الحياة مع يأسى الذى لا سبب له.

انتهيت ، وانا اقلب هذه الافكار فى ذهنى من ترتيب ملابسى وحوائجى فى أدراج الدولاب ، ثم مضيت الى النافذة واطللت منها الى الحديقة الغارقة فى ظلام الغروب . واحسست بارتياح وانا ارى مجموعة الاشجار البارزة السمراء التى ترتفع نحو السماء الخضراء كماسة متألقة على جبين امراة .

وأمام الباب العمومى للبنسيون ، ويضيؤه فانوسان ، كل منهما على شكل كرة ، تكوم الكلب ذو الوبر الابيض حول نفسه فى

هدوء . وهناك ، بعيدا ، بعد الحقول ، لم يكن البحر غير خط ازرق غامق سوف يلقى القمر عليه فيما بعد نورا أبيض . كان كل شيء هادئا ورائعا . وربما يكون الأمر حقيقيا واكتب هنا ، كما قلت للسنيور جالاميني الرواية التى أتخلص فيها ، على بطلى ، من يأسى ومن اغرائه الطبيعي للانتحار . ربما انجو هنا من نفسي بفضل الكتابة . ولعل كل ذلك مجرد لهو . من الذى قال ان اللهو فى الحياة اقل اهمية من الامور الجادة ؟.

ومن ناحية اخرى . فان السماء بكل ما فيها من شاعرية ، وبكل ما فيها من تألق ، وهـــذه الاشجار بكل ما فيها من غموض تدين بجمالها الى اننا نشاهدها من خلال قمرة من سحابة شديدة وقاطعة. سيحملنى يأسى اذن الى أن احب الواقع بعد ان قضيت وقتا طويلا وانا لا اطيقه .

ومع ذلك فان الحماس الادبى الذى تملكنى لم ينسنى مدام موللر ، بل كنت على العكس ، أراها وسط حب كبير ، أكبر حب فى حياتى ، تقف بجوارى فى معركتى مع تدميرى الذاتى ، ومعنى ذلك بأبسط الكلمات ، اننى وانا اضع قصتى ، سوف أجد فى علاقاتى اليقين رغم كل شيء بأن الحياة معها لابد ان تسير . ومع ذلك لم يكن باستطاعتى ان اخفى عن نفسى أن دور الميكانيزم الموازن الذى أعزوه الى مدام موللر لم يكن مناســبا تماما مع نوع التواطؤ الرومانتيكى والمحتوم الذى خيل لى اننى خمنته فى تصرفاتها معى أثناء حديثنا بحاجتى أن أدخل فى حياتى هذه المراة الغامضة التى لم أكن أعرف عنها شيئا فيما عدا انها اقبلت من العدم خصوصا من أجلى .

وفجأة سمعت صوت قرع صنجة من النحاس . كان احــــد الخدم يمر فى الممرات وهو يدق عليها فى فترات منتظمة ، وأعادنى ذلك الدق الي الحقيقة المربكة ، وهى اننى سأرى بعد دقائق مدام موللر فى غرفة الطعام ، حيث ستهبط دون ريب لتناول العشاء مع زوجها . وعند هذه الفكرة توقف ذهنى تقريبا عن العمل وانحبست أنفاسى . وبغتة تملكنى قلق مفاجيء وبغيض ، فمضيت وجلست فوق فراشى . قلت لنفسى انه لابد من الانتظار حتى يفرغ الخادم من دورته فى الممرات ، والانتظار خمس دقائق او عشرا حتى يهبط جميع النزلاء ، فلم أشأ أن أكون أول من يلج غرفة الطعام . ورأيت ان احسب مدة الانتظار على مدى تدخين سيجارة . فأشعلت واحدة ، وبدات ادخن ، ولكن بدون اية متعة . وسرعان ما ادركت ان المرء حين يكون متعجلا فان هناك وسائل كثيرة لاختصار مدة التدخين ، منها شد الانفاس

بسرعة ، بكثرة ، واسقاط الرماد باستمرار ، الخ ... والواقع ان الخمس دقائق المتوقعة لم تكن قد انقضت بعد عندما سحقت عقب السيجارة فى المنفضة . وعندئذ القيت يدا على ركبتى ثم نهضت لكى امضى وافتح الباب . وما أن تجاوزت عتبته حتى تراجعت الى الخلف على الفور ، فقد اردت ان آخذ كتابا لكى استخدمه فى نقل رسالة لمدام موللر . ولم اكن قد عرفت بعد اى كتاب أختار . كان بين الكتب التى صففتها فوق الرف كتاب هكذا تكلم زرادوشت ، وترددت بين نيتشه وبين كلايست الذى كنت اقوم بترجمته . واستقر منى العزم على الكتاب الاول ، فقد كان شبه معروف ، فحتى لو كانت مدام موللر غير مثقفة كما يبدو بطبيعة الامر فانها لايمكن أن تجهل امره . ومن ناحية أخرى ، فان كتاب نيتشه بعباراته القصيرة كانت أوفق بكثير من رواية كلايست فيما يتعلق بتبادل الرسائل الغرامية . ولهذا أخذت زرادوشت وخرجت من غرفتى . هبطت السلم العريض الجميـل للبنسيون ببطء ، درجة درجـة : يد على الدرابزون ، والكتاب فى اليد الاخر . كان بعض النزلاء يتقـدموننى والبعـض يتبعوننى ، وكانوا جميعا تقريبا متوسطى السن : غالبيتهم تقريبا من الالمان . بحثت عن آل موللر ولكننى لم أرهما فتوقفت ثم انحنيت متظاهرا باعادة ربط عقدة حذائى . وفيما انا انحنى ، نظرت خلفى . كانا ورائى بالذات . هو فى حلة زرقاء غامقة مشدودة تكاد تخنقه ، وهى فى ثوب من الحرير الاخضر بزخارف على الكتفين تبرز نحافتها المعروقة ورقة ذراعيها العاريين . هو يخفى نظرته الحادة والكامدة خلف نظارته ، ما كدت انحنى والتفت حتى رأيت عينيها مزروعتين فى عينى . كانت نفس النظرة التى رأيتها على الباخرة ، وفى انفعالى فككت العقدة التى فرغت من ربطها ثم اعتدلت واقفا . وأومات بالتحية للرجل ولكنه تجاهلنى ولم يرد على فى حين تلقتها هى برمشة ظاهرة من عينيها . ومرا بى وتبعتهما بفردة حذاء رباطها مربوط والفردة الاخرى مفكوكة الرباط .

وفيما انا مستمر فى الهبوط ، ويدى على الدرابزون ، وقع بصرى على قفاها ، رقيق ورهيف تحت خصـلات من الشـعر الاشقر ، وقلت لنفسى ان هذا القفا لابد له نفس البياض المضيىء ، وخصلات الشعر التى تفلت من كعيكتها النصـف مفكوكة جعلتنى افكر رغما عنى فى شعر عانتها المعقد . وتوقف بصرى بعد القفا على الكتفين العريضين الشبيهين باكتاف الرجال ، ولكن كان فيهما رقة

انثوية مفرطة ، أعنى انه لم يكن بها تلك العضلات التى نراها فى مناكب الرجال ، تكسوهما بشرة ناعمة لينة كشراع سفينة فى يوم هادىء . ثم عند الخاصرتين العريضتين المعروقتين . ومرة أخرى دهشت من عدم الليونة فى حركاتها . ضيق ينتمى الى الارتباك كما لو ان مراهقة الامس لم تتعود بعد على الاحساس بأنها تبدلت الى امرأة الى حد ان طريقتها فى المشى جعلتنى اشعر الى حد كبير بتعصبها لكل ماهو انثوى بحيث احسست فجأة ان جسدها غير مكسو وانما يغطيه مايكاد يستره . والدليل على ذلك أننى سمحت لنفسي بأن أتصور أننى ارى ما لا اراه : ردفين صغيرين نحيفين ، وفخذين سمينين ممتلئين وفى الفراغ بين فخذيها شعر طويل لين .

لا ريب انها لمحت نظرتى الفضولية لانها راحت تعدل حزامها حول وسطها فجأة . ولعل نظرتى ندمت عندئذ لجرأتها فهبطت حتى ساقيها . كانتا رقيقتين ، وكان جوربها عريضا فى شىء من الافراط ، او لعله كان غير مشدود كما يجب لانه كانت به بعض الثنايا . وكانت تضع حول ساقها اليمنى سلسلة من الذهب عريضة تصل حتى قدمها الطويلة النحيفة .

هذه الملاحظات او هذه الانطباعات ساعدتنى فى هبوط السلم كما لو كنت أعلم ، ورحت ، كالحالم ، اتقدم فى بطء خلف النزلاء الذين يلجون غرفة الطعام . بدت لى موائد كثيرة مشغولة ، فتوقفت فى منتصف الغرفة وبحثت بعينى عن الخادم الذى يمكن ان يرشدنى الى المكان المخصص لى . وجاء ، كان رجلا متوسط السن ، نحيفا ، بشعر غزير أسود ومجعد وعينين زرقاوين جذابتين وانف طويل أقنى ، دفعنى على نحو مائدة بجوار الباب . ولكننى كنت قد رأيت موللر وزوجته بعيدا جدا عن المكان الذى ارشدنى اليه ، ولمحت بجوار مائدتهما مائدة شاغرة فطمأنت الخادم وانا اقول له اننى افضل ان اجلس فى ركن الغرفة بجوار النافذة ، وكان فى عجلة من أمره فاكتفى بأن تقدمنى ، وسحب بطاقة صغيرة من فوق المائدة مكتوب عليها « محجوزة »

وسرعان مابدأت الخدمة ، قدموا لى اول طبق ، وضعت كتاب نيتشه فى مكان ظاهر بجوار طبق الحساء ، لكى أكون رابط الجاش ، أو لاننى كما سبق لى القول ، اردت ان اجد فيه رسالة لمدام موللر . رحت أتناول طعامى فى شرود ، وانا افكر فى عبارة او فى بيت من الشعر ، ولكننى سرعان ما ادركت انه لن يكون من السهل استخراج

بضع فقرات من قصيدة « الرجل الخارق » يمكن ان تخدمنى فى غرضى الانسانى جدا والمتواضع جدا ، فى اقامة علاقات بينى وبين المراة التى احبها ، فقد راحت الفصول تتتابع وراء بعضها ، وحلقت فوقها كما يحلق الطائر فوق ارض قاحلة يبحث فيها عبثا عن مكان يستريح فيه ، واخيرا وقعت عيناى على قصيدة ، ما ان قراتها حتى استرعت انتباهى بوجه خاص :

ماذا يقول الليل البهيج
كنت نائما ... كنت نائما
ومن حلم عميق صحوت
الدنيا جد عميقة
واشد غموضا من النهار
وعميق المهـا
ومازالت اللذة اشد حدة من الالم
والالم يقول : هيا امض
ولكن كل لذة تريد الخلود
الخلود الغامض المتعذر سبره .

وضعت معلقتى فى الطبق ثم اخذت الكتـــاب واعدت قراءة القصيدة فى بطء . ورغم ثقتى أن مدام موللر تعرف نيتشه ، فاننى اقل ثقة أنها تعرف وتفهم هذه الابيات خيل لى أن العبارة الاخيرة : « ولكن كل لذة تريد الخلود ، الخلود الغامض المتعذر سبره » كان يجب أن تفى بالغرض ان لم يكن حول مشاعرها التى لا أعرف عنها شيئا ، فبالتأكيد نحو مشاعرى التى أعيها كل الوعى . وما هى بالذات تلك اللذة التى تريد الخلود ان لم تكن لذة الحب دون التخلى عن اليأس .

رفعت عينى عن كتابى لكى أنظر الى المراة الجالسة أمامى ، فى حين لم أر من الزوج الا جانبه . تبدو جامدة فى حالة اهتمام زائد لايزال طبقها كما هو تقريبا فى حين أن زوجها التهم طبقـــه كله . أحسست أنها كانت تتطلع الى بالفعـــل منــذ اللحظة التى جلست فيها . انعكس على وجهها نفس التعبير المتناقض بشـــكل غريب يشترك فيه الحزن مع الارادة ، والحدة مع التقدير . كان يبدو كانها تريد ان اشاركها يأسها عنوة ، همس زوجها لها بشىء ، لاحظت صوته المهتز دون أن أراه . ردت عليه بكلمة واحدة كانت بلا ريب نعم أو لا . وفى تلك اللحظة تملكتنى الدهشة ازاء أمر غريب ، فلعل الزوج قد رأى سلوك زوجته نحوى فلم يحتج أو يحاول أن يردعها .

لماذا يتركها مستر موللر تفعل ماتفعله الان دون أن يحتج أو يعترض وهو الذى اظهر غيرته على سطح الباخرة ، ومن ناحية اخرى لماذا لا تشعر زوجته بأى حرج وهى تحدق فى بمثل هذا الالحاح أمام زوجها ؟

بى رغبة الان فى أن أصف نظرات مدام موللر ، على الخصوص الاشارة الى العمل الفنى الذى ذكرته فى بداية يومياتى التى أقوم بتدوينها الان ، وأعنى بها لوحة دورر المعروفة باسم ميلانكوليا . أعرف تماما ان ذكر عمل معروف كهذا يمكن أن يعتبر تفاهة ، ولكن سحقا لى .. هناك ظروف يكون فيها الاقدام على التحدى علامة اخلاص وصدق .

وعلى ذلك ، فبينما تنظر مدام موللر الى باصرارها وتأثيرها الغريبين تعكس نفس التعبير الحزين التعس الذى يبدو فى لوحة دورر ، ولكن ، وعلى الخصوص يمكن القول بأن التعبير فى تلك اللوحة يرجع سببه لتأثيرات الضوء والظل التى ابتكرها دورر . وكما نعرف عن يقين فان التعبير الحزين والمتأمل صفة لما ندعوه عامة بالكآبة والسويداء ، وقد عبر دورر عنهما بالتناقضات بين الظل والنور ، وبين الابيض والاسود ، وقد استخدم كل ذلك بحذق وبراعة ، فرسم الوجه كما لو تحجبه ضبابة ليل كثيفة ورمادية . وحدقتى العينين محاطتين بالسواد تماما ، والجفنين اشد سوادا ، جاعلا خلفية اللوحة بيضاء تماما . وتناقض سواد الحدقتين وسواد الجفنين وبياض اللوحة ، كل ذلك يخضع لاكفهرار الوجه ويزيل الحزن الغريب للنظرة .. نظرة رجل يحس بأنه سجين موقف لن يتغير ومن العبث الرجاء بأن يتمكن من الفرار منه ذات يوم .

والان ، كما قلت جزئيا بسبب الضوء الخفيف لذلك الركن من الغرفة ، وجزئيا بسبب الظل الذى يخلقه حولهما غموض الشعر الاشقر ، فان عينى مدام موللر الخضراوين الواسعتين كان لهما نفس التعبير الذى يرمز اليه دورر . ومع ذلك ، هناك خلاف ، فان رجل اللوحة كان ينظر الى أعلى ، نحو السماء ، أما مدام موللر فتنظر أفقيا ، الى مباشرة . ومع ذلك أيضا ، فان مدام موللر ورجل دورر يعبران بنظرتيهما عما يدعوه الرسام الالمانى « ميلانكوليا » والذى أدعوه انا بأكثر جوهرية وبذهن اكثر عصرية باسم اليأس . —

ولكن اى يأس ؟.. ظننت انه ذلك الذى يملى عدولا نهائيا عن كل مايمكن أن يكون سببا لاستمرار الحياة . كان العدول عن دورر يتعلق بالمعرفة والعلم كما يدل على ذلك كثرة الأدوات العلمية

المنثورة فوق الارض . أما عند مدام موللر فعلى العكس ، بدا لي انه يتعلق بالحب ، وخصوصا بالحب بيني وبينها ، كما لو أنها ارادت أن تقول لي وهي تنظر الي « احبك ، أعرف انك تحبني لكن ، لن يكون بيننا شيء مطلقا فيما عدا تبادل النظرات أما العلاقات الغرامية الحقيقية والكاملة فمستحيلة .

لماذا فسرت هكذا التعبير الذي ظهر في عيني المرأة ؟ كان ذلك ، على الخصوص ، لأنني ماكنت لاستطيع تفسير السمة المتحكمة لتصرفها بغير ذلك . ففي الاهتمام الذي أبدته نحوي ، كان هناك شيء حذلقي ، كأنها ارادت أن تغرز في رأسي أن : نعم ، وانها تحبني بالتأكيد ولكنني لا يجب ، أن أتوهم ، وان كل ماتستطيع ان تفعل هو أن تنظر الي دون تبادل أي حديث ، ولا شيء أكثر من ذلك .

لاحظ الزوج مناورتنا . رأيته ينحني نحوها لكي يحادثها ولكنها استمرت تنظر الي برباطة جأش ، لم أستطع ان أتبين حديثهما انهما يتكلمان بسرعة وبصوت خافت . ولكن الرجل بدا كأنه يوبخ بدا الامر واضحا . والزوج يستهجن تصرف زوجته ، تساءلت كذلك لماذا احتملها طوال هذا الوقت . هـذا الجدل المختلف ، يتكلم أحدهما ، أما الاخر فيتظاهر بانه لا يسمع شيئا ، انتهى فجأة بقدوم الخادم وهو يحمل الطبق الثاني . وقطع الزوج حديثه ، وتناول من الطبق كمية كبيرة دون أن يتخلى عن غضبه . ورفضت زوجته أن تأخذ شيئا ، ومرة واحدة ، وكما لو أنها أحست بتعب شديد . فجأة تهالكت جانبا ، واسندت رأسها على ذراعها المثنى ، كما لو كانت تريد أن تنام ولا يزعجها أحد . وكانت ايمائية معبرة ، ولكن هل تقصد زوجها بها أم تقصدني انا ؟

لم يحتج مستر موللر هذه المرة ، واكتفى بأن رمى زوجته بنظرة شذراء ، ثم راح يتناول طعامه في شراهة ودقة وغضب . وعندئذ ، واذ رايت انها تطبق عينيها من وقت لاخر ثم تفتحهما لكي تنظر الي ، ربما لكي تتحقق أنني مازلت مهتما بها ، وليس بزوجها تذكرت أبيات نيتشه وتوقفت عندها لحظة ، أدهشني التصادف بين ماتقول وبين ماتريد هي ، دون وعي بكل تأكيد أن تجعلني افهم بالحركات . من اجلها كتب نيتشه : كنت نائما .. ومن حلم عميق صحوت ، من أجلها أيضا ، رغم انني لا اعرف شيئا عن المشاكل التي تقلها ، جئت بكتابي الى المائدة وفي نيتي ان استخرج منه رسالة حب . أمسكت الكتاب وفتحته من جديد وقرات القصيدة بعناية كبيرة ثم نظرت الى رأس مدام موللر والى شعرها الاشقر

المدفون فى تجويف ذراعها ، وسط الملاعق والشوك والسكاكين والاطباق والاقداح ، وقلت لنفسي ان هذه الابيات تناسب تماما ، وبطريقة رائعة الرسالة التى كنت انوى ارسالها لها .

نعم ، لكن المشكلة هي كيف اعطيها اياها ، او على الاقل ، ماذا افعل لكى تلحظها . اخرجت قلمي الحبر من جيبى ووضعت خطا تحت كل من البيتين الاخيرين ثم اسندت الكتاب وهو مفتوح الى قدحى . كأننى اريد قراءته وانا اتناول طعامي . خطر لى اننى الفت نظرها هكذا بمجرد ان ترفع راسها . وسوف اجد بعد ذلك ، بالاتفاق معها وسيلة ما لكى أرسلها لها . عندئذ ظهرت بالباب ثلاث فتيات يحملن أطباق الحلوى ، قال الزوج شيئا لزوجته ، ربما شيئا ساذجا ظريفا مثل « الا تريدين بعضا من هذه الفطائر ؟ انك تحبينها كثيرا فى العادة » رفعت الزوجة راسها كمن يخرج من حلم عميق ، بدا الاضطراب مرتسما على وجهها . وعلى الفور اشرت بأصبعى الى كتابى . ورايتها تلمح اشارتى ، ثم ، وفى بطء ووضوح، ردت على بعينيها بأنها قابلة بكل شيء . عندئذ امسكت بقلمي وكتبت مسرعا على هامش الصفحة التى بها القصيدة « انبئينى سريعا أين ومتى نستطيع ان نلتقى » وما أن أطبقت كتابى حتى تحول الزوج الى وقال لى فى رقة غريبة اثارت حيرتى :

ــ معذرة ياسيدى . هل يمكنك ان تقول لى اذا كان اسم نيتشه ينتهى فى نهايته بحرف الهاء او بحرف الالف .

خطر لى بغباء انه انما القى على هذا السؤال كحجة لكى يتحدث معى ، فغالبا مايحدث ذلك بين نزلاء البنسيونات . لكننى ادركت على الفور انها طريقة ساخرة أراد بها أن يعيدنى الى مكانى ، تقريبا كما فعل على ظهر الباخرة وهو يذكر لى عنوانهما فى أناكابرى. لزمت الصمت لحظة فى حين تنظر هى الى دون أن يبدو عليها اى ضيق . واخيرا أجبت فى هدوء :

ــ طبعا . اكتبه بحرف الهاء فى النهاية .

وعلى الفور عقب يقول :

ــ أظن أننى فهمت انك تريد أن تعير ، بل ربما تريد اهداء هذا الكتاب الى زوجتى ... هل انا مخطىء ؟

ــ اننى اقراه فى الوقت الحاضر ، ولكن اذا كان يهم السيدة ، فاننى اقدمه اليها طواعية .

نهض عن مائدته وبسط يده الى وهو يقول :

ـ اعطنى اياه .. سأقدمه اليها بنفسى
اخذت كتابى واعطيته آياه . وعاد فجلس مكانه ، واعطى الكتاب لزوجته ثم تحول الى وهو يقول :
ـ ها أنت ذا ترى اننى أعطيته لزوجتى ، وهى تشـكرك . الا تشكرين السيد ؟
هزت كتفيها شيئا ما من غير ان تتكلم . وخفضت جفنيها ، راحت تقلب صفحات الكتاب وتقرأ باهتمام . مر كل هـذا تحت بصر الزوج ، والعجيب انه لم يحاول أن يقرأ رسالتى الغرامية أو أن يمنع زوجته من قراءتها . وفرغت مدام موللر من القراءة ثم وضعت الكتاب فى حقيبة كبيرة معلقة خلف مقعدها ، واستعادت هيئتها المتأملة ، وعيناها محدقتان فى . وبدأ الزوج يقضم فطيرته فى قضمات كبيرة فى نظافة وسوقية .
اخذت قطعة من الفطير من فوق الصينية التى قدمهـا لى الخادم ، ورحت أقضـمها بالبطء والخبث المعروفين عن الاكول الشره ، فرغ الزوج من فطيرته ، وصب لنفسه نصف كأس من النبيذ جرعة دفعة واحدة ثم اخذ منشفته وكورها وعلقها فى حلقة مثبتة بمقعده . تأهبت بدورى للانصراف ، فشربت النبيذ المتبقى فى كأسى وطويت منشفتى على اربع ، وفجأة نهض الزوجان من مكانيهما .
بقيت جالسا ونظرت اليهما دون خجل او حياء . اردت ان يفهم الزوج انه لم يضعنى مكانى بالدرس الذى اراد أن يلقننى اياه . وبدأت مدام موللر بالانصراف ، حيتنى بايماءة من رأسها ثم توقفت بعد بضع خطوات فى انتظار زوجها . وبعد أن تقدم هذا الاخير خطوة الى الامام التفت نحوى وضم عقبيه ووقف كالجندى حين يقـدم التحية . ثم رفع يده ، لا على طريقة التحية الايطالية وانما بطريقة افقية كالتحية الالمانية . وادركت على الفور النية التى تستتر خلف هذه الحركة ، فبعد سؤاله الغبى عن كيفية كتابة اسم نيتشه استمر فى هجومه المقدر لوضع مسافة معينة بينه وبين زوجتـه وتكذيب حتى أقل شك او اى تواطؤ . كان يجب أن أفهم أنه زوج حقيقى ، وانه قد يكون لديه سبب لاحتمال تصرف زوجته دون استحسانه .
انتقل الدرس هذه المرة من الخط الثقافى الى الخط السياسى . كان نوعا من التحدى اراد به أن يختبرنى وان يتأكد أننى فاشى . وقلت لنفسي على الفور ان هـذا التحدى ، فى موقف ايطاليا مـع

المانيا ، بين هتلر وموسوليني في الحكم ، ومعارضيهم المضطهدين او القتلى كان له طابع الترهيب ، وانه شديد الخطر كذلك ، فانني اذا لم ارد على تحيته فمعنى ذلك انني ضد الفاشية ، وعندئذ ...

كان لابد من أن اتخذ قرارا . كان واقفا أمامي ، مبسوط الذراع . وناقشت الامر مع نفسي لحظة واحدة بكل السرعة المعروفة عن كل مايدور في الذهن وما يجب تنفيذه بالضرورة . هل اقبل التحدي ام لا ؟ اولا : كنت استطيع تجاهل التحية الفاشية بأن اتظاهر بأنني لم اره لا هو ولا حركته . ثانيا : ان ارد بايماءة مهذبة من راسي وأنا جالس . ثالثا : ان ارد على تحيته بطريقة غامضة . رابعا : أن اقف وأرد بالتحية الفاشية بكل قواعدها . أقول انني فكرت في كل ذلك في أقل من ثانية . وبينما كنت لا ازال مترددا وقع بصري ، عبر ذراع مستر موللر المبسوطة ، على النظرة الايجابية لزوجته مشيرة الى بانني يجب ، نعم ، يجب ان أرد على التحية . اكانت اشارتها هذه امرا أم رجاء ؟ لا ادري . ومهما يكن فان في اشارتها طابع اكثر اهمية وعمقا من الطابع السياسي . ولكن الذي دفعني الى التصرف بطريقة مخالفة تماما لاعتقادي هو تصوري انها طلبت مني ان افعل ذلك « حبا لي » ، فلا شك انها أرادت باشارتها ان تقول لي : نعم ، لكي ترضيني ، كن فاشيا ولو لمجرد لحظة .

وقفت في بطء ، ورفعت ذراعي للتحية . وحييته على الطريقة الايطالية ، رافعا ذراعي عموديا . وفي نفس الوقت نظرت ناحيتها ، على امل ان اتلقى مكافأة لهذه الخيانة التي ارتكبتها في حق عقائدي . وبفرحة غامرة رأيتها تدني شفتيها ، الواحدة من الاخرى كما لو كانت تريد أن ترسل الى قبلة ، واشارت براسها أن نعم كما لو كانت تريد ان تقول لي : الي الملتقى . ومر كل شيء في لحظة ثم اجتازت غرفة الطعام مسرعة ، وتبعها زوجها .

كان لابد لي أن اعاود الجلوس ، فان القبلة التي ارسلتها لي منذ قليل ، خفية عن زوجها ، تكفيني للحظة . وبدلا من أن اتبعها اردت أن افكر في تلك القبلة وفي تلك الحركة المستترة التي صاحبتها. ماذا كانت تعني بحركتها هذه ؟ هل تعني أننا سوف نلتقي قريبا وحدنا ؟ ولكن أين ؟ وفيما انا افكر خيل لي ان الفرصة الوحيدة لها لكي تراني من غير أن تزعج زوجها هي ، كما دبرت أنا ، أن تخرج من غرفتها زاعمة الذهاب الى آخر الممر ، وان تتسلل من خلال بابي الموارب . تصورت هذا السيناريو كشيء يمكن أن يحدث ، ولكن ليس على الفور . تحققت المغامرة بأسرع من المتوقع .. ربما

الليلة ، وربما بعد ساعات . عندما فكرت أن زيارة مدام موللر قد تكون قريبة حتى خشيت الا اكون في غرفتي عندما تأتي لمقابلتي . نسيت انني طلبت فنجانا من القهوة واصطدمت بالفتاة التي اقبلت بالصينية والفنجان . وانقلبت القهوة فوق قميصي ، واعتــذرت للفتاة التي ارتبكت والتي تملكها الذعر تقريبا بسبب العنف الذي وقع به الحادث . وخرجت مسرعا من غرفة الطعام .

اتضح ان افتراض قدوم مدام موللر الى غرفتي كان اقل غباء مما ظننت ، فما أن ولجت غرفتي حتى اسرعت الى احد الادراج واخذت منه قميصا نظيفا . وكنت واقفا أمام المرآة لازرره عندما طرق الباب فقلت : ادخل وانا احاول أن اصلح من نفسي وادخــل اطراف القميص في البنطلون ، فقد كان من المستحيل ان اظهر بمظهر غير سليم . ولفرط انفعالي ادخلت أول زرار في ثاني عروة والثاني في الثالثة ، وهكذا ، واضعت وقتا جنونيا .. ولم اعد اســمع طرقا . ولم يفتح الطارق ولم يدخل احد ، وعندئذ مضيت وفتحت الباب واطراف قميصي تتطاير حول ساقي بنطلوني .

لم يكن هناك أحد ، ولكن بقي هيكلها ، خفضت راسي ، فرايت كتابي موضوعا على الارض . انه كتاب نيتشه الذي أرغمني موللر على اهدائه لزوجته .

التقطت الكتاب من فوق الارض ، القيت النظر يمينا وشمالا ، ثم عدت داخل الغرفة . من الذي القى بهذا الكتاب ؟ هي طبعا ، فان الخادمة ما كانت الا لتنتظر . هي ، وربما بالاتفاق مع زوجها ، وفي حضور زوجها الغيور المتواطىء معها بلا ريب . عدت وجلست أمام المكتب واضأت النور وفتحت الكتاب على الصفحة التي وضعت فيها الخطين تحت بيتين من الشعر ، ورايت أن البيتين « ولكن كل لذة تريد الخلود ، الخلود الغامض المتعذر سبره » قد وضع تحتهما خطان آخران ، مع فارق وهو انني استخدمت قلمي الحبر الازرق أما مدام موللر فقد استخدمت قلما احمر ، وزادت فوضعت ثلاث علامات استفهام كبيرة أمام البيت الاخير . ومضيت وكتابي في يدي ، وجلست على حافة الفراش .

اذن فهي لم تؤكد لي تواطئها معي بالذات فحسب ، وانمــا اكدت لي بالخطين الموضوعين بالقلم الاحمر ، تحت الخطين اللذين سطرتهما بالحبر الازرق أنها تريد مني أن افهم ان هــذا التواطؤ

سوف يتغير عن قريب الى شيء اكثر الفة . وانا أعلم أن هنـــاك من يبتسم الان ، ولكن الخطين الحمراوين أوحيا الى طبعا خضوعا كليا لبدنها ببدنى حين نمارس الحب معا .. نعم ، لم يكن هناك أى شك فى ذلك . ولم يعد فى الامر سوى ساعات أو يوم أو يومين على الاكثر ويتزاوج جسدانا . كالخطوط المسطرة تحت أبيات نيتشه .

رفعت ساقى فوق الفراش وتمددت عاقدا يدى تحت راسى وعيناى مرفوعتان نحو السقف . ماذا تعنى كلمة الخلود لهذه الفتاة التى لم تتزوج زيجة طيبة ؟ مادام الامر يتعلق بتفسير كلمة «اللذة» فلم تعد هناك مشكلة فيمكن أن تكون اللذة اى شيء يثير اللذة : حديث صامت للعينين حتى العناق ، كما بدا لى من الخطوط المسطرة تحت أبيات نيتشه .ولكن الخلود ؟.. الخلود ؟.. هـذه الكلمة يمكن أن يكون لها معنى غامضا عند مدام موللر ، ومعنى تافها بلا ريب ، اشبه بتلك البطاقات البريدية ذات المنـــاظر العاطفية والشاعرية التى توحى بحب خالد . ولكن ماذا يكون الحال لو أننى مخطىء ، ولو أن هذه المدام موللر كانت ، ضد كل احتمال ، قارئة ذكية لينتشه ؟.. اذن مامعنى الخطوط الحمراء وعلامات الاستفهام الثلاث المكتوبة تحت كلمة خلود ؟.. راحت هذه الاسئلة تدور فى راسى دون أن أجد لها جوابا ، ودون انتظار اى رد كنت سعيدا . تتغلغل السعادة فى ذهنى كخمر عتيق لم أعتد عليه . غمرنى خدر لذيذ ، وبهدوء رحت أعيد على نفسى بكل غموض سؤالى عن الخلود كما يعنيه نيتشه . وأخيرا غلبنى النوم ، نمت بعمق شديد ، كذلك النوم الذى تكلم عنه نيتشه فى قصيدته ، دون أحلام ، ولمدة قصيرة جدا . عندما صحوت مذعورا نظرت الى ساعتى . رأيت أن الوقت أوشك على انتصاف الليل . نمت ثلاث ساعات . ووضعت قدمى على الارض ، وأطراف قميصى داخل البنطلون وخـــرجت الى الممـــر .

لا أحد على السلم ، لا أحد امام الغرف ، أو فى البهو ، انه لايزال مضاء ، يقف السنيور جالامينى خلف مكتبه يقرأ جريدته . اقتربت منه فى غير تفكير وسألته :

ــ معذرة .. هل تعرف اذا كان مستر موللر وزوجته قـد خرجا ؟

توقعت ردا غامضا ، ولكنني دهشت حين رفع عينيه عن جريدته وقال بعد أن تأملني لحظة :

ـ لقد خرجا بعد العشاء ولم يعودا بعد .

لعلهما خرجا بقصد النزهة .

لم ينطق سنيور جالامينى بشيء ، ولكنه اتى بحركة تدل انه يريد استئناف قراءته فأسرعت اقول :

ـ الم يذكر لك أبوك ابدا أين كان ابسن يذهب عندما كان يخرج للنزهة فى أناكابرى ؟

نظر الى ، ومضت فترة قبل أن يقول :

ـ نعم . اننا نعرف ذلك . كان يمضى الى مكان بعينه .

ـ ماهو ؟

ـ مكان معروف باسم ميجليارا .

ـ وما هو هذا الميجليارا ؟

ـ مكان مرتفع يطل على البحر ويشرف على منظر جميل .

ـ حسنا . وماذا كان ابسن يفعل فى الميجليارا ؟

ـ يجلس على دكة أمام الطبيعة ويبقى هناك ساعات وساعات، ينظر الى البحر .

ـ ساعات ؟

ـ نعم . ساعات . وفى بعض الاحيان طوال بعد الظهر .

ثم ساد بيننا الصمت . وراح سنيور جالامينى ينظر الى جريدة ، فقلت فجاة وقد استولت على فكرة غريبة بعض الشيء .

ـ هل تعرف ياسنيور جالامينى ان نيتشه يقول فى احدى قصائده ان كل لذة تريد خلودا . انا مقتنع انه كان يعنى بقوله هذا تأمل منظر البحر . انها لذة كبيرة ان نتأمل البحر ، فهو يعطينا احساسا بالخلود .

لم يندهش سنيور جالامينى من انتقالى المفاجيء وغير المفهوم من ابسن الى نيتشه ، واجابنى بلهجة مهذبة وهو يداعب لحيته :

ـ ان لدينا صورة لنيتشه هو الاخر . وهى معلقة فى الصالون أن يكون الامر كما تقول . ثم ان الميجليارا مكان خاص جدا .

ـ ولماذا ؟

ـ منذ سنوات وقع انتحار أثار أناسا كثيرين . انتحرت فتاة شابة من أهالى أناكابري بأن ألقت نفسها من أعلا الميجليـــارا الى البحر . تسلقت صخرة تشرف على البحر ، وعقدت ضفائرها فوق عينيها لكى لا ترى ، ثم ألقت بنفسها .

ـ ولأى سبب انتحرت ؟

ـ بسبب الحب طبعا .

ألقيت عليه التحية وعدت الى غرفتى .

- ٣ -

لم يحدث شيء جديد . مر يومان ، ولم تأت مـــدام موللر لمقابلتي في غرفتي ، ولم ترسل الي اى رسالة ، بل انها لم تحـاول حتى أن تحدثني . ظلت على حالها الغامض ، ففي أثناء تنـــاول الطعام ، تنظر الى بعينيها اليائستين الملحتين . بينمـــا يســتمر الزوج ، من ناحيته في تصرفه السابق الذى ذكرته بطريقة سمجة ، وسخطه الذى لايعرف كيف يخفيه .

وطوال هذين اليومين اخذت أقوم بكل مايفعله المرء في المصيف، وانا أحاول أن أفسر سر هذين المسلكين المتوازيين والمختلفين .

خامرني الاحساس أنني أمام شخصين منحلين ، زوجة تطارد الرجال وزوج منحرف جنسيا يقنع بالمشـاهدة . لكنني سرعان ما تخليت عن هذه النظرية ، فان غيرة الزوج كان أقل مايقال عنها انها حقيقية ، كيأس الزوجة بالضبط وخطر لى أن تلك المرأة تتدلل كي تثير غيرة زوج مقصر أصبح غير مكترث ، غير أنى تخليت عن هذه النظرية بمجرد أن خطرت لى ، فقد كان واضـــحا تماما أن الزوج يحب زوجته ، وانه ليس هناك اى داع لاثارة غيرته . ثم أن الغيرة كانت موجودة قبل لقائنا على سطح الباخرة ، خابرت نفسى انه لم يبق غير نظرية أكثر احتمالا لا تطابق اية نظرية ، وهى أن الامر يتعلق بحالة فريدة خاصة لايمكن ان نقارنها بمسألة أخـرى سبق وقوعها ، ومن المستحيل خلقها ثانية ، أعنى حالة شاذة من المستحيل تفسيرها في وقتها ، وانما أن نحياها شيئا فشيئا ، وأن نؤجل تفسيرها الى آخر التجربة .

وعندما بلغت هذه النقطة . فكرت انه لابد أن اعيش مغامرتى العجيبة حتى النهاية دون ان احاول تفسيرها ، وأن اسعى الى فهمها أكثر بمعايشتها .

لم تغير هذه الخواطر شيئا من مشاعرى نحو مدام موللر ، سواء كنت في غرفتي أو أستحم في البحر او اتنزه . كانت الشكوك تعذبني ، وكان يكفى أن أجلس الى المائدة وان أرى هاتين العينين الواسعتين الخضراوين تحدقان في ، مكفهرتين يائستين ، تحت هدب

من الشعر الاشقر غير المشط فيعاودني الاحســـــاس بالارتباك العميق الذي أحسست به عند أول لقاء لنا . وددت أن أرفض هذه المناجاة النظرية ، والا أفكر الا في تناول الطعام وأن أبرح مكاني من غير أن ارفع عيني نحوها ولا مرة واحدة . ولكنني عجزت عن ذلك . كانت تأتي لحظة وتتلاقي نظراتنا فيبدأ من جديد حديثنــا الصامت المكون ، من ناحيتي بأسئلة محددة ، ومن ناحيتها بردود مبهمة ، وفي حضرة زوجها الذي يتدخل من وقت لاخر وبرغم زوجته على الاشتراك معه في حديثه البغيض بصوت خافت . واثناء ذلك الحديث الذي تنهيه دائما ببضع كلمات وجيزة كان كل شيء يبدأ من جديد ، فكانت تنظر الى ، فيعبر الزوج عن غضبه بتلك الحركات التي تصاحب عادة المشاحنات العائلية ، فيضع كأســه فوق المائدة في عنف ، أو يدق بملعقته او بشوكته على الاطباق او يتناول طعامه في شراهة مفرطة .

ولكن الشيء الذي أثار دهشتي أكثر من اي شيء آخر هو تلك الارادة القهرية التي تظهر بوضوح تحت حزن مدام موللر . تساءلت كيف يمكنها أن تمارس ارادتها على احساس غير ارادي كهذا ، واعني به الميلانكوليا .. فتنني هذا التناقض الغريب الذي لا تفسير له ، بحيث لم أستطع تجنب النظر اليها . كان الامر أقوى مني . ففي هذه المراة اصرار ووضوح يتجاوزان بكثير كل حــدود النظرات والتدال وحتى الوله . كان في تصرفها شيء أشــبه بمخطط تقوم بتنفيذه دون تردد أو خطأ ، وقد حدث في اليوم الثالث لاقامتي في كابري ما أكد لي هذا الانطباع .

خرجت بعد تناول العشاء مباشرة كي أمضي الى القرية عبر الطريق العام . احسست بأنني في حالة ذهنية غير عادية ومختلفة عن أوهامي العادية اليائسة ، وذلك لانني في تلك الليلة احنقتني نظرات مدام موللر الملحة وقررت أن اتصرف . ولكنني لم أكن أدري ما سأفعله بالذات . غير أن الشيء الذي كنت متأكدا منه هو انني كنت أريد الخلاص من هـــذا الموقف بأسرع وقت . كان يجب أن أتصرف بأي طريقة وبأي ثمن ، حتى ولو جازفت بسحق بداية تلك العلاقة الغرامية ، وبالاضطرار الى العودة الى عزلتي .

كنت قد لاحظت أن مدام موللر وزوجها يخرجان مساء كل ليلة ، بعد العشاء للنزهة قبل أن يعودا الى غرفتها . وقلت لنفسي انني سأتبعهما عن كثب وانني سأواجه المراة بطريقة لم أتصــورها

بعد لانني أنوى أن انقاد طبعا للظروف ، وأرغمها أن تعطيني موعدا كي نلتقي بعيدا عن زوجها المزعج .

لحقت بهما في الطريق العام ، وتبعتهما عن كثب . كانا يسيران ببطء وهدوء ، شأن الذين لا يهمهم غير هدف واحد ، هو التمتع بأمسية جميلة . كانا يسبقاني ، وكما كان ذلك يحدث لهما كثيرا فقد كانا يعرضان عواطفهما الحميمة بصورة مفرطة . راقبتهما كثيرا وانا أعتقد انهما لا يريانني . يتقدمان ، يلتصقان بعضهما ببعض ، يتعانقان ، ذراع الزوج حول خصر زوجته تقريبا ، كما لو كان يساندها كي يمنعها من الوقوع ، وذراع الزوجة تحيط بظهر زوجها في شيء من الانحراف ، كما لو انها تخاف حقا . كان هذا الوضع يرغم مدام موللر على أن تحني راسها في رفق على رأس زوجها ، ولكنه يرغمها ان تلوى ساقيها المعروقتين النحيفتين لمسايرة الجسد الرياضي الذى يمشي بجوارها . الخلاصة أنه عناق يفتقر الى الانسجام بين الرجل البدين القوى والمراة النحيفة الرقيقة . تصورت انهما لايريانني ، وكان هذا غير صحيح ، فها هي ذي فجاة تدير رأسها نحوى كي ترميني باحدى هذه النظرات الطويلة المعبرة ، لكنني رايت في عينيها هذه المرة أن حنانها العادى قد تضاعف بسبب يأسها الحالي . خيل لى انني اسمعها تقول : أرايت ما انا مضطرة أن اتحمل الان ؟ » لحظ الزوج ايمائتيها ولم يسحب ذراعه من حول خصرها ، وانما امسك ذقنها بأصبعين من يده الاخرى وادار وجهها اليه . وتلت ذلك مشادة : هو مؤنبا ومعنفا ، وهي محاولة تبرئة نفسها . كنا قد بلغنا ميدان الكنيسة فترك كل منهما الاخر ، دخلا مقهى . توقفت لحظة كي أعطيهما الوقت لاختيار منضدة والجلوس ، ثم دخلت بدورى .

كانت صالة تلك المقهى مستطيلة ، والمناضد متراصة بطول الجدار ، بمواجهة المنصة . بينما جلس صاحب المقهى أمام المنصة يثرثر معه زبون ضخم الرأس أسمر الشعر ، مجعده . وكان آل موللر قد جلسا الى منضدة بجوار الراديو . تظاهرت بالتردد ، ثم جلست الى منضدة قريبة منهما . كانت هناك جريدة على منضدتى فأخذتها ، تظاهرت بقراءتها . أمسكتها عند مستوى عيني ، وببطء شديد خفضت ذراعي اللتين تمسكان بالجريدة ، وعندئذ ، وعلي الفور ، التقيت بتلك النظرة التي تحدق في عيني مباشرة : نظرة حزينة مستمرة . وأعدت الجريدة كما كانت ،

وتظاهرت انني اقرأ من جديد . ومن جديد خفضت الجريدة ، النظرة لاتزال موجودة كما كانت امام المائدة تلك الليلة ، وكما كانت كل مساء وكل صباح منذ ثلاثة ايام . القيت نظرة الى الزوج بطريقة طبيعية وهو يحاول ضبط جهاز الراديو حتى لايبدو انني اتعمد ذلك .

ما العمل ؟ كنت قد نويت ان أتصرف . من المستحيل ان اؤجل قراري ، لم ادر كيف أفعل . يمكنني استخدام الطريقة الفعالة والصريحة والمباشرة وهي أن أواجههما معا ، واطلب تفسيرا. او على العكس ، ان اغير رايي ولا اواجه مدام موللر بطريقة غير مباشرة . وكانت الطريقة الاولى تفرينى ، لا لشيء الا لاستطيع ان افهم تصرف الزوج وادركت انه لابد لى من استخدام الطريقة الثانية لسبب وجيه وهو انها الطريقة الوحيدة التى تبدو ان مدام موللر تفضلها . وعلى كل فهناك احتمال وقوع قطيعة نهائية ، وهذا ما أردت تجنبه حتما فى ذلك الوقت ، وعليه فقد اخترت الطريقة العادية التى يفضلها كل الزناة منذ ان قامت الدنيا . سأكتب رسالة أبعثها اليها خلسة محاولا الا يرانى الزوج .

ماكاد العزم يستقر منى حتى أقدمت على الفور ، فانتزعت ورقة من دفترى ، وأسرعت وكتبت العبارة التالية : يجب أن اكلمك سأترك باب غرفتى مواربا الليلة ، فتظاهرى بانك ذاهبة الى دورة المياه وقفى امام غرفتي . يمكنك المجيء فى اية ساعة .

أعدت دفترى الى جيبى ، لم يعد أمامى الا ايجاد الوسيلة لاعطائها رسالتى .. نعم . لكن كيف ؟ رفعت عينى اليها وانا اردد السؤال عندما رأيتها تنظر الى بنفس النظرة الحزينة الملحة تبخرت كل مشاريعي وتوخيت الحرص والحذر بسبب آلالم غير المتوقع الذى احسست به ، نهضت فجأة واقتربت من منضدة آل موللر وانحنيت أمامها بالطريقة الالمانية ثم خاطبت الزوج بلهجة مهذبة وحازمة :

ـ هل تسمح لى بالجلوس بالقرب منكما ؟ أريد أن اسمع برنامجا يهمنى .

كان جسمه منحنيا فوق الراديو وهو يعالج مفاتيحه ، ادار راسه نحوى ، ونظر الى لحظة كأنه لايعرفنى ويحاول عبثا ان يتذكر من انا . رأيت ، عبر نظارته ، عينيه تومضان بالغضب . وتأهبت عندئذ لمناقشته ، وربما لعدوان طبيعي ، لكن لم يحدث شيء من هذا ، فقد حول بصره وهو يبذل جهدا جبارا ، ثم عاد الى

الراديو ، تماما كأننى غير موجود ، وكأننى لم أتكلم ، وكأنه لم يسمعنى .

الرسالة فى جيبى ، رايت ان اللحظة المناسبة قد حانت كى اسلمها لها . لم يكن الزوج ينظر الينا . استدرت نحوها وبسطت لها الرسالة وانا اكاد اثق انها على استعداد لان تاخذها . ولكننى كنت مخطئا ، فقد تصرفت مدام موللر كأنها لم تر شيئا ، مدت يدها دون أن تنظر الى ، اخذت كأسها ورفعتها الى شفتيها . كأنهما متفقان على أن يتجاهلانى ؟ وتملكنى الغضب فكورت رسالتى والقيت بها ارضا . وعدت فجلست الى منضدتى . وكما سبق أن قلت ، لم يكن فى المقهى أحد غيرى انا وآل موللر والزبون المجعد الشعر الذى يثرثر معٌ صاحب المقهى ، يقف بطريقة تمكنه من رؤية منضدتى ومنضدة الالمانيين . وفهمت على الفور ، من نظرة عينيه ومن الفضول الذى ارتسم على وجهه أن مسألة الرسالة لم تغب عن نظره . رايته وقد اتخذ قراره فجأة فقد ابتعد عن المنصة واقترب من الزوج .

انحنى الى الامام وسأله بلهجة أهالى كابرى :

ــ هل تريد اذاعة المانيا ؟.. اتريد الاستماع اليها ؟.. سوف اجدها لك ، اذا سمحت .

روعنى ، وهو يتكلم ، راسه الضخمة من راس الالمانى ومد يده نحو مفاتيح الراديو ، وفيما هو يعالجها القى الى نظرة مشجعة ، كأنه يريد أن يقول لى : هيا ، حانت اللحظة المناسبة .

اللحظة المناسبة ؟.. لاى شىء .. ما دام الزوج والزوجة قد بدا عليهما انهما يتجاهلانى ؟.. خفضت راسى حائرا ، ورأيت ان كرة الورق التى فوق الارض موجـودة بالذات تحت قدمى مدام موللر . تصورت انها تجاهلتنى بسبب مختلف عن زوجها ، فقد تجاهلنى هو عن كراهية ، اما هى فتجاهلتنى حتى لا تفضح نفسها ، أو ربما بسبب الحب ، وربما لم يضع شىء . كان يجب أن أنتظر اللحظة المناسبة حيث يمكنها أن تنحنى وتلتقط الورقة دون أن يلحظ موللر ذلك . لكن ما العمل حتى لا يلحظ موللر شيئا ؟.

وبغتة جاء الراديو الذى يعالجه موللر والزبون لمساعدتى . فقد انبعثت فى البداية موسيقى صاخبة ثم ، وبعد صمت ثقيل وطويل انبعث صوت ، صوت وحيد وقيادى نطق ببضع كلمات مؤثرة تجىء من مكان فسيح .. قاعة مؤتمرات أو ميدان عام زاخر

بجمهور المستمعين ، يصغون فى اهتمام شديد . لم يقل لى هذا الصوت شيئا فيما عدا حقيقة ان الامر يتعلق باجتماع الحزب الوطني الاشتراكى ، وكان طبقا لكل الظواهر صوت شخصية كبيرة فى الحزب . لم يكن صوت هتلر لانني اعرفه تماما ، لابد انه صوت احد القادة المهمين الذين يحتلون مكانة عالية فى الحزب ، بدا أن موللر مهتم بخطابه كل الاهتمام . نظر الى الزبون الذى ساعده وشكره بحرارة لاهتدائه الى اذاعة المانيا ، ثم اقترب اكثر من الراديو . وهو يعطي ظهره لزوجته التي لم تتحرك وظلت تنظر الى بطريقتها الملحة . أحسست ان اللحظة المناسبة قد حانت ، فقطبت جبيني بطريقة قاسية واشرت بذقنى الى كرة الورق التى عند قدميها كى أحثها على التقاطها . وكنت أنتظر ان تنحنى وتلتقطها وتقرأ رسالتى . لكنها بقيت على غموضها ، لم تأت بأية حركة . وبدءا من تلك اللحظة ، بدا لى نوع من العذاب سببه تعاقب قلقين وجزعين مختلفين ومتلازمين . ذلك الذى يوحيه صوت الشخصية الكبيرة التى تتكلم بالالمانية ، ولم استطع أن أمنع نفسي من الاحساس به ازاء تصرف هذه المراة غير المفهوم . حاولت أن أشير اليها الى كرة الورق الجامدة عند قدميها . ومرة أخرى أحسست بخيبة املى فحولت عيني عن وجهها وانا اتظاهر بعدم الاكتراث . وعندئذ تغلغل فى أذني رغما عنى صوت الخطيب . والغريب أن فكرة غبية وملحة خطرت براسى عندئذ . كان الصوت يرن فى اذنى وكانه هتلر . لا فى مثل هذا المقهى الصغير الحقير بأناكابرى يمكن ان استمع الى صوت قائد صغير فى مانيس أو فى لوبيك !.. آه ، اما هذا فلا . وكما هو واضح ، لم اكن جديرا بأن افكر بطريقة عادية . صوت الراديو والرفض الصغير لهذه المرأة فى أن تتعاون معى ، والنظرة الفضولية التى يرمينى بها الزبون ، وهو يتكىء بظهره على المنصة ويستمر فى مراقبتنا ، مما ساهم فى اضطرابى . وفى لحظات وضوحى كنت سأصف نفسي بالغباء وأنه ليس أمامى الا أن انهض وأغادر المقهى . لكننى بقيت مكانى ، آملا ان تنحنى وتلتقط رسالتى .

مرت ساعة تقريبا . لم تكف مدام موللر عن النظر الى دون أن ترى الرسالة التى تنتظر يدها ، والزوج يدخن سيجارا ضخما وقصيرا ، ويصغى الى الراديو باهتمام وهو يهز رأسه بالموافقة من وقت لآخر ، ومن أعماق المانيا هتافات نازية تأتينا والزبون معتمد ظهره على المنصة عاكف على مراقبتنا .

فجأة انفك الموقف سريعا فى حل غير متوقع ، فقد ختم القائد النازى خطابه ، وانبعث بعده تصفيق حاد غير متقطع . واقفل مستر موللر الراديو وتحول الى زوجته التى انحنت عندئذ والتقطت رسالتى وبسطتهاوقرأتها ثم اعطتها لزوجها بكل بساطة . قرأها الزوج ثم وضعها فوق المنضدة ، ونهض فى حركة ثابتة وهادئة ، فقد سمع خطاب القائد وانتهت السهرة وحان وقت العودة .

كنت شديد الغضب ... غضب تشوبه الدهشة والعدوانية. لم اكن استطيع ان انظر الي شيء آخر غير الوجه العزيز المثلث الزوايا الذى يخفيه شعرها الاشقر . وباحساس من الغيرة والتمرد ازاء هذه المخاتلة الخالدة رايتها تنهض بدورها وتأخذ رسالتى من فوق المنضدة وتتبع زوجها . وعندما مرت أمامي رفعت رسالتى الى شفتيها ، والقت الى نظرة متوسلة ، كأنها تقول : لا تغضب . لم يكن لى خيار ، لكننى احبك . وبقيت أمام منضدتى فى حالة ذهنية معقدة ، يمتزج فيها الغضب والامل والحرمان والسعادة .

نهض الزبون القصير واقترب مني وقال :

ـ على كل فهذه الالمانية امراة جميلة .

لعله اعتبر نفســــه شريكى فى المغامرة ، فقد ساعد موللر على الاهتداء الى المحطة التى تهمه ، وافلح فى تحويل اهتمامه عن زوجته وعنى ثم ... ألسنا من الايطاليين المشتركين فى نفس المفهوم الكازانوفى عن المراة . أجبته فى خشونة :

ـ معذرة . يجب أن انصرف ، فلدى عمل ينتظرنى .

نهضت ، وخرجت من المقهى بخطوات سريعة .

- ٤ -

في صباح اليوم التالي أقلني الاوتوبيس من اناكابرى حتى ديو جولفى ، ومن هناك مشيت على قدمى فى طريق مختصر يؤدى الى شاطىء البيكولا مارينا . لا ازال فى نفس الحالة الذهنية ، أبذل جهدى لتبين موقفى دون ان اخفى عن نفسى أن علاقاتى مع مدام موللر لم تحرز أى تقدم منذ لقائنا الاول على سطح الباخرة .

قلت لنفسى فى شيء من الغيظ انه لن يكون اى شأن لى بهذين الالمانيين بعد اليوم . لاحظت ان هذا القرار يضاعف يأسى الأصلى بيأس آخر طارىء . كنت فى الواقع ، وبطريقة غامضة متعلقا بمدام موللر ، لا أطيق فكرة التوقف عن رؤيتها ، حتى بتلك الطريقة الشاذة التى لا تسر كثيرا ، والتى تتابعت علاقاتنا بها حتى اليوم .

والطريق المختصر الذى يؤدى من ديو جولفى الى شاطىء البيكولا مارينا طريق قديم ينحدر حتى البحر بممرات ملتوية ومتعرجة بين جدران صغيرة من الاحجار اليابسة والسمراء تحت الكروم المتوحشة واشجار التين الضخمة . ومن مكان لآخر شجرة خروب تتجاوز الاشجار الاخرى وتلطف بظلها حرارة الشمس . ومن مكان لآخر ايضا بوابة قديمة تظهر من بين اعمدتها واجهة فيللا فى آخر ممر . وطريق البيكولا مارينا المختصر ، كغيره من الطرق الجانبية ، يقطع الطريق العام ويختصر المسافة . وعندما تلتقى بأحد هذه المفارق يجب عبوره والعودة الى الطريق المختصر من الناحية الاخرى.

عندما بلغت أول المفارق ، بين الطريق المختصر والطريق العام نظرت الى اليمين ثم الى اليسار قبل العبور ، رأيت فى أول المنعطف عربة قادمة نحوى ، فى اتجاه شاطىء البيكولا مارينا . وعرفت فى العربة على الفور مدام موللر ، جالسة مع زوجها . وشعرت بسرور كبير ، كذلك الذى يشعر به الصائد الذى مشى فى الغابة طويلا ودخل صدفة مرجة ورأى الفريسة التى يبحث عنها واقفة أمام العشب وتحت الشمس .

لم استطع عندئذ أن امنع نفسى من التفكير ، اننى فى اللحظة التى عاهدت نفسى فيها الا التقى بمدام موللر ، كنت أبحث عنها

فى الواقع ، او بالحرى ، لاستمرار المقارنة ، كنت أطاردها . مقتنعا انه لا يجب أن أقاوم ميلا عنيدا وعنيفا كهذا . توقفت عند حافة الطريق وانتظرت حتى تصل العربة الى المكان الذى أقف فيه . لا ريب أن أوراق غصن شجرة خروب ضايقت آل موللر لانهما لم يريانى . أما أنا فاكتفيت بأن أتراجع قليلا لكي ارى الجواد بكمامتين على عينيه وسرجه وسائقه الجالس فوق مقعده ، والعربة كلها بعجلاتها الكبيرة ، والالمانيين جالسين فى الخلف ، فوق المساند . كان موللر جالسا على جانب ، وزوجته على الجانب الاخر ، ناحيتى ، وكان الزوج يتأمل المناظر التى تتتابع أمام عينيه . أما هى ، فكان من المستحيل أن اعرف الى أى شيء تنظر ، فقد كانت تضع فوق عينيها نظارة سميكة سوداء . رأيت على الفور اننى اذا اردتهـا أن تنظر الى ، فيجب أن أفلح فى حملها على نزع نظارتها ، والا فكيف نستطيع ان يخدم كل مناالآخر ، وأن نتبادل لغتنا الصامتة العادية . نسيت قراراتى الحكيمة واستبد بى القلق الآن لمعاودة تبادل النظرات . اقتربت العربة ، ورأيت الوجه الثلاثى الزوايا الفاتن ، والنظارة السوداء تخفى عنى عينيها تماما ، رحت أفكر كيف احملها على نزع النظارة . هل اتقدم فى الطريق وانا أشير بذراعى لكى أطلب المرور واجتاز الشارع فجاة مجبرا السائق على الوقوف . او أصرخ بأى اسم لأنبه السائق ثم اعتذر بعد ذلك بأننى مخطىء . اصبح آل موللر الان امامى . وكانت تدير رأسها نحوى ، ولـكن بسبب النظارة السوداء استحال على أن أعرف الام تنظر ..! الى شجرة الخروب أم الى شيء آخر .. ثم .. ثم .. وقعت معجزة فان مدام موللر رفعت يدا ، وفى بطء وفى شيء من الاناقة ، خلعت نظارتها .

كان انطباعى الاول هو مشاهدة فعل فاجر استعراضى مثير كله خبث ، وأنها ، بدلا من أن تخلع نظارتها تفك أزرار بلوزتها لكى ترينى ثدييها ، وكأنها تريد أن تقول بحركتها هذه ان علاقتنا مرتبطة بأعيننا . واننا تحاببنا حتى الان بأعيننا : لعلك خشيت ان اكون قد كففت عن حبك ، ولكى تطمئن ، هاك عيناى « عاريتان » .

التقت نظراتنا اخيرا خلال الهواء المائل الى الزرقة فى تلك الصباحية الهادئة . وفى لحظة الالتقاء تبدلت فجاة الى شـفتين ملهوفتين للامتزاج والتشبع . احسست لحظة اللقاء باحساس مثير لألفة طبيعية . وكان مدام موللر ارادت منى أن افهم أنها خلعت نظارتها لى ، ولى وحدى ، فقد اعادتها فوق أنفها . ومرت العربة

امام شجرة الخروب التى تخفينى . وبسرعة كبيرة لم اعد ارى غير راس الزوجة الشقراء وراس الزوج الصلعاء تتجاوزان مسند المقعد الخلفى للعربة .

عندئذ خطرت لى فكرة خاصة بالمحبين واشبه باللعب . فرحت اجرى مسرعا بقدر الامكان بطول الطريق الفرعى حتى المكان الذى يفضى الى الطريق العام ، وهناك وقفت انتظر مرور العربة . سأرغم مدام موللر على أن تخلع نظارتها مرة اخرى وساداوم لعبتي الصغيرة حتي المفرق الثالث ، وحتى الرابع ، اذا كانت هناك اربعة مفارق ، وهكذا دواليك حتى نصل الى شاطىء البيكولا مارينا حيث يلتقى الطريق المختصر بالطريق العام فى النهاية .

عقدت العزم على كل شىء ، ومع ذلك احسست بالقلق لاننى اتصرف كمجنون ولا يمكن لأحد ان يمنعنى . عبرت الطريق ورحت اجرى دون أن أبرح الطريق المختصر ، بين جدران الاحجار اليابسة والسمراء . أعلم أنه ليس من الضرورى أن أجرى لان الجواد كان ينطلق خببا تقريبا . أردت ان اصل الى المفرق قبلهما حتى لا أحرم نفسى من السرور الغريب برؤيتهما يظهران فى اعلا الطريق كأنهما يلبيان رغبتى المحددة تماما .

وصلت وانا الهث ، انتظرت طويلا قبل ان ارى العربة تظهر فى المنحنى . انتظرت وقتا اطول بحيث خشيت ان تكون العربة قد مرت بطريقة سحرية . لكنها ظهرت اخيرا . غير اننى احسست باحباط كبير وانا أرى اننى ، بسبب المنحنيات والمنعطفات ساجد الزوج هذه المرة ناحيتى . كان فى مقدورى العبور ، بدلا من الانتظار مكانى ، ان اقف على الناحية الاخرى . لكن الوقت لم يكن كافيا لكى يجعل اللقاء كأنه مصادفة ، بل سوف يعتقدان اننى أفعل هذا عمدا لاغاظة مدام موللر التى سترفض ان تخلع نظارتها طواعية . فما العمل ؟. ترددت طويلا ، بحيث أن العربة أوشكت أن تتجاوزنى. عندئذ استقرت نيتى ، مستندا الى قرارى هذا « فات الوقت لاعطاء الانطباع بالمصادفة . لا باس . لن يكون لديها اى شك فى نواياى ». عندئذ ، اجتزت الطريق بوثبة واحدة ، ملامسا خطم الجواد . شد الحوذى عنانه كى لا تدوسنى العربة . توقفت العربة ، ورايت ، فى سرور جنونى تقريبا أن جراة تصرفى قابلتها جراة تصرف مشابه من مدام موللر ، فان الحوذى ، فى غضبه ، نظر الى من فوق مقعده ، ورفع سبابته الى صدغه دليلا على دهشته ، وصاح : هل انت

مجنون .؟ كيف تلقى بنفسك هكذا تحت جوادى والطريق كله خال ؟. ما الذى يدور فى راسك ؟. اتيت بحركة اعتذار ، وفى نفس اللحظة خلعت مدام موللر نظارتها وحدقت فى ، واتت براسها بنفس نظرة اللوم التى صدرت منها عند أول لقاء لنا على سطح الباخرة . غرز الحوذى قلنسوته فوق راسه فى غضب ، ثم هز العنان لكى يعاود الجواد الانطلاق . تحول الزوج لكى ينظر الى فى اهتمام . كيف اقول ؟.. نظر الى نظرة متعالية تقريبا ، كعالم فى علم الحشرات ينظر الى حشرة من نوع غير معروف ، استدارت مدام موللر نصف دورة بدون نظارتها كى تنظر الى مرة اخيرة قبل ان تعيد نظارتها مكانها . وتابعتهما بعينى وهما يبتعدان ، ثم رحت أجرى فى الطريق المختصر على الفور .

طفقت أجرى كالمجنون . وكنت اقول لنفسى وانا اجرى انه ليس من الضرورى أن اعبر الطريق كالمرة السابقة ، فان مدام موللر ستكون من ناحيتى وسيكون زوجها فى الناحية الاخرى . كنت ارى الامور فى وضوح ، ولكننى لم أخدع نفسى ، فقد كنت منزعجا كل الانزعاج ، بذلك الاحساس كما سبق ان قلت لا ذلك الاحساس الذى نشعر به عند ذهابنا للصيد . كان هذا هو بعث الطمانينة الى نفسى واعطانى الانطباع اننى اتصرف كالمجنون وان هناك شيئا متسقا فى جنونى .

آه . هاهو أخيرا الطريق الفرعى ، وها هو الطريق العام . فى تلك اللحظة بالذات اقبل الجواد بالعربة خببا . وتوقفت وانا الهث ، نظرت ورايت مدام موللر ترفع يدها للمرة الثالثة وتخلع نظارتها ببطء . وانتزعها زوجها منها على الفور تقريبا وطوح بها الى الارض فى غضب . صاحت زوجته بالايطالية تهيب بالحوذى ان يتوقف . وشد السائق اللجام وتوقفت العربة .

هبطت مدام موللر والتقطت نظارتها التى وقعت فى منتصف الطريق ، فوق الاسفلت . واذ رات أنها انكسرت القت بها على الارض ثم عبرت الطريق قاطعة الطريق الاخر الفرعى المواجه للمكان الذى اقف فيه . وهبط زوجها من العربة بدوره لكى ينقد السائق أجره ، ولكى يقطع الطريق العام خلف زوجته . واختفى وهو يعرج تحت ثقل آلة تصوير ضخمة ، وحقيبة كبيرة . اندفعت خلفهما وانا أجرى تقريبا .

لم يبتعدا كثيرا ، فقد قطعت بضعة امتار ، وجدتهما بعد

منعطف يتقدمان . توقف هو فى منتصف الطريق . اما هى فقد ارتقت سورا قصيرا وادلت بساقيها فى الفراغ .

أبطأت السير ، والقيت بالتحية بالالمانية كأنهما نزيلان فظان بالبنسيون التقيت بهما صدفة وأحييهما لمجرد المجاملة . ولكن دعوتي المبهمة حفاظا على العرف القائم عادة فى أماكن الاصطياف لم تلق قبولا حسنا ، فقد رد الزوج على تحيتى فى غضب لم يستطع التغلب عليه ثم أردف يقول بعد لحظة صمت :

ـ أظنني افهم انك تريد التعرف بروجتى ؟. فهل انا مخطىء ؟.

بدأت اقول فى ذهول :

ـ الحق انني ...

ـ لا تحتج . الامر كما اقول . سوف أقدمها اليك اذن . انها تدعى بيت ، وهى فى التاسعة عشرة من عمرها . وهى ممثلة . ماذا أقول لك اكثر من ذلك ؟. نسيت أن ما يهمكم فى المرأة ، انتم معشر الايطاليين ، هو مظهرها الطبيعى . حسنا . اذا كانت الايطاليات يحظين بنظرات الاعجاب على العموم ، فان بيت لديها كل ما تتمناه مواطناتك .

وبعد أن لزم الصمت لحظة امسك بيت فجأة (وسوف ادعوها بيت منذ الآن) من يدها وحملها على الهبوط من فوق السور الذى كانت جالسة عليه . تعالى يابيت . صحيح اننى زوجك الشرعى ، ولكننى مستعد أن اترك مكانى لحليفى الايطالى ، ويجب ان يعرف ما ينتظره ، ولهذا اريد قبل أن اذهب ... ماذا اقول ؟.. اريد ان أصفها لك قليلا ... انظر ، وقل لى ، اليست بيت امرأة شهية ولذيذة من جميع وجهات النظر ؟. لعلها نحيفة بعض الشىء ، وغير ممتلئة ، ولكنها ما زالت مراهقة . وهذه ميزة . ولكن فى الاستطاعة التخمين بأنها سوف تكون امرأة رائعة ، انصحك بأن تعير اهتمامك الى لون شعرها وعينيها ، وهو اتساق عجيب فى الالوان ، اذا اردت. فالشعر أشقر ، والعينان خضراوان ، والانف دقيق جدا ولكن منخاريه مفتوحان جيدا . والفم كبير ومكتنز به سمة متقلبة ، والاسنان منفصلة بعضها عن بعض وناصعة البياض ، تروق جدا للناظرين . وناهيك عن جسدها ، فهو الاهم بالنسبة لك . سوف تراه عن قريب فى ثوب الاستحمام . ومع ذلك فاننى اريد ان أشير الى عرض كتفيها . آه ، آه . جرمانى اصيل . وكذلك نحافة خصرها انك تستطيع أن تطوقه بيديك ، وأخيرا طول ساقيها . انها نعامة

حقا . مجمل القول نوع نادر من الجنس الجرماني ، وبما انك من الهواة بالتأكيد سوف تقدره حق قدره .

والشيء الذي ادهشني في هذا الوصف الساخر لبيت هو ناحيته المؤلمة والمحزنة ، كما لو ان موللر برغبته في أن يعاقبني بدرسه العادي في الاخلاق كان أول من يتعذب ويحس بأنه يتلقى العقاب .

ومن ناحية أخرى ، وهذا ما خطر لي ، فان الدرس هذه المرة كانت له علاقة وثيقة بالرأى المخادع شيئا ما الذي يكونه عن الايطاليين ، وهو رأى لم يدهشني لانني اعرف انه منتشر جدا في المانيا . لقد اثارني لانه يضع ما يميزنا ، الواحد عن الاخر في وضع كاذب وجائر ، فقد اراد موللر ان يهينني ، وكنت انا راض مسبقا بالاهانة ، ولكن ليس بالحجج الخاصة بالمعتقدات الوطنية .

وبينما أتساءل كيف يمكنني الرد على هذا الدرس . ابعدت بيت يد زوجها التي تمسك ذراعها وقالت وهي تنظر اليه :

ـ حسنا . الا ترى أن الوقت حان كي نذهب الى الشاطيء .

ومن غير أن تحييني أو تبدى ما يدل على أنها لحظت وجودى . أولتنا ظهرها واختفت . تردد موللر بضع ثوان ثم أشار الى اشارة غريبة ، بين التهديد والتحية ، وتبع زوجته .

مرة أخرى ما العمل ؟. الواقع أن بيت برحيلها المفاجيء منعت علاقاتنا من تجاوز الحدود الضيقة والمزعجة لمناجاتنا الصامتة . لماذا لم تأخذ مأخذ الجد تقديم زوجها الساخر ولماذا لم تضغط على يدى ، لماذا لم تقل لى الكلمات القليلة التي تقال في مثل هذه المناسبات ؟. كنا سنغدو متعارفين ، شاء الزوج أم لم يشأ ... شخصين يمكنهما ، طبقا لقواعد الاداب الطيبة أن يتحدثا أكثر من أن يتبادلا النظر . ولكن بيت لم تفعل ذلك . كان واضحا انها تريد اطالة ألعابها المثيرة .

احسست برغبة شديدة جدا عندئذ في العودة الى اناكابرى في أول أوتوبيس ، عدلت فجأة عن هذه النية التي تأتي كبرهان متأخر على كل حال لكرامتي المهدورة حين خطر لى انني اذ ابلغ اناكابرى سأقع من جديد في يأسي العادى حتى من غير التوقع المريح بتقاسمه معها . صحيح انني بحاجة الى بيت ، ليس فقط كمثال كامل للجنس الالماني ، كقول موللر ، وانما كشبيه لى ، كصديق موثوق ، شخص يزدوج معى ، وبكلمة واحدة برفيقة في مغامرة فسيولوجية مماثلة .

فتنتني فكرة تشابه مصيرينا بحيث استقر مني العزم ،

عاودت السير فى بطء . آثرت الا اتبع آل موللر عن كثب حتى لا اتسبب فى الوقت الحاضر على الاقل فى انفجار جديد لغضب الزوج .

هاهو أخيرا شاطىء البيكولا مارينا . كانت هناك عربات كثيرة واقفة بجيادها تحت الشمس الحارقة ، تنبعث من بينها رائحة الروث . وعبر الدكة التى جلس السائقون عليها يثرثرون ، يمتد البحر حتى الافق . وكان الجو صافيا ولطيفا ومنيرا . وهمسات المصطافين المرحة تتصاعد من تحت اسطح مقصورات مختلفة الالوان .

هبطت مسرعا الدرجات المؤدية الى المصيف ، حتى الكشك المستدير الذى يقف فيه صاحب المصيف عادة . تساءلت فى اية مقصورة آل موللر . سارت نواياى الحسنة للكتمان مع التيار كما ترون . اردت أن اكون على مقربة من بيت بقدر المستطاع .

كان حارس الشاطىء جالسا هناك . رجل عجوز ، احمر الوجه ، افطس الانف ، اقتربت منه وفى نيتى أن اسأله ان كان قد راى زوجين المانيين : الرجل طويل القامة وبدين والمرأة شابة شقراء الشعر . كان لابد لى من رقم مقصورتهما . وبحثت سريعا عن حجة تهمني وتهم الحارس وآل موللر فى نفس الوقت . جاءنى الالهام فجاة فقلت مختتما حديثى :

ـ نريد ان نقوم بنزهة معا فى القارب . هل لك ان تضع لى قاربا فى البحر اذا سمحت .

حيلة جميلة نجحت فعلا ، فقد سألنى ان كنت اريد قاربا صغيرا او كبيرا ، فأجبته بانني اريده صغيرا ، واردفت :

ـ واريد كذلك مقصورة مجاورة لصديقي آل موللر .

واعطانى مفتاح المقصورة رقم ١٥ وهو يقول أن مقصورة آل موللر رقم ١٦ .

كانت المقصورة مطلية باللونين الازرق والاخضر ومتراصة تحت سقيفة من الالواح فى ممر يشرف على البحر ومبلط بالاحجار الرمادية ، وحيث تتمدد الاجساد السمراء والجامدة للمصطافين تحت الشمس . مشيت حتى المقصورة رقم ١٥ ، ورايت باب المقصورة رقم ١٦ مواربا . دفعته وانا امشى ، دون ان أقصد ، دفعة خفيفة . ما كدت افعل حتى رأيت وجها مثلث الزوايا تحت شعر اشقر ، وجيد أبيض وعصبى ، وكتفين عريضين وثديين صغيرين على هيئة الكمثرى ، وحوض عريض وخصر رفيع وتوهج

عانة . ودفع بعضهم الباب فى وجهى عندئذ ، فدخلت مقصورتى وكما فعلت بيت لم اغلق الباب بالمفتاح واكتفيت بأن رددته .

وخلعت ثيابى على عجل ، فقد أردت أن اخرج قبل ان تتمكن بيت من الخروج من مقصورتها . ولكن خطرت لبيت نفس الفكرة ، فما كدت اخلع بنطلونى حتى انفتح الباب وظهرت بيت على عتبته وهى تنظر الى نفس نظرتها عند لقائنا الاول على الباخرة . ثم اختفت. وأخرجت رأسى خارج المقصورة لـكى أراها وهى تبتعـد . كانت مشيتها خفيفة ، رغم الحقيبة الكبيرة التى تعلقها على كتفيها . راح وركاها يتحركان بدون رشاقة ولكن بدون اية اثارة . كالمراهقة التى لا تفكر فى السيطرة على حركات جسدها . واذ بلغت حافة المنتزه المسقوف بدأت تهبط ، فى بطء ، السلم الصغير الذى يؤدى الى البلاج . وكان آخر شىء رأيته منها شعرها الاشقر المتطاير حول عنقها الرقيق ، بين كتفيها النحيفين العريضين .

فرغت من ارتداء ثوب الاستحمام وخـرجت من مقصورتى وسرت حتى آخر المنتزه المسقوف ، درت بالشاطىء الصغير الذى يحيط بالجون ، وقدمت رأسى المنخفضة تحت حرارة الشمس وأنا ألهو بفرس اصابع قدمى فى الحصى الرطب . فجأة رأيت ساقين سمينتين بشعتين ناصعتى البياض وقدمين ضخمتين تتحرك أصابعها فى الفراغ . فكرت فى موللر . وعندما رفعت عينى رأيته مستلقيا فوق الحصى وكرشه الضخم يكاد يخفى سرواله الصغير جدا ، ويبدو جسده السمين مسطحا وعريضا . تلاقت نظراتنا ، فأومأت برأسى محييا . ورد على تحيتى بايماءة من رأسه . ومرة اخرى ادهشنى تصرفه غير المكترث . اين ذهب غضب اللحظة الماضية ، ولـماذا هدأ . رفعت رأسى لكى أنظر ناحية القمة الصخرية التى تشرف على البحر ، وهناك ، فوق صخر تطل على الفراغ ، حيث يوجد المنط ، رأيت بيت تنظر تحتها لكى تقيس المسافة التى تفصلها عن الماء قبل أن تقفز . اقترب رجل منها ، وتبادل معها بضع كلمات فأفسحت له المكان وهى تتراجع ، ووقف الرجل فوق المنط ، وضم يديه ثم قفز فى حركة جميلة . وخطر لى أنها لم تشأ أن تقفز لأنها تخلت له عن مكانها ، وكان معنى هذا أنها تنتظرنى ، فاندفعت على الفور كى أصعد الى الصخرة .

ولكننى كنت مخطئا ، فما كدت أبلغ القمة حتى رأيت بيت تسير نحو المنط وهى تمسك فى يدها شيئا أبيض . ثم تضع ذلك

الشيء على راســها ، ادركت عندئذ انه غطاء للراس من الكاوتشوك . وضعت الغطاء على راسها ثم رفعت ذراعيها والقت بنفســـها فى البحر ، مطوحة براسها الى الامام : راس معتدلة وقدمان مضمومتان اسرعت وانا اقفز فوق الحصي المدبب بقدر ما استطيع . وتحت ، فى الماء الذى كان لا يزال يضطرب . كانت راس بيت البيضاء تبدو كانها تمشى ناحية البحر . ظننت انها ستبقى تحت الماء مدة طويلة لكى تسبح ، وتساءلت أن كان من المناسب ان اتبعها . وفى اللحظة التى صممت فيها بان اقفز بدورى وقعت عيناى على شيء تركته بيت على الارض . حقيبة من القماش حوافها من الجلد ومنشــفة اسفنجية وزجاجة زيت ضد حروق الشمس ، وكتابا لم اكن اتوقع ابدا رؤيته على هذه الصخرة المشبعة بالملح ، ضمنت فى وجوده على الفور نفس النية التى خمنتها حتى الان فى تصرفات بيت . وآثرت عندئذ العدول عن متابعتها فى السباحة وانحنيت لكى آخذ الكتاب واتفصحه .

تذكرت كتابى « هكذا تكلم زرادوشت » الذى استخدمته فى ارسال رسالة لبيت . واردت أن ارى اذا كانت قد استخدمت هى الاخرى هذا الكتاب لكى ترسل فيه رسالة . كان الكتاب هو « مجموعة خطابات كلايست » وكنت اعرف تماما هذه الخطابات ، أحسست باننى غير جدير باكتشاف رسالة كنت على يقين من انه يتضمنها . تصفحت الكتاب وكلى امل ان أجد اشــارة أو اية ملاحــظة على هوامشه ، لم أجد شيئا . هممت بان اعيد الكتاب مكانه بجــوار الحقيبة عندما دفعنى الفضول الى القاء نظرة على صفحة العنوان فربما يكون فيها كلمة اهداء . كانت هناك كلمة اهداء حقا هــذا نصها : الى اختى الحبيبة بيت من اختها الحبيبة ترود ... تملكتنى الحيرة بعض الشيء . اهدت اخت اسمها ترود هذا الكتاب الى بيت ، ولم يكن فى هذا الاهداء اشارة تخصنى ، ومع ذلك فقد فكرت وقد خاب ظنى جدا ان هذا الكتاب وضع لاجلى ، حقيقة اننى لم أجد اية رسالة احتقتنى . تصفحته مرة أخرى فى كل المعانى ولكن لا شيء. عندئذ ، وتقريبا دون ان اعرف ما أنا فاعل صــعدت فوق المنط وضممت يدى فوق راسى والقيت بنفسى فى الفضاء .

سمعت ارتطام الماء براسى ، ثم غطست وغطست وعينــاى مفتوحتان على الضوء الاخضر لعمق البحر ، باحساس اننى لم اغطس لكى اتبع بيت ، واننى لا اتمنى أن أجدها وانما اريد أن اهبط الى

الاعماق أكثر فاكثر لكى اتمدد على الرمل كما لو انى حطام . لعل هذا السقوط اللانهائى فى الليل هو الخلود الذى تكلم عنه نيتشه ، نعم . ربما . على ان اساعد نفسى فى الهبوط حتى اللحظة التى ابلغ فيها المكان الذى استريح فيه الى الابد .

لم يدم هذا الاحساس غير لحظة قصيرة ، فقد درت حــول نفسى ، وحول وضعى الحقيقى ، دورة سريعــة ، واتيت بذراعى وبساقى كل الحركات الكفيلة باعادتى الى سطح الماء . الواقع اننى سرعان ما وجدت راسى خارج الماء وتحت الشمس وانا مشدوه امام بيت . لا ريب انها عادت الى الخلف وانبثق كتفـاها العريضتان اللتان بدتا أكثر اتسـاعا براسها التى يغطيها الغطاء الابيض . وهتفت على الفور وانا فى شدة الغضب :

ـ واذن ؟.. ما معنى مجموعة خطابات كلايست ؟.

نظرت الى ولم تنطق ، فأسرعت اقول :

ـ يجب أن أحدثك . حددى لى موعدا . انا فى الغرفة رقم ١٢ ، ونحن فى نفس الطابق . ساترك بابى مواربا الليلة ، وسانتظرك حتى الصباح .

لم تنطق باى شىء كذلك . كان جمود وجهها يتباين مع حركات الذراعين التى تقوم بها للبقاء على سطح الماء . عدت أقول :

ـ هل أنت خائفة ؟.. لماذا ؟.. آن الامر سهل جدا . تتظاهرين بانك ذاهبة الى دورة المياه الموجودة فى آخر الطرقة وتدخلين عندى .

نظرة اخرى شديدة الاتســاع . وجمــود مع حركة دائمــة للذراعين . قلت وانا فى شدة الغضب :

ـ لماذا لا تتكلمين ؟ ماذا بك ؟.. هل انت بكماء ؟ هل فهمت أم لا ؟ اننى بحاجة ماسة الى أن اتحدث معك .

وعندما تكلمت أخيرا ، كان صوتها فتيا وصريحا وواضحا . صوت مراهقة حقيقية . ولكنه من ناحية اخرى صوت هادىء ، رزين ، واحمق ، أدهشنى فى غموض لاننى ، بتحكمى على تصرفها حتى اليوم ، توقعت صوتا بغيضا ولاذعا .

ـ ولكنك تعرف ... فانا عائدة الى المانيا غدا .

ـ ما هذا القول ؟... وانا الذى اجرى وراءك منذ اربعة ايام كالمجنون .

رأيتها تهز راسها . لم تقبل عتابى .

ـ سنمضى غدا ، انا وزوجى ، الى نابولى حيث نلتقى باختى

ترود وامى . سنقضى معهما يوما قبل ان نعود الى المانيا . وستقيم اختى وامى فى غرفتنا بالبنسيون .
ـ الن تعودى انت الى كابرى ؟
ـ ليس هذه السنة على كل حال . ساحدث اختى عنك . وسوف تحاول رؤيتك عندما تاتى الى كابرى . انها اختى التوأم . وهى تشبهنى كثيرا .
ـ ولكن لا يمكن ، بل لا يجب ان ترحلى ... والآن بالذات .
ـ يجب ان ارحل لسوء الحظ . ولكننى أرجو أن تلتقى باختى .
صرخت فى وله تقريبا :
ـ اختك لا تهمنى ... انت التى احب .
كان هذا اول اعتراف لى بالحب . الاول بالكلام بعد أن اعترفت كثيرا بالنظرات . ولكنها قابلته برزانة ام طيبة لأسرة تاخذ من طفلها قطعة من الفطير لانه افرط فى الاكل .
ـ حاول ان تفهمنى . ان هذا مستحيل .
ـ ما هو المستحيل ؟
ـ الحب .

صحت بصوت غاضب متهدج :
ـ فعلت كل شىء لكى افهم منه انك تحبيننى . ولكن الواقع انك استخدمتنى لكى يغار زوجك .
رأيتها تهز راسها ، وقالت :
ـ لا تقل هذا .
وأردفت بعد لحظة تردد :
ـ اننى مرعوبة من هذا الزوج . ان يديه ملوثتان بالدم .
بقيت لحظة مشدوها تماما . لم اكن انتظر بعد كل هذه التهربات ، وكل هذا الغموض اعترافا مباشرا وعنيفا كهذا . وامتزج الارتياح بدهشتى فقد انقشع السر اخيرا ، وعلمت عنها شيئا حقيقيا . وتمتمت بسرعة وانفعال وانا اتلعثم :
ـ اذا كان حقا ما تقولين فيجب أن تفهمى . يجب أن تأتى الى غرفتى هذه الليلة ، وسوف ترحلين بعد ذلك . هذا مفهوم . سوف نتفق على المستقبل .
ازدادت دهشتى ازاء اهتمامها الهادىء المتزن وهى تصغى

الى ، والذى راحت تفحصنى به وهى تستمع الى ثم سألتنى بصوت عادى تماما :

— اذا اتيت الى غرفتك فهل تقبل أن تفعل شيئا من اجلى ؟.

كانت هادئة تماما وفى عينيها نفس التحدى الهادىء الرزين ، وتمتمت اقول فى غباء :

— سأفعل من أجلك اى شىء .

— هل أنت واثق ؟

— كل الثقة .

— ولكنك لا تعرف عم اتكلم .

— سوف تقولين لى ذلك عندما تأتين للقائى .

نظرت الى فى اهتمام شديد وهى تدرس ردود انفعالى :

— ومع ذلك يجب أن تعرف ما أعنيه . فاننى كررت لك ذلك مرارا وانا انظر اليك . قلت لك ذلك مرة مع كتاب كلايست .

صحت :

— كتاب كلايست ؟... هل تركته هناك من أجلى ؟. ولكننى لم أجد به أية رسالة .

— ومع ذلك فقد كانت به رسالة .

— ستأتين الليلة اذن ؟.

ترددت فى بادىء الامر ثم قالت :

— اتفقنا . سآتى الليلة فى اية ساعة بعد انتصاف الليل .

وفجأة سمعنا فوقنا من يصيح فى قوة : بيت .. وعلى الفور انبثق كرشى من فوق الماء وحوله مئات من الرشاش . وظهر زوج بيت ، وكانت الظواهر كلها تدل انه تابع حديثنا من فوق المنط .

— بيت ... بحثت عنك فى كل مكان .

هذا ما سمعته يقول بين بعض الحمحمة والشخير ، وهو يعود الى الظهور فوق سطح الماء . رحت أسبح بعيدا عنهما ، لم اتوقف الا بعد أن بلغت اسفل الصخرة .

وجدت على الشاطيء القارب الذى سبق أن طلبته ، يهتز فوق الماء ، وجلست فيه على الفور ، وبدات التجديف بقوة متجها الى عرض البحر . اردت أن افكر فى لقائى الاول « المتكلم » مع بيت . وبعد أن قطعت مسافة بينى وبين الشاطيء القيت المجدافين وتمددت فى قاع القارب ، تركته يجرى مع التيار وفق هواه ، رحت اكرر لنفسى الحديث الذى دار بينى وبين بيت كلمة كلمة .

اول شيء ، نبأ رحيلها فى هدوء تام وبكل بساطة وبلا أى اكتراث . اخبرتنى بذلك بعد أن قالت لى بعينيها ، واثناء أيام كثيرة اشد الاشياء بأسا واكثر وجدا . وكما لو أن ذلك لم يكن كافيا ، فقد سخرت منى وهى تخبرنى بقدوم اختها التوأم ، وتنصحنى أن اجد عزائى معها ، نظرا الى أنها تشبهها كثيراً ، كما لو أن الحب يمكن أن يقنع بأنف وفم شبيهين لانف وفم آخرين . أهذا مسلك امرأة عاشقة .

ومن ناحية أخرى ، كانت هناك تلك العبارة المروعة : اننى مرعوبة من هذا الرجل فان يديه ملوثتان بالدم ، ثم وعدها بالمجيء الليلة الى غرفتى . هناك فوق ذلك غموض سؤالها العجيب : هل أنا شجاع للقيام بعمل معين هذه الليلة ؟. عمل بالذات حاولت أن تنبئنى به طوال اربعة أيام بنظراتها ، واليوم بمجموعة رسائل كلايست .

كلايست !.. اوحى الى هذا الاسم بشيء . ولكن تملكنى قلق كبير ، ولم أستطع البقاء من غير عمل فجلست وأخذت المجدافين وبدات .

كلايست !. تفتحت الحقيقة أمام عينى وأنا أفكر بهدوء ؟ كما تتفتح الزهور الخطرة بالمناطق الحارة لكى تبتلع حشرة وتلتهمها فى هدوء وفى الخفاء .

قالت بيت ان الشيء الذى يجب ان تقوم به الليلة المقبلة لم يكن الا ما حاولت أن تفهمنى اياه بمجموعة خطابات كلايست وكنت أعرف ان مجموعة خطابات كلايست هذه دونت اثناء وقت طويل

كانت تشبه فى الحقيقة نهرا كبيرا جمع مياه روافد كثيرة ليلقيها فى البحر متبعا الف دورة لكى يخضع لفرض لا شعورى ومحتوم : الانتحار . ولكن ليس انتحارا عاديا ، فانتحار كلايست انتحار مزدوج . نعم . لقد انتحر كلايست على شاطىء نهر وانسى مع صديقته هنرييت فوجل .

ومع ذلك فقد تبقت لى شكوك . ولنقل بالحرى شك معين . فمثلا لماذا اختارتنى بيت انا بالذات ، وانا الغريب عنها ، ومجرد عابر فى حياتها لا تعرف عنه شيئا ، لكى تنجز عملا خطيرا ونهائيا كهذا ، وهو الانتحار . لقد انتحر كلايست مع هنرييت فوجل بعد ان اصبح عشيقها ، وبعد أن تحقق ، بالاتفاق معها ، ان حياتهما لا يمكن أن يكون لها مخرج آخر ، خصوصا بعد ان احس أن الموت سوف يسمه بالحب الخالد . ولكن انا ؟.. لم اكن اعرف شيئا عن بيت ، ولم اكن عشيقها ، ولم أتبادل معها غير بضع كلمات غامضة وعلى عجل . صحيح أننا تحادثنا بنظراتنا مرتين كل يوم طوال اربعة أيام ، ولكن حين تعلن عن حبك بنظراتك فمن الصعب جدا ، ان لم يكن من المستحيل ان تتفاهم بالعيون فحسب لكى تدبر انتحارا مزدوجا . وكلما فكرت فى الامر تملكنى القلق لهذا الارتجال وهذه العجالة وهذه اللهفة فى الكشف عن هذا المشروع للانتحار المزدوج ، ولكننى ، فى نفس الوقت ، وبطريقة متناقضة اقلقنى الارتجال والعجالة واللهفة كأدلة بليغة لحاجة ملحة وحقيقية . احسست أن بيت تريد أن تموت بنفس الضلال ونفس الاستهتار اللذين تريد بهما من فى سنها ممارسة الحب مع اى شخص وفى اى مكان وفى آية لحظة وبأية طريقة . ولكن لماذا أنا بالذات ؟. ولم لا يكون ذلك مع شخص آخر ؟.

وجاءنى الرد تلقائيا ومنطقيا وببساطة ، لان بيت احست بالغريزة اننى ، دون الرجال الذين تستطيع أن تطلب منهم الانتحار معها ، كنت الوحيد الذى تمنت منذ وقت قليل أن يشاركها الانتحار . ولعل غريزتها هذه تأيدت فى اللحظة التى تقدمت فيها وتباهيت باننى قدمت بحثا فى المانيا عن هنريك فون كلايست ، هذا الرجل بالذات الذى طبقا لكل الظواهر لابد انه بانتحاره هذا اتخذته منذ وقت طويل مثلا تحتذى به .

وفجاة ، دون ان ادرى ، تركت مجدافى على حافة القارب ، رددت البصر حولى . كنت قد تجاوزت الصخرة التى تغلق الجون .

شمال شاطىء البيكولا مارينا ، وبدا أمامى الجزء الاكبر من ساحل كابرى الذى لم أكن أراه من بداية الجون . وعلى مسافة قليلة قمة أخرى من بضع صخور وشقوق عميقة تقوم منعزلة ويكسوها الضباب فى وسط البحر . بين الصخرة البعيدة وتلك الصخور التى تجاوزتها تتابعت خلجان صغيرة كان أحدها على بعد خطوتين منى : ميـــاه خضراء ، قليلة العمق ، شفافة ترتطم بشاطىء من الحصى الابيض ، تحيط بمدرج من الصخور الحمراء أدركت أنه ليس هناك أحد . كانت الشمس حامية جدا فى تلك الساعة ، وبدا البحر كأنه ضاعف بريقه وتألقه ، مررت بيدى على شعرى . كان ساخنا ، انحنيت فوق البحر وبللت رأسى ، وبدون أن ألمس المجدافين جلست فى القـارب الذى لا يتحرك ، وبدأت أفكر فى بيت .

ذلك الاقتراح بالانتحار المزدوج كان فيه اذن شىء أكثر من حاجة ماسة لكى تلقى همومها ومشاكلها الخاصة على أول عابر تلتقى به . وفى حاجتها هذه كان هناك ثمة غموض فى ذلك الاختيار الاكيد والبسيط والجذاب . وقد اختارتنى أنا من بين ملايين من الرجال ، كان يمكن أن يعزل هذا الاختيار الرجل المناسب لهذه العملية عن غيره من الرجال . لكن اليس هذا مايحدث عادة فى الحب ؟ وهـــذا اليقين الغريزى ، اليس هو الذى يدفع رجلا وامرأة غير متعارفين ولم يلتقيا أبدا قبل ذلك الى ممارسة الحب ؟

هكذا طرحت فى النهاية اقتراح بيت للانتحار كشىء مرتجـل وعاجل . لان التهور والعجالة يدفعاننى اليوم الى قبوله كدليل لمـا يدعونه عادة الحب من أول نظرة . وللحصول على هـذه النتيجة كان يكفى أن استبدل بكلمة الموت كلمة الحب ، أو بالحرى أن أشعر أن الحب والموت فى حالتنا هذه كانا الوجهين المختلفين والمكملين لنفس الحقيقة .

لم يكن الامر طبعا غير نظرية بين عدة نظريات ، وبالذات لانها تتعلق بشىء افتراضى فقد تركت نفسى أجرى مع تخيلات مجنونة وهوس فيما سيقع هذه الليلة ، عنـــدما تأتى بيت وتلتقى بى فى غرفتى .

كان يمكن أن يبدو الامر غريبا ، ولكننى رأيت على الفور وبدهشة أن فكرة الانتحار المزدوج لا تخيفنى ولا تقلقنى . كانت كجزء من الحب ، من الحب بينى وبين بيت كان ذلك من الصحة بحيث وأنا

أتصور لقاءنا فى غرفتنا فى الليلة المقبلة احسست بالقلق ازاء رغبة ، بدلا من أن يضعفها توقع الانتحار ، بدت تستمد منه قوة أكبر واشد عمقا . والواقع اننى فى ذلك المستقبل القريب الذى ينتظرنى بعد بضع ساعات لم أعد أرى غير اتحاد جسدينا فى حين أن فكرة الانتحار الذى سيكون النهاية الحتمية لهذا الاتحاد بقيت بعيدة ومؤجلة الى وقت غير محقق . غير ان شيئا تبقى فى عمق ذاكرتى ، شيئا فظا ، شيئا كان على طرف لساني لم أستطع النطق به ، يتعلق بتلك العبارة: انني مرعوبة من هذا الرجل . ان يديه ملوثتان بالدم .

كنت أنا وبيت يائسين . ولكن أسباب يأسنا كانت مختلفة . كانت بيت يائسة لاسباب أخلاقية وربما سياسية . زوج مرعوبة منه لان يديه ملوثتان بالدم ، ومجتمع يخيفها هو الاخر لانه دموى وقائم على الدم . أما أنا فعلى العكس ، كنت أعرف ان يأسى ، اذا جاز لى القول ، يأس ميتافيزيقى ، فمهما كان الموقف السياسى والاجتماعى حولى فقد كنت واثقا بأننى يائس بكل تأكيد . ماذا أعنى بقولى هذا ، حاولت من جديد تركيز اهتمامى ، استطعت أن أجد ردا . أعنى أن يأسي يختلف عن يأس بيت لان دوافعا مختلفة تسببت فيه ، لانه موجه أيضا الى حل مختلف . كانت بيت تريد أن تمضى بيأسها الى الحل المنطقي وهو الانتحار . أما أنا ، فعلى العكس ، كنت اريد ترسيخه . وأن أجد الوسيلة لكى أحيا معه . وفى هذا الفرض ، كما سبق أن قلت ، خطر لى أن أكتب رواية ينتحر فيها البطل لاسباب سياسية . فينتقل عنف التدمير الذاتى لليأس من الواقع الى ورقة بيضاء . ولكن لقائى مع بيت اليوم صرف محاولتى الصغيرة النفسية والادبية ، فان بيت باقتراحها الانتحار على طريقة كلايست طالبتنى بالتنفيذ الفعلى ، وافهمتنى أن الانتحار على الورق لبطل يموت مكانى ليست له اية اهمية . وخيل لى أننى أسمعها تقول بصوتها الساذج القاسى « عندما يكون الانسان يائسا حقا لا يكتب رواية عن الانتحار وانما ينتحر » .

أخذت المجدافين ودخلت الجون مسرعا . كان الماء منخفضا وشفافا كنت أرى العمق الرملى الاصفر والرمادى يغطيه الحصى الابيض والتوتيا السوداء . ومن وقت لاخر كانت تظهر موجة خفيفة على سطح البحر تبدو كتنفس هادىء ومنتظم ، وتجرى الى الشاطىء وتموت على الحصى ، مخلفة هدبا من الزبد الشفاف يبرق فى الشمس . وارتطم مقدم القارب بالشاطىء مسببا صرير الحصى . ووثبت فى

الماء وجررت القارب الى مكان جاف ، ثم سرت بضع خطوات وجلست فوق الحصى . أعطتني شفافية ماء الجون انطباعا بالطراوة ، وكان انطباعا خادعا للاسف ، فقد ادركت أن حرارة الشمس بانعكاسها على الحصى بغيضة الى حد انها منعتني من التفكير . فنهضت وادرت البصر حولى . هناك غير بعيد عن الشاطىء صخرة كبيرة تبدو كأحد عناصر ديكور على خشبة مسرح يختفى خلفها الممثلون . مضيت واحتميت خلفها وجلست وراسى وذراعى فى الظل . فى هذه اللحظة بالذات رأيت قاربا قادما يدخل الجون ، ويأتى ناحيتى .

كانت بيت وزوجها بالقارب . كان زوجها يجدف موليا ظهره للشاطىء اما بيت فتجلس فى المقدمة ، فى مواجهتى . وكانت قد رأتنى بالتأكيد خلعت غطاء رأسها ولبست قبعة عريضة من القش الاصفر . أحسست بخيبة أمل عندما رأيت انها لم ترد على تحيتى . كان ذلك غباء منى ، فلم يكن فى مقدورها ان تفعل ذلك لان زوجها يجلس امامها ، ومع ذلك فان حديثنا القريب العهد بدا لى مبررا أية حماقة ؟ كان قاربهما قادما رأسا الى الجون . وثب الزوج الى الماء ثم ساعد بيت على الهبوط ، جر القارب الى اليابسة ، بجوار قاربى . تساءلت اذا كان من الاوفق أن اخرج من خلف الصخرة وان أمر امامهما بوقار دون اظهار أى ضيق ، بل ربما القى اليهما بالتحية ، ثم ادفع قاربى الى الماء وابتعد . كان فى مقدورى البقاء فى الشاطىء والاستحمام والاستلقاء تحت أشعة الشمس كأى مصطاف . وفى مقدورى أيضا ، وهذا أسوأ شىء ، ولكنه مطابق للتصرف الذى اخترته حتى الآن ، أن أبقى مكانى مختبئا وانتظر البقية . وباصطلاح آخر ان أستمر فى تعقبهما ومراقبتهما كما فعلت وأنا أجرى فى الطريق الفرعى ، وكما فعلت قبلا فى البنسيون . قلت ان هذا التصرف كان سيئا انه التصرف الوحيد الذى ينتظره منى آل موللر ، لسبب لا ادريه .

ولكن ماذا يريد هذان الزوجان منى فى الحقيقة ؟ لم يكن وجودهما هنا صدفة ، فما أن وثب الزوج من المنط وظهر بيننا حتى ابتعدت ومضيت الى الشاطىء على الفور حيث كان قاربى فى انتظارى . كل الظواهر تدل على أن آل موللر قررا أن يتبعانى ، فلم يكن هناك غير مراكب قليلة فى البحر ، ولم تكن هناك صعوبة فى معرفتى ومتابعتى من بعيد . تكلمت عن المطاردة . خيل لى الآن ان الادوار قد انقلبت فقد أصبحت أنا المطارد وهما المطاردان . ومع ذلك لم استطع معرفة السبب ، فأنا مبررى هو حبى لبيت ، ولكن ما مبرر الزوج ؟.

لم يغب نظري عنهما وأنا أفكر . لا يزالان بجوار قاربهما . وكانت هي تردد البصر حولها . لعلها تبحث عني ، لم تجدني لان الصخرة تخفيني تماما . وعلى بعد قليل منها كان زوجها يفرغ القارب من كل ملتزمات النزهة الخلابة : كرسيان مستطيلان وبضع مناشف وسلة كبيرة لم يكن هناك ريب أنها تحتوى على الزاد والزواد ، وكتب وجرائد . وفى النهاية نقل بعناية فائقة آلة التصوير التى يعلقها على كتفه فى الطريق المختصر . اتضح كلّ شيء . ففى نية آل موللر قضاء النهار على الشاطيء . سوف يستحمان ويستلقيان تحت أشعة الشمس ويتناولان الغداء ، ويتحدثان فى كل شيء وفى لا شيء ، يقرآن وينامان. وماذا أيضا ؟ نعم ... سوف يلتقطان بعض الصور . افترضت على الفور أن الصور كانت ، من بين كلّ هذه الامور . أهم شيء .

نقل الزوج وبيت ، فى نشاط كبير ، كل شيء الى ركن من الشاطيء فى مكان وسط بين الشاطيء والصخرة . وتساءلت ان كان آل موللر قد رأيانى كما أراهما . ولم أجد جوابا . لعلهما يريانى ، ولكن العكس هو الصحيح . غير أن بيت رأتنى دون شك ، فى اللحظة التى اقترب فيها قاربهما من الشاطيء . لا ريب أنها أخطرت زوجها بوجودى . كل منهما يعرف أننى فى مكان ما ، وأننى أراهما . مع ذلك تصرفا بحرية تامة ، كأناس لا يشتبهون أن هناك من يتجسس عليهم . كان يجب ان أتجسس بهدوء ، كشخص يعتقد أنه ليس هناك من يراه. أما هما فقد كانا يعرضان نفسيهما ببراءة من يعرف أنه ليس هناك من يراقبهما . فيم كان يدور العرض الذى يعده آل موللر بكل هذه العناية ؟ جلست فى ظل صخرتى التى تخفينى عن العيون ، ورحت أنظر اليهما دون أن أستطيع فهم ما يدور . كل شيء يبدو بطيئا وهادئا ، وغامضا ، يتعمدان البطء والهدوء ، بسط الزوج الكرسين فى البداية ، ثم ثبت المظلة وسط كومة من الحصي وفتحها . ثم بسط حصيرة على الارض . وحسبت انهما سيبدآن بتناول الطعام ، لكننى أخطأت ، فقد جلس الزوج على كرسيه وراح يعالج آلة التصوير . وتمددت بيت على مقعدها ونظرت ناحيتى . تصورت ذلك على الاقل . كانت قد وضعت نظارتها السوداء ، وكان من المتعذر معرفة الناحية التي تنظر اليها الا من وضع رأسها . اقتضى الاعداد وقتا طويلا . وكانت الشمس قد توسطت السماء ، سلطت أشعتها على رأسي مباشرة . وأصبحت الحرارة لا تطاق . ولم تكن

الصخرة تحميني جيدا ، فتكومت حول نفسي ، واحطت ركبتي بذراعي لانني لم أجد مكانا ظليلا لكي أمد ساقي . ومن ناحية اخرى ، فوجود قاربي في الجفاف بجوار قاربهما لم يسمح لهما بتجاهل وجودي بل أوحي الي بنظرية مقبولة تقريبا . كانا يعرفان تماما انني هنا ، ولكنهما قررا ان يتجاهلاني كما فعلا بالامس في المقهى . غاظني هذا الافتراض الاخير لانه أكد لي تواطؤ بيت مع زوجها . كنت افضل اختيار خطة تستند على وجودي ، وتورطني ببطء . بعد قليل تغير هذا الموقف الجامد والمبهم ، فقد القى الزوج بجريدته . واخذ آلة التصوير ورفعها الى عينيه موجها العدسة عرض البحر . راح ينظر بدقة ، ثم فارقت عيناه العدسة واستدار نحو بيت وحدثها . وأجابته وهي تنظر اليه في هدوء وتفكير . تتابع حديثهما فترة قصيرة في الفة تكاد لا تسمع . أحسست احساسا مهينا وأنا مختف خلف صخرتي بأنهما يتحدثان عني . ثم غادرت بيت مقعدها بناء على اشارة من زوجها ومشت ، بالحرى ، بطريقة خرقاء ، فوق الحصى الساخن ، واقتربت من موللر وجلست على ركبتيه . لم أتوقع هذه الالفة الزوجية ، فذهلت وجحظت عيناي . ووضع موللر ذراعا حول عنق بيت الرقيق ، ووضع الاخر فوق ردفيها الصغيرين وراح يربت على عنقها ويعبث بشعرها . تركته بيت يفعل في البداية ثم ، وفجأة ، راحت تغطي وجهه ، بدءا من ذقنه حتى جبينه بقبلات صغيرة في وجد ووله .

وأخيرا بسط موللر احدى يديه . اراد دون شك ان يأخذ آلة التصوير الموضوعة على الارض . نهضت بيت ومشت نحو الشاطىء ، وبعد أن ضبط زوجها آلة التصوير نهض بدوره لكي يتبعها .

نظرت اليهما ، دائما باهتمام كبير . احسست ان الزوجين سينفذان ما قرراه ، فقد سارت بيت في حذر واضعة قدميها الواحدة بعد الاخرى فوق الحصى الساخن . وكان حرصها الذي تبالغ فيه يطبع جسدها بحركات مفاجئة تجعل المرء يفكر في دمية من الدمى التي تحركها الخيوط ، كانت خاصرتاها لامرأة ناضجة بعرضهما ، ولمراهقة بنحافتهما . تهتزان فجأة ، وأحيانا ، عندما تلتوي قدمها ، تنحني كتفاها المربعان المعروقان مرة واحدة في ناحية واحدة كما لو انهما مسحوبتان الى اسفل بثقل شعرها غير المشط . وكانت ذراعاها النحيفتان وعنقها الرشيق وفخذيها الهزيلين ، كل ذلك

يجعلها تبدو كدمية تائهة فى الضوء الكبير لقيظ الصيف . واذ بلغت حافة الماء بللت فيه على الفور قدميها الساخنتين ثم استدارت نحو زوجها كما لو تنتظر أوامره .

سدد موللر آلته نحوها ، وقالت بيت شيئا كأنها تستفهم ، وكان زوجها ينظر الى العدسة فتأخر فى الرد عليها ثم قال بالالمانية عبارة فهمتها جيدا فقد قال « أجل بالطبع » فماذا سألته ؟. عرفت أجل ذلك وأنا أرى بيت تخلع ثوب الاستحمام . ثوبا أسود من قطعة واحدة ، واسعا عليها بالنسبة لجسدها الاشبه بجسد طفلة . كنت أستطيع أن أرى ، حتى من بعيد ، واسعا جدا عند وركيها وبطنها وصدرها ، وكل الاماكن التى تملأها عادة امرأة ناضجة وتفخر بها . رأيتها تمسك بيديها حمالتيها وتنزلهما بطول ذراعيها . قال زوجها شيئا آخر فتعرت حتى وسطها ، ثديان صغيران كثديى عنزة ، جامدين وعلى شكل الكمثرى انتصبا فى زرقة الهواء . ولم يقنع موللر بذلك . كان يمسك آلته بيد ، فاتى بيده الاخرى بحركة اجبارية كأنه يأمرها بأن تستمر ، فأطاعته وامسكت بثوب الاستحمام بيديها الاثنتين وانزلته بعناية حتى قدميها ثم وقفت تنتظر عارية تماما الآن . وكان الزوج ملصقا عينيه على العدسة ، فصاح بها كمن نفد صبره « تقهقرى ... ارجعى الى الخلف ... أقول لك ارجعى » استدارت بيت ومشت على أطراف أصابعها ، وتقدمت فى الماء . تتقدم فى بطء وهى قليلة الثقة بنفسها . ورأيت الماء يصل شيئا فشيئا حتى ساقيها ، وحتى خصرها ثم عنقها ثم بقيت بضع دقائق جامدة لا تتحرك . بقى رأسها وقدماها فحسب خارج الماء ، ثم استدارت بعد ذلك لتمشى فى الاتجاه المضاد نحو الشاطىء وشيئا فشيئا ظهر كتفاها وصدرها وخصرها وبطنها . وكان موللر يجرى هنا وهناك كالمجنون لكى يلتقط صورا بسرعة . ومرة اخرى تقدمت بيت خطوتين أو ثلاثا ، وخرجت من الماء ببطء وظهرت عارية تماما . وأطلق الزوج صرخة قائلا : لا بأس . هكذا ... هكذا ، وهو يضع يده أولا عند ثنية فخذه ثم يرفعها الى رأسه ثم الى صدره ، كامرأة يدفعها احتشامها الى أن تفك شعرها لكى تستتر به ثدييها وبطنها . وعندئذ جاءنى نوع من الالهام ، فموللر بقيامه بحركاته تلك كان يشير الى نموذج معروف ... شخصية معروفة ... فمن هى ؟ وادركت فجأة . فلا ريب انه معجب بالرسم الكلاسيكى الايطالى واراد أن يلتقط صورة لزوجته فى وضع فينوس لبوتيتشيللى وهى خارجة

من البحر لا يسترها غير شعرها . ولم أخطىء فقد أطاعته بيت ورفعت ذراعيها لكى تفك كحيلتها ، وتركت شعرها ينزلق بطول جسدها ، ثم وضعت يدها اليمنى امام عانتها واليسرى امام صدرها، ووقفت الآن جامدة عن الحركة ، معتدلة القامة ، كما لو تنتظر أوامر أخرى من زوجها . أبدى موللر رضاءه أخيرا بأن راح يلتقط لها عدة صور من كل الزوايا وهي فى ذلك الوضع . ويظهر ان الفيلم كله قد استهلك لانني رأيته يتوقف فجأة ويفحص آلته ، ثم يبحث عن فيلم آخر فى سترته المعلقة على المقعد ويضعه مكان الفيلم المستهلك . كل ذلك بحركات دقيقة نفذها دون تسرع ، كما لو كان التصوير مهنته حقا . وكانت بيت تنتظره وهي واقفة فى وضعها البوتيتشيلى ، لا تتحرك . واخيرا وبهدوء وبصوت قوى لكى اسمعه ، سألت زوجها قائلة :

ــ هل انت راض هكذا ... ام يجب أن أفعل لك شيئا آخر ؟

نظر موللر الى عدسته ثم رفع صوته هو الاخر وقال :

ــ سلى السيد الذى يختفى خلف الصخرة اذا كان راضيا ولا تسأليني انا .

كان الامر متعلقا باعطائى درسا آخر بالاتفاق مع زوجته . اتهمني موللر بالتلصص واختلاس النظر . هذه النظرية الاولى ، رغم أنها معقولة ، ما أن تمثلت فى ذهنى حتى طردتها فكرة أخرى رائعة ، وهي أن موللر ، فى عشقه لزوجته وزهوه بجمالها ، أراد أن أعجب بها انا الاخر وهي فى وضع فينوس عارية تماما . كان هذا الدرس بالطبع السبب الذى اراد أن يمنحه لنفسه لهذا النوع من العرض الزوجي . لم يكن هذا الا ليزيد تعقيدا آخر لغرامه كرجل عاجز .

مرت هذه الخواطر براسى سريعا ، ممتزجة بحركات وكلمات الزوج . وفجأة وكأنه قد جن من الغضب ، ومن غير أن ينتظر رد بيت استطرد يقول :

ــ ولكن لماذا تسألينني ذلك . غني عن البيان أن هذا السيد غير راض ، فهو الاخر يريد ان يلتقط لك صورة ... ولكن طبعا ، طبعا .

وتقدم نحوى فى خطوات كبيرة وهو يلوح بآلته .

واثناء الثوانى القليلة التى قضاها فى الانضمام الى استطعت أن ازن الامر فيما يمكن أن افعل ... كان يمكنني قبول الدور الذى

خصصه لي ، فى نوعه الكوميدي ، وأن أصور بيت ، كنت أستطيع ان أرفض بهدوء الدور الذى أراد أن يفرضه على ، وأن أنصرف ، ولا أدرى لماذا ، ولكن غريزتي دفعتنى أن أنظر الى بيت ، رأيتها تغمز لي بعينها ، نفس حركة القبول التى نصحتنى بها فى غرفة الطعام بالبنسيون على أن أرد بالتحية الفاشية على تحية موللر . فارقتها بعيني لحظة ونظرت الى زوجها مواجهة . وخرجت من خلف صخرتى ، ومن غير ان انطق بكلمة اخذت آلة التصوير التى ناولنى موللر اياها . وعلى الفور وثب هذا الاخير من الفرحة ثم جرى نحو زوجته ودخل الماء وأخذها من خصرها ثم صاح بصوت متهدج ومضطرب :

ـ هل تتكرم أيها السيد وتلتقط لنا صورة ، انا وزوجتى .

راودتنى عندئذ فكرة خبيثة ، واردت أن ألقنه درسا بدورى. سأصور شيئا ، عندما يحمض موللر الصورة فى بيته لن يرى من بيت الا مثلث الشعر الاشقر المجهول .

وجهت ، والغضب يغلى فى صدرى ، عدسة آلة التصوير في بطء بعيدا عن وجه بيت ، وهبطت منه الى صدرها وبطنها . فى تلك اللحظة لم تكن تقف كفينوس بوتيتشيللى لان زوجها يضمها الى كرشه بقوة بحيث تضايقت واستحال عليها أن تخفى نهديها وبطنها بيديها . وضبطت العدسة . فامتلأت بشعر اشقر واضح وقريب بحيث خيل لى ان رائحة العرق التى تصدر منه بالتأكيد تصاعدت الى أنفى ، ووضعت اصبعى لكى اضغط على زرار التصوير عندما أحسست احساسا غريبا بأن يدا تمسكنى من عنقى وتجبرنى على رفع العدسة . وظهرت البطن من جديد ، وتبعها الثديان والعنق . وعندما ظهر وجه بيت مرة واحدة كما لو بسحر ساحر لم أعد اشعر باليد الغامضة التى كانت تضغط على عنقى . تبخرت وكأنها تقول لى أننى استطيع الان ان التقط صورتى . كان الوجه ظاهرا وحده فى اطار العدسة ، من غير موللر ، وفى عينى بيت ، مؤكدة روحية حبنا ، لم أعد أرى غير يأسها العادى . فكرت عندئذ : عندما يحمض موللر الفيلم سيرى وجه زوجته ولا شىء غير وجهها . وسيؤكد له تعبيرها أنها لم تساهم فى تلك المهزلة السخيفة ، وأن جسدها كان معى .

ضغطت على مفتاح التصوير ثم وضعت الالة فوق الحصى ، فى حرص ، وأنا أقول أنها تضم صورة ثمينة لنظرة بيت ؟ وعدت خافض الرأس الى المركب ، وبعد خمس دقائق كنت قد ابتعدت عن المكان .

- ٦ -

لم اتناول طعام الغداء فى بنسيون دامكيوتا كما هى عادتى ، وانما فى المطعم ، وذلك لاننى كنت أعرف أن موللر وزوجته سيتناولان غداءهما فى الخلاء أثناء نزهتهما على الشاطىء ، ولاننى كرهت أن أجلس وحدى فى غرفة الطعام بالبنسيون أمام مائدتهما الشاغرة . بيد أننى لا أنكر اننى شعرت باحباط كبير عندما أدركت أن الزوجين الالمانيين يبدو أنه ليست لهما رغبة فى الظهور بالبنسيون حتى بعد الساعة المفروض أن نزهتهما الخلوية ستنتهى فيها . ولا ريب انهما أرادا الاستفادة دون حدود من يومهما الاخير فى كابرى ، كما هو معروف عن كل أهالى الشمال المتعطشين للشمس والبحر . كان يجب أن يكون عصر ذلك اليوم طويلا جدا ، يقضيه الزوجان فى التأمل والحب والهدوء والعنف والصمت والحديث . لعل الزوج لام بيت على تدللها ، تدللها الغامض الملح ، ولعلها لكى تطمئنه اضطرت لممارسة الحب مع الرجل الذى يرعبها والملوثة يداه بالدم ، ولكن اى نوع من الحب هذا ؟ ان الاشياء التى رأيتها فى الجون مع بيت وهى تتصور فى وضع فينوس بوتيتشيللى تعيد الى ذهنى تطلبات ماجنة وغامضة . ومعقدة بأساطير عن حثالة الناس والسوقة . لم أشعر بأية غيرة وانا أفكر فى هذه الاشياء وانما بالحرى فى نوع من الرثاء جعلنى أرى فى بيت ضحية وفى زوجها جلادا ، ووجدت عزائى وانا أفكر فى ان بيت ستأتى لمقابلتى فى غرفتى فى الليلة المقبلة ، وخارج هذا اليقين ، لم أكن أعرف شيئا أو اين اريد ان أذهب فى الواقع .

فى ميدان كابرى احسست من جديد بنفس النفور لمجرد فكرة الوجود وحدى ، وقررت ان أؤخر عودتى الى بنسيون داميكوتا . كانت الساعة الثالثة . والاوتوبيس ينطلق كل نصف ساعة . خطر لى عندئذ أن أقوم بنزهة راجلا ، والا استقل الاوتوبيس الا لكى أعود . هاأنذا فى الطريق الصغير لتراجار فى منتصف الشاطىء ، وهو طريق يدور بالجزيرة حتى ميدان اركوناتورال . لم يكن فى نيتى ان أمشى حتى هناك . لم أفكر فى الذهاب الى أبعد من مكان يطل على جزر فاراجليونى ، ثم أعود فى بطء ودون اسراع . قلت لنفسى ان

هذا الاصيل الذى اضطر أن أعيشه وحدى سوف يمر سريعا وانا افكر فى بيت ، وفى اللحظة التى رايتها فيها آخر مرة ، وفى اللحظة التى سأراها فيها فى غرفة الطعام ساعة تناول العشاء . وطريق تراجارا ، من ناحية ، عبارة عن صف من الحدائق القائمة لصق التل ، ومن الناحية الاخرى البحر . وبدات امشى فى الطريق القديم المبلط والصامت فى طراوة أصيل يوم من ايام الصيف ، وانا انظر اما الى البحر من خلال جذوع أشجار الصنوبر الحمراء ، واما الى بوابات الحدائق التي يعلوها الغبار وتكسوها النباتات المتسلقة . فى تلك الالفة العميقة والمرحة والمحتمل انها متعمدة تقريبا كحدائق المصحات او المستوصفات ، عدت افكر طبعا فى أحداث اليوم ، فمثلا ، لماذا تصرف ذلك الزوج بهذه الطريقة الغريبة المتواطئة والعدوانية فى نفس الوقت ؟

كان منشأ هذا التصرف طبعا العلاقات القائمة بينه وبين زوجته ، غير أننى لم أكن أعرف شيئا عن هذه العلاقات ، فيما عدا أن موللر كان يرعب بيت لان يديه ملوثتان بالدم . ولكن كيف الربط اذن بين هذا الرعب وبين تلك القبلات الحارة والمشبوبة التى راحت بيت تطبعها على وجنتي زوجها المكتنزتين واللتين تتصببان عرقا ، والى تلك المسايرة الطيعة التى ابدتها وهى تدعه يصورها عارية فى وضع فينوس بوتيتشيللى امامى . كان من المتعذر على أن ارى اتفاقا ما .. ما لم يكن .. عادت الى ذهنى عندئذ الافكار التى راودتنى وانا اتناول غدائى الاخير ، وهى افكار مبالغ فيها تتعلق بالعلاقات الحقيقية ، أعنى الماجنة التى بين الزوجين . كانت تصوراتى تجعلنى افكر فى بيت الضحية فى رثاء ، وفى موللر الجلاد فى حقد . ولكن الامر يتعلق حقا بضحية وجلاد ، وهما شخصان غير مختلفين وغير متعارضين حتما . بل اننى اقول انهما ربما مرتبطان احدهما بالاخر بعلاقات مشتركة ومتبادلة سرا كما يحدث ذلك كثيرا بين المظلومين والظالمين . كنت واثقا ان موللر يجبر بيت على القيام بدور الزوجة المجاملة مستخدما نوعا من الابتزاز ، وان بيت من ناحيتها تخضع لرغباته بحماس يقارب التواطؤ . وهكذا فقط تتضح هذه الرغبات الشديدة التلقائية فى الظاهر ، والتى لايطلبها احد جليا . كما يتضح أيضا عرض عريها هذا الصباح فى الجون . والخلاصة ان بيت تحاول أحيانا ، فى يأسها ، أن تجعلنى أفهم بنظراتها انها تحبنى وانها لاتحب أحدا غيرى ، بينما لا أراها ، من ناحية اخرى ، تتمرد على ابتزاز موللر المحتمل :

وانها على غير وعي منها تحوله الى لعبة ماجنة تجد فيها دون شك متعة خفية مخزية .

اذن ، وانا اتصور علاقاتهما . بدءا من القليل الذى رايته هذا الصباح فى الجون ومن الكثير مما لم اره والذى اسـمح لنفسي بافتراضه ، اكتشفت انني لم اشعر بأية غيرة على الاطلاق ، وانما أهاجتنى واثارتنى جدا تلك الصور القاسية والدنسة لعلاقة جنسية بين ضحية وجلاد . نعم . صحيح انني عاشق لبيت ، ولكن بدا لي الان ان ما يجذبني اليها اكثر هو ماكان يجب أن أتمنى الا يحدث ابدا ، واعنى تواطؤها الفاجر مع الرجل الذى يرغبها ذى اليدين الملوثتين بالدم . بل أكثر من هذا ، جعلني الاضطراب والاثارة أفهم موللر . وبفضل أدراكي الجديد تآخيت معه ، واحسست بأنني متضامن معه . الواقع انني وانا افكر فى زيارة بيت العاجلة الليلية كنت أرى نفسي احتل مكان زوجها دون تغيير اى شيء . تماما كمالك جديد فى نيته أن يكرر مع جارية عنف المالك السابق .

واذ بلغت هذه النقطة من أفكارى رفعت عيني ورايت انني فى المكان الذى نطل منه على احسن واجمل منظر فى جزر فراجليوني .

وجدت هناك بضع اشخاص ينظرون الى اسفل ، مستندين الى الدرابزون .. واقتربت ونظرت . كانت الشمس قد اختفت ، والصخور الهائلة القائمة لايخفيها عن الانظار لا ضباب الظهيرة ولا ضباب المساء ، وتجعل الانسان يفكر فى هذا النور الرائع فى نيزكين حمراوين قائمين على سطح من الزجاج الازرق . ولكن الهوة الصامتة المنغرزين فيها بدت لي فجأة كنذير شـؤم واغراء مخيف . واذ خفضت رأسي رأيت انني واقف فوق المكان المشرف على الفراغ . وتذكرت القصة التى ذكرها لي السنيور جالاوينى عن المكان المعروف باسم الميجليارا ، وعن الفتاة التى القت بنفسها فى البحر بعد أن عقدت جدائلها فوق عينيها ، وأحسست باغراء يصعد الى من عمق الهوة جعلني اتراجع الى الخلف بضع خطوات وابتعد عن الدرابزون . شعرت بالخوف تقريبا لم يكن بالاغراء الانتحارى لشخص يحب بافراط بلا أمل كحب فتاة الميجليارا وانما حب انسان ، يخشى الا يكون جديرا بالحب .

عدت الى نفس الطريق ، ولكن فى اتجاه مخالف ، نحو ميدان كابرى . احسست بنفور من انحلال آل موللر ، هو باضطلاعه بدور السيد ، وهى بدور الجارية ، انحلال شعرت انني قد اشترك فيه

ذات يوم ، وتولدت في نفسي فكرة أخرى ، هي انني يجب ان احترم بيت . أعني أنني لا يجب أن استفيد من يأسها ، ان انقذها ، اذا كان ولابد أن استخدم اصطلاحا يلجأ اليـــــه البعض رغم كثرة استهلاكه .

كنت أعني طبعا انه لايمكن انقاذ انسان الا بالقدوة ، وكنت لذا احتفظت بوهم امكاني تنفيذ ذلك ، لانني جدير بتفسير اليأس بطريقة مختلفة عن طريقة بيت . معنى هذا أنني لم اتخل عن حبي لبيت ، ليس خوفا من التشبه بزوجها ، وانما كي أبدو للجميع كالرجل الذي يشعر انه جدير بأن يجعل من اليأس دافعـــا ليس للموت وانما للحياة . وهكذا ، انقاذ بيت معناه بكل بساطة أن أشرح لها فكرتي من ترسيخ اليأس ، وأن احملها على نسيان كلايست ، وأن افصلها عن زوجها وعن المفهوم الخاطيء الذي يستند على مشروع الانتحار المزدوج .

هذه الخواطر والقرارات التي ستعقبها ، وردود الفعل لهذه القرارات ، شغلتني حتى لحظة عودتي الى البنسيون . دخلت البهو وطلبت مفتاحي من السنيور جالاميني ، فاعطاني اياه ومعه ظرف بدا لي انه يضم كتابا . ولم يكن على الظرف غير أسم واحد وهو « لوسيو » فضضته وأخرجت منه كتابا كان مجموعة خطابات هنريك فون كلايست ، نفس الكتاب الذي سبق أن لمحته على الشاطيء هذا الصباح . مضيت وجلست في ركن من البهو وتطلعت الى الكتاب . لمحت علي الفور شريطا يشير الى صفحة بالذات ففتحته عليهـــا وقرات :

الى ارنست فردريك بجيلهن
ستيمنج ٦ بالقرب من بوتسدام
٢١ نوفمبر سنة ١٨١١
صديقي الصدوق العزيز ،

الجأ الى صداقتك التي لم تكف عن اظهارها لي بكل اخلاص ، والتي توجبك على احتمال محنة غير عادية . نحن هنا ، أنا وكلايست المشهور ، في ستيمنج ، على طريق بوتسدام في موقف مربك جـدا لاننا نرقد على الارض ، منتحرين بسلاح ناري ونلجأ الى طيبتك كصديق نزيه لكي تعهد بجثتينا الهشتين الى أمنـــــا ، الارض الرءوم ... »

توقفت عند هذه النقطة ، اولا لانني كنت اعرف هذه الرسالة

الشهيرة لهنرييت فوجل . وثانيا لان معناها لم يعد خافيا بالنسبة لى . ثم انه نفس المعنى الذى عزوته لرسائل كلايست بعد أن تحدثت مع بيت ونحن نستحم . ولكن التحدث عن شيء افتراضى شيء ، وعن حقائق مؤكدة شيء آخر .

ازعجتنى بيت بهذا الكتاب . كانت تقترح على ، عن طريق رسالة هنرييت أن انتحر معها فى الساعات المقبلة . سرت فى بدنى قشعريرة وغامت عيناى وتقطعت انفاسى . اطبقت الكتاب آليا وتركت مقعدى وتوجهت ناحية السلم ، لكن ماكدت اضع قدمى على أول درجة حتى استدرت وعدت ادراجى ، سألت السنيور جالامينى ان كان فى الامكان ارسال عشائى فى غرفتى . لم توافقنى الشجاعة لكى ارى بيت فى غرفة الطعام . ومن ناحية اخرى اردت أن أفكر فى هدوء فى آخر هذا اليوم العجيب . طمانني السنيور جالامينى وقال ان ذلك ممكن ، ودون مذكرة بذلك فى دفتره . شكرته واردفت القى تفسيرا لم يكن له داع اطلاقا :

ـ اشعر اننى لست على مايرام الليلة .

تمددت فى غرفتى بكامل ثيابى فوق الفراش . واخذت كتاب كلايست ، واعدت قراءة الخطاب . أحسست فى دقة رسالة بيت بشيء غير عادى وغريب . لكننى لم أتجاوز هذا الاحساس الغامض . واذ عجزت عن التفكير رحت اقلب صفحات الكتاب وانا اتوقف كيفما اتفق على خطاب ثم آخر . كنت اعرفها كلها تمام المعرفة . ولكننى اليوم ، على ضوء مشروع انتحار بيت خيل لى أن لها معنى جديدا يخصنى او بالحرى يخصنى انا وبيت ، فقد انتحر كلايست فى نفس الوقت مع هنرييت فوجل ، ولكن لاسباب اخرى تختلف عن أسباب صديقته . كان كلايست يعانى من يأس كامل يمس كل جوانب حياته فى حين أن هنرييت كانت تعانى من سرطان فى الرحم . وبهذا السبب الخطير بالذات تماثلت مع عشيقها ، وقبلت الانتحار المزدوج . اما اليوم فمن منا ، أنا وبيت ، الذى يقوم فى مشروع الانتحار المذكور بدور هنرييت ومن منا الذى يقوم بدور كلايست .

من ناحية ، كانت هناك حقيقة لا تقبل الجدل ، هى أننى رجل وان بيت امرأة ، ففى الامكان اذن الاعتقاد بأننى كلايست وأن بيت هى هنرييت . ومن ناحية اخرى ، لايشك امرؤ فى أن الانتحار المشترك كان من وحى كلايست كنهاية منطقية لحياته اليائسة فالمماثلة فى هذه الحالة تكون معكوسة ، فان بيت كلايست وانا هنرييت .

لكنني لا اعاني من اى مرض ، ولست أشكو من سرطان أو من أية علة مميتة . وانما على العكس كنت رجل اليأس المستقر .. رجلا رابط الجاش ، منطقيا وسليما . لم أكن أستطيع اذن أن أكون هنرييت الواضحة فى الظاهر ، والعاشقة المريضة فى الواقع ، كما يبدو من خطابها الاخير .

ومن ناحية أخرى ، كنت عاشقا لبيت ، بنفس الطريقة الساذجة والرومانتيكية التى عشق بها كلايست هنرييت ، وذلك بالاستناد الى خطاباته . والنتيجة أننا يمكن ان نفترض أن شروع الانتحار المزدوج كان من وحى هنرييت ، وأن كلايست اليائس وغير الراغب فى الموت قبل ان ينتحر حبا لتلك المراة ، متنازلا بذلك عن نوع من التحدى أو من الابتزاز العاطفى .

فى هذه الحالة يمكننى التشبه مرة أخرى بكلايست بسبب حبنا المشترك للادب . ولكن اذا كنت أنا كلايست وبيت هى هنرييت فمن كانت هنرييت حقا ؟ الواقع اننى لم اكن أعرف شيئا عن هنرييت فيما عدا أنها تعانى من مرض السرطان ، كما لم أكن أعرف شيئا عن بيت فيما عدا انها زوجة موللر .

فى هذه الليلة اذن ، وفى أية ساعة يمكن ان تدخل بيت غرفتى . ادركت عندئذ ، بعد قراءة خطاب هنرييت أن هذا التوقع يوحى الى باحساس متناقض كل التناقض ، فمن ناحية ، كنت مشوقا لرؤية بيت ولان أتحدث معها وأحثها على عملية الانقاذ التى بدت لى منـذ قليل نوع العلاقة الوحيدة التى يمكن أن تكون بينى وبينها . ومن ناحية أخرى ، فان الرسالة المودعة فى الخطاب الذى أعلن فيه كلايست وهنرييت عن موتهما جعلنى أفكر أننى اخطأت كل الخطأ فيما يتعلق ببيت وفى نوع العلاقات التى بينها وبين موللر . فهى لم تكن على الارجح ضحية لموللر ، ولم يكن موللر ، على الارجح ، جلادا لبيت . كان خطاب هنرييت فوجل الذى أشار كلايست اليه يبدو على الاكثر انه يصور طريقة خاصة جدا لمفهوم الحب . لم أكن اسـتطيع أن اتجاهل ان مشروع الموت « معا » فى الظاهر بطولى ونقى ، يخفى ويعبر ، شفافية وتلميحا ، عن الحب معا ، أو اذا فضلنا الفجور معا . كان من المستحيل معرفة مافعله كلايست وهنرييت فوجل أو ماقاله كل منهما قبل أن ينتحرا . لكننى أعرف تماما أن الموت معا بالنسبة لنا ، أنا وبيت سيتميز بطابع مثالى للحب « معا » . الحب والموت ، هذا التزاوج الادبى القديم الذى يتكلم عن الحب المرتبط بالموت ارتباطا

لا ينفصم لم يكن يقلل فى شىء جدية مشروع بيت ، وما كان الا ليكشف ناحيته الغامضة . ولكننى كنت منجذبا لبيت ، وكنت أشتهيها . وهكذا ، فغريزتى الحيوية بالذات ، التى كان يجب أن تحملنى على رفض الانتحار المزدوج كانت تدفعنى الى قبوله ، مضيفة اليه الرغبة العاشقة .

اصابتنى حالة عصبية لم استطع التغلب عليها فجلست فوق الفراش ، لكى ابحث عن سجائرى وكبريتى فوق المنضدة الصغيرة ، بجوار الفراش ، وعندئذ رايت فوق رخامها ، بجوار السجائر كتاب « هكذا تكلم زرادوشت » ، وهو الكتاب الذى استخدمته فى ارسال رسالتى الغرامية الاولى لبيت .. قصيدة صغيرة وضعت تحتهـــا خطين ووضعت هى بدورها ثلاثة خطوط اخرى . واذ رايت هذا الكتاب ، دون التفكير فى مدى سخرية الامر فى مثل هذه الظـــروف ضربت جبينى بكف يدى وانا أصيح : « وجدتها » . ذلك اننى اكتشفت أن بيت افلحت فى ربط قصيدة نيتشه بانتحار كلايست المزدوج .

أفلا تقول القصيدة ان اللذة تريد خلودا ؟.. واى خلود اكثر حقيقة ولا حدود له على الاطلاق ما لم يكن خلود الموت . ولكن بيت لم تكن على ثقافة عالية ، والارجح انها مجرد فتاة المانية متزوجة برجل يدعى موللر . وأذن فهى لاتريد الموت لانها أفلحت فى الربط بين نيتشه وكلايست وانما تريده بالذات لانها خلقت هذه الرابطة بين نيتشه وكلايست .

وجدت نفسى امام شخص يريد فعلا أن يفعل فى الحياة ما أريده أنا لبطل قصتى وما لا أريد أن أفعله بنفسى . والنهاية هى أننى وجدت نفسى فى معضلة بليغة ، فمن ناحية ، كانت هناك الحيـــاة مع مشروع الانتحار المزدوج على طريقة كلايست والمرتبط تعســفيا بقصيدة نيتشه وغير مهتم بالادب على الاطلاق . ومن ناحيـــة أخرى الادب الذى بمشروعى الخاص والمناهض لليأس المستقر يسد الطريق للحياة .

ما العمل اذن ؟ احصيت ذهنيا كل مايمكننى ان أفعله الليلة :

١ ــ أن اوصد الباب بالمفتاح ولا أفتحه باية حجة ، وان أغادر البنسيون غدا .

٢ ــ أن أصل الى لحظة الذروة الحتمية ، أى الى المنومات والى السم والى المسدس ، وبذلك أصل الى اللذة وليس الى الخلود .

٣ ــ أن ننتحر معا .

- ٧ -

بينما كنت غارقا فى افكارى اذا بى اسمع فجاة اناسا يتكلمون تحت نافذتى . لا أرى لماذا ، لكننى تصورت على الفور أن هذين الصوتين لهما دخل معى ، فربما بطريقة أو باخرى ياتيانى برد على سؤالي « ما العمل ؟ » ووثبت أسفل الفراش على الفور واسرعت الى النافذة وفتحت احدى مصراعيها ونظرت الى أسفل .

سبق أن قلت أن بغرفتى نافذتين تطلان على حديقة البنسيون، وبالذات على قبة مطلية باللون الابيض تحمى باب الدخول . وكانت غرفتى بالطابق الثانى ، يجعلنى أستطيع أن ارى دون أن يرانى احد . وفى تلك الساعة الهاجعة والهادئة من آخر الاصيل كان هناك شخصان جالسان الى احدى المناضد المرصوصة فى دائرة وحولها بعض المقاعد . أما المتحدثان فهما رئيس الخدم وامرأة عرفتها دون تردد ، انها سونيا ، مديرة متحف شابيرو .

كان رئيس الخدم طويل القامة ، نحيفا جدا ، ذا شعر غير ممشط وعينين ساحرتين تحت حاجبين كثين وأنف معقود ، يقف فى غير اكتراث ، نصف مضجع تقريبا فوق مقعد مستطيل بجوار المنضدة ، ويصغى مغرورا بنفسه الى سونيا وهى تتكلم فى انفعال شديد حتى لتكاد تنحنى فوقه . ودهشت لاننى عندما رايت سونيا اول مرة كانت تعنف حوذيا وهى الان تعنف خادما ، كما لو أن علاقاتها مع هذين الرجلين المرؤوسين كانت دليلا على اخطار اجتماعى لا ادريه .

أصخت السمع ، وفهمت عندئذ ان الاصوات الصريحة الواضحة التى حملتنى على الاسراع الى النافذة لابد انها كانت ضمن حديث انتهى الان لتوه . وحتى اللحظة التى انحنيت فيها فوق الحديقة لم تتحدث سونيا ورئيس الخدم الا فى أشياء تافهة لم يكن يهمهما أن يسمعها اى شخص . يبدو الآن ان الحديث اتخذ طابع السرية ، فقد خفضت سونيا صوتها حتى كاد يصبح همسا . كان يبدو من هيئة الرجل انها تعاتبه . اما هو فيتلقى عقابها فى شىء من الصلف والغرور . كان واضحا تماما انها تعنف عاشقا غير مخلص او مهمل بدأ يشعر

نحوها بازدراء وسخرية ، وأن تصرفه معها نفس تصرف الحوذى يوم قدومى الى كابرى . واستمرا على حالتهما هذه لحظة : هى تتكلم فى همس صاغر مضحك وهو يرد من وقت لآخر بكلمات فظة ، كما لو انه ينكر اتهامها له فى رخاوة ودون اقناع ... هى بجسدها المثنى نصفين تقريبا تشير الى صدر الرجل باصبع متهمة ، وهو مطوح بنصفه الاعلى الى الوراء ، مكتفيا بهز راسه نفيا ، محتفظا بعدم اكتراثه ، ممسكا فى آخر اصابعه بسيجارة تكاد تبلغ نهايتها . وانتهى الامر بسونيا الى السكوت لاسترداد نفسها دون أن تغير حركتها الاتهامية . وانتهز رئيس الخدم الفرصة لكى يلقى بعقب سيجارته ارضا ويطأه بقدمه ، وينطق بعد ذلك ببضع كلمات لم اتبينها كان لها تاثير سريع وغير متوقع اطلاقا .

اجابت سونيا بشىء فى غير انفعال هذه المرة ، وبدون صفير الغضب . واشعل رئيس الخدم سيجارة اخرى ، ثم راح يتكلم فى سماحة وترفع وسخرية . عندئذ انحنت سونيا الى الامام وامسكت بيد الرجل الطويلة السمراء التى تركها تتدلى من مقعده وقبلتها بحمية شيقة . وكان رئيس الخدم يمسك بين اصابع يده الاخرى بسيجارته المشتعلة . وبينما سونيا مستمرة فى تقبيله رفع سيجارته الى شفتيه والحد نفسا ، ثم راح يراقب خلسة راس المراة المنحنية .

حدث بعد ذلك شىء كان الختام غير المتوقع والمنطقى لهذا المنظر . لقد مدت سونيا ذراعها نحو مسند المقعد ، وكانت تعلق عليه حقيبتها القماشية ، ودست يدها فيها واخرجتها بمظروف كبير أبيض مطوى اربع طيات ، أعدته مسبقا ، ووضعته فى يد الرجل التى كانت تغطيها بالقبلات .

لا ادرى لماذا ، لم استطع التغلب على السعال ، فرفع رئيس الخدم راسه ورآنى وسحب يده . وبقيت سونيا لحظة على وضعها ثم نطقت بشىء فى لهجة متوسلة ، والقت فوق المائدة اليد التى وضعت فى كفها المظروف . لكن الرجل لم يقل شيئا ولم يتحرك . وقلت لنفسى ان جموده التأملى فيه شىء يحمل المرء على التفكير فى الحيوان وفى الطبيعة . واكد انطباعى هذا سكون الشمس وثقل ذلك الاصيل الصيفى . كان جامدا جمود السحالى ، تلك الزواحف الصغيرة الجميلة التى يمكن رؤيتها فى اناكابرى ، فوق الجدران ، وعلى أسقف الشرفات ، منهمكة فى مراقبة حركات ذبابة او اية حشرة أخرى . وانتظرت فى صبر . كانت سونيا تمد المظروف فى اصرار كله قلق ،

ورئيس الخدم يتجنب النظر اليها ، متظاهرا بالتدخين . كان يبدو عليه التفكير ، والواقع انه كان هو السحلية والمظروف الدبابة . وتناهي الى الاسماع فى هذه اللحظة صوت مرور عربة فوق حصى الممر ، فرفعت عيني ورايت بالفعل عربة تقف أمام البنسيون . ووجدت ما يكفي من الوقت لكي أفكر : كيف استطاعت الوصول الي باب البنسيون فى حين أن حوذى العربة التى اقلتنى توقفت فى الميدان ، وحمل حقيبتي حتى البنسيون . لكننى سرعان ما وجدت الرد ، فقد أراد حوذى عربتي أن يكتسب بضع ليرات باشتغاله حمالا .

وقفت سونيا ورئيس الخدم بجوار منضدتهما . واسعفني الوقت لكي ارى يد رئيس الخدم وهي تدس المظروف فى جيب سترته قبل أن يتقدم ويضغط على يد سونيا . وعدت فى هذه اللحظة داخل غرفتي.

ما زلت لا اجد تفسيرا لما حدث فيما بعد . فقد ظننت انه لابد لى من الانتظار ست ساعات قبل أن ينتصف الليل . قالت بيت انها ستأتي فى آية لحظة بعد منتصف الليل . وهذه الساعات الست ستكون فراغا مملا الا اذا استخدمتها فى الفكرة القاسية الساحرة التى تدور حول الانتحار المزدوج . قررت ان اتجنب عذاب الفراغ والتفكير فىنفس الوقت بأن الجأ الى سونيا . انها الشخص الوحيد الذى تبادلت معه الحديث فى أناكابرى . ثم اننى ، كما سبق لى القول ، احسست ان وجودها فى الحديقة فى هذه الساعة ، رغم غموضه بالنسبة لى كان يعنينى مباشرة . سوف اهبط الى الحديقة واقدم لها نفسى واطلب منها أن تسمح لى بزيارة متحف شابيرو ، وحتى اذا لم تنقض الساعات الست بعد ذلك فسوف ادعوها لتناول العشاء ثم أعود فى منتصف الليل الى البنسيون وانتظر زيارة بيت . وما أن فكرت فى ذلك حتى بدأت التنفيذ على الفور فغادرت غرفتى جريا وهبطت الدرج مسرعا وخرجت الى الحديقة . كانت المقاعد المرصوصة حول المناضد كلها شاغرة . فرحت أجرى . ها هى البوابة مفتوحة على مصراعيها .. وها هو الميدان ، وها هى الارض المنحدرة والدرجات المحفورة فى الارض ووسطها شجرة وحيدة من أشجار الزيتون ، ذات جذع ملتو واغصان قليلة عارية . كانت سونيا تمشى هناك عند اول الميدان . تسلقت الدرجات اربعا اربعا ، وأنا انادى سونيا ... والعجيب انها لم تندهش وهى تسمع من يناديها باسمها الاول بدون اية كلفة ، ولم تلتفت .

تجددت معجزة يوم وصولى . لم تظهر غير ظهرها وشعرها المتموج . والفزير كشعر فتاة فى ميعة الصبا ، تاركة لى وهم اننى ناديت سونيا على انها امراة شابة سترينى متى استدارت وجها طاهرا متالقا . بل اننى اعترف انه كان لى أكثر من وهم لمجرد لحظة ، ولنقل اليقين بأن سونيا كانت فتاة شابة وجميلة ، واننى قد أستطيع بجوارها ان أنسى بيت واقتراحها الجنائزى .

ناديتها مرة أخرى وانا اجرى دائما ... سونيا ، فالتفتت ، وعندئذ رايت وجهها العجوز المغولى ، يظلله شعرها الجميل . واحسست عندئذ بصدمة كتلك التى تتسبب فيها خيبة أمل كبيرة ، وذلك كاننى أرى سونيا لاول مرة . ورحت أفكر وانا اقترب منها . هذه هى اذن ! امراة أكثرمن ناضجة تحت رحمة الجميع : الحوذى الذى اوشك أن يدوسها ، ورئيس الخدم الذى لاسباب اكثر من واضحة تنقده نقودا ، ثم انا أخيرا ادعوها باسمها الاول دون سابق معرفة بها . وهى فى هدوء ووداعة تنتظرنى فى ركن من الميدان . ووصلت بجوارها متقطع الانفاس وقلت لها :

ـ انا راكب العربة التى كادت ان تدوسك منذ بضعة ايام عند مدخل اناكابرى هل تذكريننى ؟.

نظرت الى فى رفق من خلال جفنيها العجوزين المحروقين بسبب الشمس ، ثم اجابتنى بلكنة روسية تتباين مع لكنة اهالى الجزيرة :

ـ نعم . اتذكرك واتذكر ذلك الوحش سلفاتور الذى أوشك ان يسحقنى . وانت ، ماذا تريد منى ؟.

قلت : قيل لى انك مديرة متحف شابيرو ، واريد زيارة المتحف.

ـ ولكن المتحف مغلق ولن يفتح ابوابه الا فى سبتمبر .

اصررت فى قلق :

ـ يمكنك ان تسمحى لى بزيارته مع ذلك ، فاننى شديد الاهتمام بالتصوير .

اصغت الى فى شىء من الود والادراك ، كما لو أنها تريد أن تقول: تكلم دائما . هذه اكاذيب ، لكن لا اهمية لذلك . المرة السابقة مع حوذى واليوم مع رئيس خدم والان مع اول عابر يمر فى الطريق . أنا عجوز ووحيدة ، واشكر كل من يرى اننى حية أرزق . ثم قالت فى شىء من الوقاحة :

ـ حسنا . اننى اقبل نصتك . ولكن قل لى قليلا ماذا تريد منى .

ـ لا شىء حقا فيما عدا رغبتى فى رؤية المتحف .

ــ هل تهتم بالتصوير ؟ .
ــ كثيرا .
راحت تتأملني في شيء من السخرية ثم قالت :
ــ ما انت الا شاب مسكين لا تعرف حتى كيف تكذب . مهما يكن . اذا كنت لا تهتم كثيرا بالبقاء مع امرأة عجوز فيمكنك ان ترافقني حتى المتحف . ولكنك سوف تزور المتحف وحدك ، هذا اذا كنت تريد زيارته حقا .

نسبت الى اذن وعلى الفور نوايا أنا نفسي لم افكر فيها . عاملتني في تسامح أمومي تقريبا لامرأة عجوز تتكلم مع رجل يصغرها بكثير . قبلت مؤقتا الدور الذي فرضته على وسألتها في براءة :
ــ ما نوع الصور الموجودة في المتحف ؟.
ــ هي رسومات تعبيرية المانية ونمساوية وبلجيكية وسويدية .

كانت تتكلم وهي تحدق في باصرار عجيب . ونظرت اليها بدوري. وأدهشني عندئذ الاحمر الفاقع لفمها الرقيق جدا والنائيء الى الامام قليلا ، تقريبا كبعض القرود . احمر فتي جدا يكذبه الوجه المستدير الذابل والمتورم الذي يصطبغ بابيض اشبه بالدقيق . وأنا انظر الى شفتيها الشبيهتين بالجرح ادركت انني اريد ان ارى ، من جديد ، ما سبق ان رأيته اثناء مشادتها مع حوذي عربتي . لسانها الاحمر الرطب الضخم الذي اخرجته من قناع رمادي أجوف . لماذا اردت أن ارى هذا اللسان ثانية ؟ ولماذا أرقتني هذه الرغبة ؟... لربما لانه كان الشيء الوحيد الذي اثار دهشتي فيها والذي يبرر انطباعي الاول وهو أن لقاءنا لم يأت صدفة واتفاقا . ولكن كيف افعل لكي أقول لامرأة عجوز انني أريدها ان تخرج لسانها . وبأية حجة كنا نسير ، أحدنا بجوار الاخر . سألتها ان كانت روسية حقا فقالت وهي تضحك في نشاز :
ــ روسية طبعا . ولدت في مدينة ساراتوف ، وحملوني وانا طفلة الى بترسبورج ، عفوا ، أعني لننجراد .
ــ هل انت منفية ؟
ــ نعم . منفية تماما .
ــ ومن أصل نبيل ؟
ــ طبعا .
ــ اذن فانت روسية بيضاء ؟.
ــ بيضاء ؟... أانت مجنون ؟. انا روسية اكثر من حمراء ، منذ ان قال البولشفيك انهم حمر .

ـ روسية حمراء اذن ؟.
ـ تماما . كنت أنتمى الى الحزب الاشتراكي الثورى الروسي ، وكنت أريد ان افعل ما يدعونه عادة بالثورة . ولكن ماذا تعرف أنت عن هذه الامور . ما انت الا شاب ايطالى وسيم اقبل الى كابرى للاصطياف على شاطىء البحر ولغزو قلوب المصطافات ، ولا دخل لهذا فيما أقول لك .
استأت بعض الشيء وأسرعت اقول لها انني لست شابا وسيما فحسب ، وانما شاب مثقف ، نجحت في الامتحان فى المانيا ، وقدمت بحثا عن كلايست ، وأكتب فى مجلة ثقافية مقالات عن الادب الالمانى (وهو أمر يتعلق ببضع مقالات غير ذات أهمية) وانني الفت كتابا عن العلاقة بين نيتشه ودانونزيو (ولم اكن قد كتبته بعد ، وكان ذلك مجرد مشروع قديم ولكنني آليت على نفسى ان اكتبه بعد أن أفرغ من روايتى) .
أدركت على الفور ان أسماء كلايست ودانو نزيو ونيتشه لم تحدث فيها أى تأثير ، بل خيل لى انها تسمعها لاول مرة فى حياتها . وأجابتنى :
ـ عندما كنت شابة قرأت لبعض الكتاب الالمان ... جوته وشيللر وغيرهما . ولكننى لم افهم شيئا منهم ، فتركتهم . وقرأت ايضا بعض الروايات الروسية لتولستوى مثلا . غير أننى لم أعد أختار الان واقرأ ما يقع تحت يدى لكى يمر الوقت .
ـ ولكن اذا كنت روسية فلابد أنك قرأت كتبا فى السياسة .
ـ نعم ، نعم . قرأت الجرائد السرية لحزب الكتاب ونشرات الدعاية ولكن لا تسلنى عن اسماء المؤلفين ، فقد مر على هذا وقت طويل ونسيتهم .
رأيت انها تمسك فى يدها كتابا فى حالة غير جيدة ، فأمسكت يدها وأدرتها لكى اقرأ العنوان : المربية الانجليزية . وسألتها :
ـ هل هذه الرواية جيدة ؟.
ـ نعم . لا بأس بها .
ـ ولكنها رواية للفتيات ... رواية رديئة طبعا ؟
ـ ألست أنا نفسى فتاة ؟
كانت تتدلل . ارغمتنى من جديد على القيام بدور الفتى الايطالى الوسيم . توقفت لحظة لكى أشعل سيجارة ، لكننى رأيت أننى نسيت علبتى فى البنسيون ، فسألتها :
ـ اين بائع السجائر ؟.

ـ هنا ، امامك بالذات .

نظرت حيث اشارت . كان بائع السجائر أمامنا فعلا . ولم أكن قد رايته لانه كان قريبا جدا ، واللافتة « أدوات مكتبية وسجائر » كانت صفراء والحروف تكاد تكون مكشوطة . والفترينة الصغيرة متربة، وبها بعض الادوات المكتبية . وعلى الافريز ركيزة بثلاثة قوائم معروض عليها بعض البطاقات البريدية . وخطرت بذهني فكرة فقلت :

ـ تعالى لكى اشترى سجائر .

دخلنا المحل الصغير الذي يعبق برائحة الدخان والحبر والاوراق القديمة . صاحبته امراة بدينة يرتسم فوق شفتيها شبه شارب وعلى راسها هرم من الشعر . القت فوق المبسط اربع علب من السجائر لكى اختار منها واحدة . وادهشني هذا الاعتبار الذى يلقون به عادة قدامي الزبائن . ولكنني وانا أرى سونيا تتكلم معها فى ألفة زالت دهشتي وادركت ان هذا الاعتبار انما هو موجه الى سونيا بالذات . واخترت علبة واخذت بطاقة عائلية لبيت منخفض طوبه أحمر يحيط بنوافذه رخام ابيض مكتوب تحته « متحف شابيرو » عرضتها على سونيا وسالتها :

ـ أهذا هو المتحف ؟.

ـ نعم .

ـ ايمكنني ان اقدم لك علبة سجائر ؟.

ـ وهل هذا بسؤال ؟.. علبة من سجائرى المفضلة يا ماريا نينا ... ماركة جيليك ، اذا سمحت ... خفيفة .

القت ماريا نينا أربع علب عن المنصة مرة اخرى ، اختارت سونيا اكثرها مرونة وهى تجسها بأصابعها التى لفحتها الشمس . وكتبت على البطاقة بضع كلمات غير ذات أهمية لاقاربى ، وطلبت من التاجرة طابعا اعطته لى . ووضعت البطاقة والطابع امام سونيا وقلت :

ـ وقعي باسمك « سونيا » ، فحسب . سوف يظن اقاربى اننى غزوت قلب فتاة فى كابرى .

كانت فكرتى هى التالية ، فبعد أن توقع سونيا على البطاقة ستجد نفسها أمام طابع لابد من لصقه . ولكى ترضينى سوف تبله بلسانها ، وكى تفعل لابد من ان تخرج هذا اللسان الضخم والصبيانى كما أتمنى . وتظاهرت باننى مهتم بكتابة بطاقة بريدية أخرى ونظرت الى سونيا من طرف عينى . أخذت الريشة التى على المنصة والتى

تتركها البائعة تحت تصرف عملائها ، ووقعت باسمها . وبدون تردد ضغطت بالطابع على الاسفنجة الصغيرة الموجودة فوق المنصة . وقلت لنفسي عندئذ ان هذه الاسفنجة موجودة عمدا لكي تفشل خطتي. ولكنها كانت جافة تماما لحسن الحظ . وصاحت سونيا :

ــ ما هذا يا ماريا نينا ؟. اسفنجتك ليست مبتلة !.

ثم تحولت الى لكى تسالنى فى فضول :

ــ هل العق انا الطابع ، ام تلعقه انت ؟

ــ بل العقيه انت نفسك .

رمتنى بنظرة جانبية متواطئة ، واخرجت لسانها لكى تلعق الطابع . نظرت اليها فى حدة واهتمام شخص يحاول التاكد من اول انطباع له ، لكننى لم البث أن أدركت ان انطباعى الان مماثل لانطباعى الاول ، فقد كان للسان سونيا نفس الحيوية العنيفة المتورمة . نعم ... كان وجهها فى الظاهر اشبه بفاكهة فاسدة ، ولكنه كان لا يزال غنيا وعفيا فى الداخل . وضغطت سونيا بابهامها على الطابع ثم صاحت:

ــ أف !.. طعم الصمغ بقى فى فمى .

وعندما خرجنا من محل السجائر قلت مقترحا :

ــ ما رايك أن نتناول فنجانا من القهوة ؟.. سوف يزول الطعم السيىء .

ــ ولم لا ؟.

لم يكن بين محل السجائر والمقهى اكثر من بضع خطوات ، فدخلنا ودنونا من المنصة . قالت سونيا لصاحب المقهى فى الفة :

ــ دومينكو ... فنجانان من القهوة اذا سمحت .

ثم اردفت :

ــ وكيف الحال عندك ؟ .. هل الجميع بخير ؟

اجاب الرجل :

ــ الجميع بخير .

واشعلت سونيا سيجارة فى سرور ظاهر ، واخذت الرواية التى القتها على المنصة وفتحتها . قالت وهى تنفث الدخان من أنفها :

ــ انها قصة مربية تزوجت فى النهاية برجل ثرى كانت تقوم بتربية أولاده ، وهى رواية مثيرة جدا للاهتمام .

لم استطع أن أفهم أن كانت تتكلم بجد ، فقد كان لى رايى عن الثوريين . ويبدو أن سونيا رات دهشتى لانها أردفت تقول :

ــ هذه القصة تثير اهتمامى بوجه خاص ، فقد كنت انا نفسى

مربية خمسا وعشرين سنة من حياتي .

ـ واين ذلك ؟.

ـ في كل مكان تقريبا ، فان العائلات البورجوازية الكبيرة تتنقل كثيرا ما بين باريس ، والساحل اللازوردي وسويسرا وايطاليا والمانيا ولندن حيث التقيت بشابيرو .

ـ أهو الذي طلب منك أن تكوني مديرة متحفه ؟

ـ طلب مني الاشراف على ادارة بيته في البداية ، ثم عرض على وظيفة مديرة المتحف فيما بعد . غير ان المتحف ليس بحاجة الى من يديره فان شابيرو لم يعد يشتري لوحات منذ وقت طويل ، والمتحف بحاجة الى حارس وليس الى مديرة .

ـ وعلام يقوم عملك ؟.

ـ يجب أن اقرأ له بصوت مسموع روايات انجليزية مملة لكي ينام ، واحيانا ارافقه في نزهاته الصغيرة .

ـ اذن لا شيء تقريبا ؟.

ـ هو ذلك . لا شيء تقريبا . ثم انه لا يقضي في اناكابري الا موسم الصيف ، وفي الشتاء يقيم في الساحل اللازوردي .

ـ وهل ترافقينه ؟.

ـ كلا . انني ابقى في كابري .

خرجنا من المقهى بعد عبارة « الى اللقاء يادومينكو » القتهــا من طرف شفتيها ، ثم عرجنا الى طريق ضيق تحت ظلال اشجار الدلب واشجار الدفلى المزدهرة ذات الرائحة الحادة المتبخرة . وكانت الاغصان تتشابك فوق رءوسنا ، والشمس ترسل لنا من خلالها غمزة غير مباشرة ومرشحة ، كان لها ، مع بقائها شــمس يونيه المحرقة شيء غير واقعي ومتباعد كما لو كانت شمس يونيه مضت منذ وقت طويل . وســاهم في تدعيم ذلك الانطبــاع البــوابات الصدئة وواجهات الفيللات البومبية القائمة في اعمــاق الحدائق الكثيفة والمهملة تقريبا ، والبيوت الريفية التي يرجع عهـدها الى القرن الماضي . نظرت الى سونيا . كان عمرها من عمر تلك الحدائق والفيللات دون شك ، فقد كنا في سنة ١٩٣٤ ، وكان يبدو انها في الخمسين من العمر ، لاريب انها ولدت في سنة ١٨٨٥ او حوالي هذه السنة . رايتها تماما وقد ولدت في احدى المدن الصغيرة الموحلة البشعة بروسيا القيصرية في ذلك الوقت ، حيث كان الاثرياء مــن الانجليز والايطاليين يشيدون لانفسهم هنا فيللات لقضاء فصــل الشتاء . لم تكن موضة الاصطياف قد انتشرت بعد في انا كابري :

ولم يكن الناس يأتون اليها الا لجوها المريح فى الموسم الردىء . رحت افكر فى انه لكى اتم هذا النوع من الاحلام ، واعنى الحلم الذى احلم به وعينى مفتوحتين ، لم يكن ينقصنى الا بيان يأتينى صوته فاترا تحت أصابع مترددة لفتاة مضطرة ان تمارس عليه تمارينها وموسيقاها ، حبيسة فى صالون عتيق يزخر بصور فوتوغرافية اصفرت بمرور الوقت وبأباجورات مزخرفة باللؤلؤ .

وها هو البيان ، كما تولد فى فكرى ، تأتينا أصواته من احدى الحدائق العديدة التى تحيط بالطريق . ولم تكن أصابع مترددة لفتاة هى التى تصدر هذه الاصوات الموحية بمواسم صيفية أخرى بعيدة ، ولكن بلاشك أصابع شخص ناضج يعزف بموهبة خاصة لمتعته الشخصية . لعلها كانت مقطوعة لشوبان . وكان العازف يتوقف من وقت لآخر كانه يتذكر شيئا ثم يعود الى عزفه بمهارته وحماسه .

اقتربت من البوابة ، ورايت فى الحديقة المحوطة بأشجار الزينة ، مثلما يرى المرء دائما ، ممرا يمتد حتى فيللا من طابقين مبنية على النمط الحديث ، وتحت مقدمة السقف صف من البلاط السيراميك المزين بالسوسن البنفسجى والاوراق الخضراء ، وكانت ابواب النوافذ مغلقة فيما عدا نافذة بالطابق الارضى كانت الموسيقى تأتينا منها .

قلت :

ـ يسرنى جدا ان اعرف من الذى يعزف على البيان فى هذه الفيللا .

ضحكت سونيا وقالت :

ـ ليس هناك اسهل من هذا .. انها أم الدكتورة كيومو ، وقد واتتها أزمتها اليومية .

ـ وما العلاقة بين الازمة والبيان ؟

ـ ان الدكتورة كيومو تحتفظ بأمها بجوارها ، وهى تعانى من اضطرابات ذهنية غير خطرة . وعندما تأتيها الازمة تجلس امام البيان ولا تعزف ابدا المقطوعة التى تختارها حتى نهايتها . انما تعزف لحظة ، ثم تتوقف لتعود من جديد ثم تتوقف وتعود مرة أخرى .

والواقع ان أم الدكتورة كانت تعود بنفس الحماس الى البداية من جديد . كان يبدو وكأن المرأة المسكينة تجهد ذهنها لكى تتذكر

واذ يستعصى عليها ذلك تعود الى بداية المقطوعة من جديد . قلت :
ـ وماذا عن أم الدكتورة كيومو هذه ؟
ـ هى امرأة عجوز ، لطيفة عندما تكون فى حالتها الطبيعية .

وبدلا من أن تزيل هذه المعلومة غموض بيت الموسيقى ضاعفت من جانبها الغريب . كان سرا يخص الام والدكتورة كيومو أكثر مما يخصني أنا . بدا لى أننى لو كنت عشت فى هـذه الفيللا مع تلك السيدة المجنونة شيئا ما ومع ابنتها لخرجت من وقتى ولوجدت نفسى فى وقت مختلف يكون فيه الامل واليأس كلمتان لا معنى لهما .. فى وقت تقريبا خارج التاريخ ، حيث لا أمل هناك ولا يأس وانمـا أم الدكتورة كيومو فحسب ، تحاول أن تعزف مقطوعة لشـوبان فى عصر يوم صيفى دون أن تستطيع الوصول الى نهايتها . وللاسف لم يكن وقتى يمنحنى اية هدنة ، فان بنهسيون داميكوتا ينتظرنى كحيوان مفترس يترصد ، فى العشب ، على استعداد للانقضاض على عنقى . ولقد أراد وقتى أن أكون يائسـا ، وان تأتى بيت كى تقترح أن انتحر معها ، وان يستهوينى هذا الاقتراح . وسألت سـونيا فجأة :
ـ كثير من الثوريين كانوا يعيشون فى كابرى ، أليس كذلك ؟
ـ نعم . جوركى مثلا .
ـ ولينين ؟
ـ لا اعرف شيئا عن لينين .
ـ يبدو لى انك تمقتينه .
ـ وهل تحب رجلا أعدم بالرصاص عددا كبيرا من أصدقائك وأهلك ؟
ـ هل عرفت لينين ؟
ـ نعم .
ـ أين كان ذلك ؟
ـ فى باريس ، عند بعض الأصدقاء ، يوما ما قبل الثورة .
ـ هل تكلمت معه ؟
ـ كلا . ضغطت على يده فحسب . اخذها بين يديه لكى يهزها وهو يضحك ، كأنه وجد صديقا قديما . كانت أول وآخر مرة نلتقى فيها .
ـ وكيف كان ؟

ـ كان أشبه بالمهاجرين . اذكر انه كان يرتدى بنطلونا لم يكن لساقيه نفس الطول .

ـ أحسست بشيء اشبه بالخيبة كما احسست عند اكتشافى ان سونيا لاتعرف شيئا عن الادب الالمانى . أتلتقي بلينين ولا تتذكر الا طول ساقى بنطلونه ؟ اردت ان أغير مجرى الحديث فقلت فى غلظة :

ـ رايتك من نافذتى تعطين نقودا لرئيس الخدم ... ثمن ماذا ؟. شيىء سبق ان قام به او سوف يقوم به ذات يوم .

لم تبد عليها الدهشة أو الغضب لاشارتى هذه ، نظرت الي لحظة بعينيها الصغيرتين المغوليتين نظرة جامدة ، ثم ارتسمت ابتسامة على شفتيها المفرطتى الرقة والحمراوين بدرجة غريبة وقالت بلهجة ، راضية بين التهكم والخبث الريفى :

ـ بل لشيء سبق أن قام به . ان السداد يكون دائما فيما بعد . اليس كذلك ؟

ـ وهل قام به منذ وقت طويل ؟

ـ كلا . ليس منذ وقت طويل .. منذ يومين .

ـ ان الرجال يروقون لك كثيرا ، اليس كذلك ؟

هزت كتفيها وقالت :

ـ كما تروق لك النساء .

ـ لماذا تقولين ذلك ؟

ـ أتظن أننى لم أفهم عندما حملتنى على لعق الطابع عمدا ؟.

ـ عمدا ؟.. ولماذا ؟

ـ لكى ترى لسانى .

ـ ولكننى لم أحملك على لعق شيء .

ـ اذن لماذا نظرت الي بتلك الطريقة ؟

خمنت اذن حيلة البطاقة البريدية . وتملكنى الخجل وقلت بدون تفكير :

ـ حسن . اننى عائد الي البنسيون . وداعا .

ـ كما تشاء . سوف نلتقى .

سرت بضع خطوات ، ثم عاد اليأس واطبق على رأسى فجأة . فهمت أن جبنى هو الذى سيمنعنى ، الليلة ، من الانتحار مع بيت . والغريب ان لقائى بسونيا خفض قيمة الحياة فى عينى فى نفس اللحظة التى حاولت فيها العيش مادمت قد ساويتها بلسان مفرط الرطوبة

ومفرط الاحمرار وبين شفتين جافتين لامراة عجوز . احسست ازاء هذه الفكرة بشيء من البشاعة والحزن . ارتجفت رغم الحر ، ورايت ذراعي يرتعشان كأن الجو اصبح شديد البرودة . صحت اقول بلا تفكير :

ـ انتظريني .

توقفت سونيا على الفور ، ولحقت بها وقد اصابني الارتباك بعض الشيء وقلت :

ـ هيا بنا لزيارة المتحف .

ضحكت قائلة :

ـ انسيت ذلك ؟ .. لكن المتحف مغلق ، ولن استطيع ان افتحه لك وحدك . غير انني ، عوضا عن ذلك ، سأعد لك كوبا من الشاي .. اتفقنا ؟

وهكذا أسقطت حجة المتحف وهي على يقين من انني لن أحتج .

رحت امشي بجوارها دون أن أنطق بكلمة ، مطرق الراس ، اتلقى على وجهي دخان السيجارة التي تحتفظ بها بين شفتيها . قلت لنفسي ان هذا تصرف شخصي يشعر بالارتباك ويحاول ان يخفيه . قلت لنفسي ايضا انني سأمارس الحب مع سونيا ، وانني سافعل ذلك لا لشيء الا لكي لا افكر في بيت ولكي افرغ في سونيا كل طاقتي بطريقة فيها تدمير للذات . آه ، نعم ، لابد من نشاط حيوي كبير للتخلص من الحياة طواعية . كنت في خوفي استبسل في اجهادها مع هذه المراة العجوز الهستيرية .

ارتجفت وانا اسمع صوت سونيا يقول لي : لقد وصلنا . ورفعت رأسي ونظرت . كان الطريق المؤدي من أنا كابري الى كابري خالي الاشجار . كان احد جانبيه عبارة عن سور يمتد البحر بعده ، والجانب الآخر صخور جبل سولار . وعلى قمة الجبل شرفة تمتد فوق الطريق . رفعت عيني لكي أرى شرفة اخرى متوازنة على الفراغ فوق عامودين دوريين يدعمان تعريشة ، وتمثال صغير لأبي الهول ، اسود اللون ، رابض فوق السور ويبدو كأنه يتأمل البحر بعمق عينيه الفارغتين والمتألقتين ، وسمعت صريرا فرفعت عيني . كانت سونيا قد فتحت بابا صغيرا جديدا لم أكن قد لمحته . ودعتني ان اتبعها في سلم صغير قائم بين جدارين من الاحجار اليابسة ، متصدعين تحت الخضرة .

ومن جديد ، وبينما كنت أصعد السلم خلفها ، دهشت لنحافة

جسدها وغزارة شعرها . كانت المراة التي اتبعها شابة وجميلة . والحب ينتظرني هناك ، اعلى السلم . حقيقة انني أصعد ذلك السلم خلف امراة فريسة اضطراب ذكرتني بتجربتي الجنسية الاولى مع عاهرة في ماخور بالضواحي ، كانت نحيفة ولها شعر غزير كشعر سونيا ، ولكنها على العكس من سونيا كانت في العشرين من عمرها ، تقدمتني هي الاخرى في السلم وهي ترفع جونلتها لكي تسرع في الصعود . استعدت الرغبة بي فكنت أصعد خلفها مباشرة لدرجة أن انفي كان يلامس ردفيها . لماذا تعود هذه الذكرى الى ذهني . اكان ذلك بسبب تشابه الموقف ؟ استخدمت العاهرة في ذلك اليوم كوسيلة للتخلص من عذاب الشهوة ، واليوم اردت استخدام سونيا كرقية تحملني بهدوء الى قبول الانتحار المزدوج مع بيت .

توقفت سونيا في منتصف السلم كانها تخمن ما يدور في ذهني ، واستدارت نحوي وقالت :

ـ شابيرو ليس هنا . سوف يصل غدا ، هذا افضل . اليس كذلك ؟. لن يزعجنا احد .

ـ ولكن اين نمضي ؟.

ـ الى غرفتي .

ونظرت الى جانبيا ، ولمحت نظرتي على الفور . ورأيتها تخرج لسانها الطويل من بين شفتيها . كانت حركة وقحة وغريبة كان يمكن أن تقوم بها عاهرة تجربتي الاولى . لم يسعني الا أن أخفض عيني وقد تولاني ، لسبب لا أدريه ، شيء من الخجل . اردفت تقول :

ـ ساعد لك فنجانا على الطريقة الروسية على الساموفار .

كانت تخبرني بطريقة فولكلورية وفي شيء من الغموض انها مستعدة لان تفعل من أجلي كل ما أنتظره منها .

وفي أعلى السلم وصلنا الى الشرفة التي لمحتها ونحن في الطريق، من ناحية السور وتمثال ابي الهول الرابض والمشرف على البحر . وفي الناحية الاخرى ، لصق التل ، في آخر الشرفة فيللا شابيرو ، وهو مبنى طويل ومنخفض ، يشهد على الطراز الشرقي ، بأبواب صغيرة ونوافذ حديقة تحيط بها اطارات من الرخام الابيض وموزعة في نظام غير متناسق على الواجهة الحمراء . فتحت سونيا احد الابواب واجتازت قبة من الرخام وتقدمتني في بهو ضيق ثم اجتازت قبة اخرى ، واخيرا أدخلتني غرفة بدت في حالة فوضى كبيرة .

هناك فراش كبير بأبليكانة فوقه اغطية مجعدة ، ومكتب

قديم وباروكية لصق جدار تغطيه صور فوتوغرافية قديمة وآلة كاتبة ، أمام النافذة المفتوحة التي تطل على سور صخرى ، توجد منضدة مستديرة عليها بعض الاكواب والساموفار الذى حدثتني عنه .

سرعان جلست سونيا فوق الفراش على الفور ودون أن تتظاهر باعداد الشاى قالت :

ـ اجلس . لن يضيرك ان تجلس على الفراش وهو غير مرتب . ان كونشتينا لديها عادة سيئة فهى لا تأتى الا قبيل العشاء ، لذا ففراشي دائما غير مرتب . انك تكره الفوضى ، اليس كذلك ؟.

هززت راسى . وكانت قد امسكتنى من ذراعى بيد عصبية ضارية ، أصابعها اشبه بمخالب كاسر ، لكى توقعنى فوق الفراش بجوارها . وبتلك الاصابع المثنية كالمروحة راحت تهبط بطول ذراعى، ثم وضعت كف يدها على ظهر يدى لكى تغرز أصابعها بين اصابعى . قالت فى صوت خافت :

ـ أنت تعرف كل شىء عنى ، حتى اننى أنقد فنشنزو نقودا ، وانا لا اعرف عنك شيئا . هل يمكن أن اعرف لماذا اتيت الى كابرى ؟.

اجبت فى غموض ممزوج بصدق :

ـ أتيت لكى أقوم بشىء صعب جدا .

ـ أى شىء ؟.

ـ ترسيخ الياس .

ـ ما معنى هذا ؟.

ـ من الطبيعى ان يستولى اليأس على المرء ، ورأيى ان هذا هو الوضع الطبيعى للانسان ، لكن اليأس ، لسوء الحظ ، منطقى ، ومنطقيته حمقاء لانه يدفعك بالتأكيد الى الانتحار . غير اننى أريد ان أجعل اليأس ذكيا وأن أضبطه كما تضبط درجة حرارة الحمام وتثبيته على عدد معين من الدرجات ، ولا شىء أقل من ذلك .

نظرت الى فى حيرة من لم يفهم ، وقالت :

ـ انا لا افهمك ، فأنت تتكلم كرجل مثقف ، وانا لست مثقفة. الهذا اتيت الى اناكابرى ؟ لماذا ؟.. لماذا اناكابرى بالذات ؟.

اردت أن اجاملها مع بقائى فى حدود خطتى فقلت :

ـ خامرنى احساس اننى ساجد فى كابرى امراة تساعدنى على بلوغ غايتى ، وقد وجدتها بالفعل . فهى انت .

أدركت قولي هذا فقد ومض في عينيها الصغيرتين المغوليتين وميض بالتواطؤ ، وسالتني في الفة :

ـ ما الذي يستهويك في ؟.

رأيت أن كل شيء يسير نحو الهدف الذي حددته . كانت سونيا رغم غبائها ، أو بالحرى بفضل غبائها مستعدة لمساعدتى . وأجبت في شيء من الغموض :

ـ انت تعرفين ذلك طبعا .

ـ ماذا تعني ؟.

فكرت على الفور انني يجب بكل امانة ان آخذها من قفاها لكى اثنيها فوق بطني . وادركت عندئذ اننى لم اكن جديرا بأن انجز حركة بسيطة آلية كهذه ، اى حركة زبون لغانية . فان عمر سونيا ، وتصـورها في غرورها بأن تروق لى حتما أوحيا الى بشيء من الاحترام . واستدارت نحوى عندئذ وهي مستمرة في سحق يدى بيدها . كانت تلهث ، وبينما هي تفعل كشفت لى تحت قماش بلوزتها الغامق نهديها بجمالهما الذي لا شك فيه . مددت يدى وبدات افك الازرار ، الواحد بعد الاخر . تركتني افعل وقد فغرت فاها ، كأنها تنتظر ان افك الزرار الاخير لكي تطلق صرخة ذعر . ولكن بلوزتها انفتحت على صديريه من القطن الابيض ، ممتلىء ومنتفخ ، من غير أن يصدر من فمها اى صوت . وبدات عندئذ اعالج الصديرية لكى ينزلق الى أسفل بنشاط غضوب . ومن جديد تركتني افعل . كانت واقفة معتدلة القامة بثدى داخل الصديرية والاخر خارجه . اسمر تملؤه عروق زرقاء متشعبة جدا ... يبدو من أول وهلة كثـدى امراة شابة ، ولكن طرفه كان جافا بعض الشيء وذابلا ، وكل كتلة اللحم السمراء اللينة تبدو أقل تماسكا بصلابتها ، احسست فجـأة برغبة في الاسراع لكى أفرغ من ذلك ، ادركت بغتة اننى غرزت أصابعى في شعر سونيا وانني اشدها نحوى فتنحني بانقياد تبعـا لحركات شعرها . والقت بخدها وفمها المفتوح عند بنطلونى ، وبقيت على وضعها هذا ، منتظرة ، وعيناها ثابتتان امامها وهى مثنية بانحراف في وضع متعب يذكر المرء بوضع المحكوم عليه بالاعدام وراسه فوق قاعدة القطع ينتظر دون أن يرى سكين الجلاد التى ستقطع رقبته . ترددت من جديد ثم سحبت يدى الممسكة بشعرها وسالتها في صوت منخفض :

ـ هل سيروق لك هذا ؟.

تكلمت وراسها فوق بطني وعيناها على بنطلوني وقالت :
ــ نعم . سوف يروق لي هذا . ولكنك تخيفني .
ــ لماذا ؟ الا اقوم بنفس الحركات التى يقوم بها فنشنزو ؟.
ــ الامر مختلف مع فنشنزو ، فهو لا يجعلنى اشعر باننى امرأة عجوز ، اما انت فنعم .
ــ لماذا تقولين اننى اجعلك تشعرين بانك عجوز .
غيرت من وضعها قبل أن ترد . وزررت بلوزتها ثم نظرت الى مواجهة وقالت :
ــ رايت فى عينيك شيئا اخافنى .
ــ الا تعرفين ما هو هذا الشىء ؟.
ــ شىء خبيث ، مثل الشىء الذى نراه فى عيون الاطفال وهم يعذبون قطة او كلبا .
قلت فى خضوع :
ــ سامحينى .
ــ ليس هذا بشىء . سأعد لك الشاى الان .
نهضت وراحت تدور حول منضدة السامونار الصغيرة . ونظرت انا الى المنبه خلسة فرايت انه لم تنقض من الساعات الست التى تفصلنى عن موعدى مع بيت غير ساعة واحدة . خمس ساعات اخرى . قلت لنفسى وانا انظر الى سونيا اننى اخطات بخصوصها . فلم تكن هى التى تستطيع ان تكون وسيلتى للتخلص من سحر بيت . ومع ذلك فمن يدرى ؟... احسست أن فى مقدورها مع ذلك ان تساعدنى فى الوصول الى هدفى ، ولكن كيف ؟ ربما استطيع قضاء الساعات الباقية على موعدى المحتوم مع بيت وانا احاول على ان أفهم لماذا اخطات .
قلت فجاة كان خاطرا جال ببالي :
ــ هل تعرفيننى فيم افكر يا سونيا ؟... اننى واثق انك كنت تنتظريننى ، دون أن تدرى ، فى اناكابرى لكى تساعدينى على تثبيت ياسى .
هزت راسها وقالت :
ــ سبق ان قلت لك يا عزيزى اننى لا افهمك . انك تجعلنى افكر فى بعض رجال الادب الذين عرفتهم فى روسيا قبل الثورة . كانوا يتكلمون مثلك ولم اكن افهمهم .
احتججت صائحا تقريبا :

ــ ومع ذلك فالامر واضح ، فقد فعلت انت منذ وقت طويل ما اريد ان أفعله الان . قولي لي كيف فعلت ذلك .

قالت في رفق وهي تناولني فنجان الشاى :

ــ لست أعرف تماما ماذا تريد مني . فانت تتحدث عن اشياء صعبة .

وأردفت في شيء من الاسف :

ــ في حين أنك اذا تركت الامور تسير فكل شيء يغدو سهلا .

تظاهرت بأنني لم اسمع وقلت في اصرار :

ــ ومع ذلك فانا أعلم ، بل على يقين انك قمت بعملية ما ، اذ لا يمكن أن يكون الامر غير ذلك .

ــ اية عملية ؟

ــ لا أدرى . حتى ولو ظننت انه من السهل أن اخمن ذلك . ولهذا ، ولكى نفرغ من هذا الامر ، أسالك : من أنت ؟

وجلست فوق الفراش ، على مقربة مني وفي يدها فنجان الشاى ، كربة بيت تستأنف حديثا هاما . قالت فجأة وقد استقر منها العزم تماما :

ــ ما دمت تريد أن تعرف من انا فسوف اخبرك : انا امراة ميتة .

كنت أنتظر ردا مماثلا ، معاكسا لما كنت أفكر فيه . اردت ان أمزح فقلت :

ــ ومتى مت كما تقولين ؟

رأيتها تفكر لحظة ثم اجابتني بكل جد :

ــ لقد مت يوم ٥ يناير سنة ١٩٠٩ . وأنا اليوم في الثانية والخمسين من عمرى ، حيث أنني ولدت ،بشكل طبيعي في سنة ١٨٨٢ . أكون قد مت اذن وانا في سن السابعة والعشرين .

تملكني الارتباك ازاء هذا الامر الذى يختلف عن رأيي في سونيا في أنها امرأة غير متزنة تماما . قلت في شيء من السخرية :

ــ لقد مت في عز شبابك اذن ... ولكن مم ؟

ــ أوه ... بكل بساطة : من الغثيان .

ــ الغثيان من اى شيء ؟

ــ طلبوا مني ان افعل شيئا لم اشا القيام به فمت .

ما اعجب تلك الكلمات التى تنبعث من هذا الفم اليابس الاشبه بفم القرد تقريبا . والذى انحنى منذ لحظات دون اى تقزز نحـو

بطنى . لم استطع ان امنع نفسى من تذكر ابيات لرامبو اعجبت بها فى حينها :

شباب عاطل
خاضع لكل شىء
ومن خمولى
أضعت حياتي .

قلت فى دهشة واصرار :

ـ اتفقنا . لقد مت فى ٥ يناير سنة ١٩٠٩ كما تقولين ، ولكن ما هو الشىء الذى رفضت القيام به ؟

اجابت من جديد فى تردد وفى شىء من التحفظ :

ـ هل تريد أن تعرف ذلك حقا ؟ انك تسالنى لكى تجاملنى . اذا كان الأمر كذلك فدعني أقول لك انك مخطىء ، فانه لا يسرنى ان أتكلم عن ماضى .

ـ نعم ، أريد أن أعرف حقا .

ـ حسنا . استعد اذن للاصغاء لقصة طويلة ومملة .

ثم استطردت تقول :

ـ الشىء الذى رفضت القيام به قررته اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الثورى الروسي الذى كان يجب أن ينعقد فى ٥ يناير سنة ١٩٠٩ لكى يعيد النظر فى حالة اتفو ازيف .

ـ ومن كان اتفو ازيف ؟

شدت نفسا طويلا من السيجارة ثم قالت وهى تنفث الدخان من منخريها :

ـ احسست بالتقزز من القتل . لعلى اسات كثيرا ، ولكننى آثرت عندئذ ان أكون ضحية بدلا من أن أكون جلادة .

ـ جلادة من ؟

ـ دعنا من هذا . ما الداعي الى نبش الماضى . يبدو كأننا ننبش مقبرة لكى نخرج عظاما لا تريد الا ان نتركها فى سلام .

قلت فى خبث :

ـ اذا لم تقولى لى من انت حقا او بالحرى من كنت فساضطر الى اعتبارك امراة مسكينة ناضجة اكثر من اللازم .

ـ تعنى أن تقول صراحة أننى امراة عجوز ؟

ـ امراة عجوز مسكينة تهيم على وجهها فى ضاحية ايطالية صغيرة وهى تدفع للسائقين والخدم والبحارة .
ـ بحارة ؟ ... كانوا كثيرين ... كيف خمنت ذلك ؟
ـ ان كابرى ميناء بحرية ... أليس كذلك ؟
ـ ان البحارة ، بين غيرهم ، لا يريدون ثمنا لما يمنحونه من حب . اننى أمضى معهم فى القارب وأجلس فى القاع ، ويستمر البحار فى التجديف وهو يباعد ما بين ساقيه ، ويمضى كل شىء فى هدوء ، بين البحر والسماء .
وفيما هى تتكلم ، وكما لو ارادت أن تفهمنى تماما ما يدور بين البحر والسماء ، مرت بلسانها بين شفتيها وبصقت قطعة من الدخان بقيت ملتصقة بفمها . وواتتنى عندئذ فكرة معينة : انا وبيت مازلنا فى أول العتبة ، اما هى فقد تخطتها وفعلت حتى الان كل ما أريد أنا وبيت أن نفعل ولم تواتنا الشجاعة على ذلك . وقلت فى اصرار وهدوء :
ـ سونيا ... من الشخص الذى كلفتك اللجنــة المركزية بقتله ؟.
ـ افنو .
ـ مرة أخرى ... من كان افنو هذا ؟
ـ كان قصير القامة ، بدينا وقويا ، بشرة وجهه صفراء ، شارب أسود مدبب ، شفتان ضخمتان رخوتان ، انف كبير أفطس وأذنان عريضتان ... رجل دميم كان أشبه بتاجر مواشى أو سمسار حبوب .
ـ كان لقبه ازيف ؟
ـ نعم ، بالنسبة للرفاق ، أما بالنسبة لرجال الشرطة فكان لقبه رادزكين .
ـ لا أفهم .
ـ كان افنو ثوريا ، وكان واشيا فى نفس الوقت وواشيا له أهميته . وأصبح واحدا من زعماء الحزب . وعمل على قتل بلهف رئيس المجلس للاثارة والتحريض .
ـ وكيف اكتشف رجال الحزب أن ازيف كان واشيا ؟
ـ كشف بورتزيف حقيقة ازيف فى ٥ يناير سنة ١٩٠٩ أثناء اجتماع اللجنة المركزية .
ـ ومن كان بورتزيف ؟

ـ لماذا تريد ان تعرف ذلك ؟ لنقل انه رفيق . ومهما يكن فقد أصدر الحزب حكمه باعدام . افنو .
ـ وكان عليك انت تنفيذ حكم الاعدام ؟
ـ نعم .
ـ معذرة . ولكن نوع الاشياء التى تروينها ليس مالوفا لدى ، فمثلا هناك شيء لا أفهمه . عمل افنو على قتل بلهف ، رئيس المجلس، ولكنه صدر عليه الحكم باعدامه كما لو كان جاسوسا ، والمعروف ان عمله على قتل رئيس مجلس عمل ثوري بعيد عن الجاسوسية ، اليس كذلك ؟.
ـ ذلك انه لم يعمل على قتله لاسباب ثورية وانما لاسباب تناهض الثورة ، او اذا أردت لاتاحة حجة للحكومة بقمع الثورة ، وايجابيا وموضوعيا لعلك انت الذى على حق ، فان افنو اذ عمل على قتل بلهف ، حتى لاسباب خاصة ، فقد ساعد الثورة .
ـ لماذا تقولين أسبابا خاصة ؟
ـ كان افنو يهوديا ، وكان بلهف مسئولا عن مذبحة اليهود فى بساربيا . قام افنو من ناحية بعمل الثورة منتقما لليهود ، ومن ناحية أخرى قتل رئيس المجلس للتحريض والاثارة .
وأسرعت تقول معقبة :
ـ وأنا مقتنعة ان أفنو نفسه عندما كان ينظر الى المرآة لم يكن يعرف هل يرى ثوريا أو واشيا . كان هذا وذاك معا .
ـ لنتكلم قليلا عنك . كنت روسية ثورية . ولكن ماهو الحزب الاشتراكي الثورى ؟
ـ انه أشياء كثيرة . كان حزبا يرى ان الارهاب وسيلة لممارسة السياسة .
ـ اذن لقد كنت ارهابية ؟
ـ نعم . اذا أردت .
لم استطع المطابقة بين الصورتين اللتين كونتهما عنها : سونيا التى تخرج لسانها للحوذى وسونيا الارهابية .. ومع ذلك ، وانا افكر قليلا وبلا تعقيد فلعلها كانت نفس الشخص . وسألتها :
ـ لماذا كنت ارهابية ؟
نظرت الى خلسة ثم قالت ببرود ومن غير تشدق كما لو تكرر شيئا يصدر من شخص آخر :
ـ لاننى كنت أؤمن فى المستقبل بدنيا افضل ، ولم اكن اري

فى روسيا ، على الاقل وسائل مختلفة لخلقها .
ـ وهل كنت تؤمنين حقا بدنيا أفضل ؟
ـ نعم .
ـ وكيف يمكن ان تكون هذه الدنيا أفضل ؟
راحت تتكلم بشيء من الحماس فقالت :
ـ دنيا عادلة .. دنيا حرة .. دنيا جميلة .
ـ عادلة وحرة وجميلة .. لكن كيف تكون هذه الدنيا عادلة وحرة وجميلة واقعيا وماديا .
نظرت الى بشيء من الملل ثم قالت فى صوت حازم وقاطع :
ـ كنا نؤمن بدنيا عادلة وحرة وجميلة ، وهذا كل شيء .
ـ من تعنين ؟
ـ نحن مثاليو البورجوازية .
ـ كنت تعتبرين نفسك بورجوازية اذن ؟
ـ اطلاقا . كنت اعتبر نفسي ثورية . اما الان فاعتقد انني كنت بورجوازية أرادت أن تكون ثورية .
ـ أمازلت تؤمنين بالثورة ؟
ـ أنا الان سكرتيرة السنيور شابيرو .
ـ معنى ذلك أنك اصبحت لا تؤمنين بشيء .
فكرت لحظة ثم قالت ببساطة :
ـ أعتقد انني مت .. نعم ، هو ذلك .
تساءلت عندئذ اذا كان صوتها ينم عن يأس ، واضطررت أن أعترف بالنفي . وقلت :
ـ تقولين ذلك بطريقة غريبة .
ـ وما الذى اقوله بطريقة غريبة ؟
ـ انك مت .. تقولين ذلك كأنك تتكلمين عن شخص آخر .
ـ ولكنني شخص آخر .
ـ من أنت ؟
ـ سونيا المجنونة .
ـ من الذى يدعوك هكذا ؟
ـ الجميع . سل اهل كابرى عنى فيقولون لك انني سونيا المجنونة .
ـ صفوة القول ، ماهو الدافع الحقيقي والواقعي الذى يحملك على القول بانك ميتة ؟

رايتها تفكر . قالت وهي تتخذ سمة الجد :
ـ زوج من الاحذية .
ـ ماذا ؟
ـ زوج من الاحذية الانجليزية او الفرنسية الصنع .
واشعلت سيجارة ثم صاحت :
ـ ما هذه القذارة التي اعطتنيها ماريانينا اليوم !.. هذه السجائر قديمة جدا .
قلت في اصرار :
ـ وما شأن زوج الاحذية التي تتكلمين عنه ؟
ـ اوه ، لكنك تعرف ماحدث . ذلك انني عزفت عن الحياة وكانت بالنسبة لي الحزب لقد مت بسبب ذلك . كما ان الحزب نفسه مات بعد ذلك بقليل .. ولكن كان الوقت قد فات .
ـ علام مات .
ـ اعتقد لكي يعود الحزب الي الحياة .
ـ لنعد الى زوج الاحذية . ما العلاقة بينه وبين الارهاب ؟
لزمت الصمت لحظة ثم استطردت تقول :
ـ كان قد مر على انضمامي الى الحزب شهر ، ولم أكن التقيت بافنو بعد .. بل سمعت كثيرا عنه فحسب .
ـ ماذا كانوا يقولون عنه ؟
ـ انه واحد من أشجع الثوريين ، واشدهم ضراوة ، على استعداد للعمل دائما وعلى أهبة الهجوم دائما .
ـ طبعا ، فقد كان واشيا وعميلا ، من السهل على المحرض أن يكون شجاعا ومتطرفا .
احسست بحالة ذهنية تروح بعيدا مع ماضى سونيا . اجابتني بشيء من الدقة :
ـ كلا . كلا . انك مخطيء . كان واشيا يتقاضى أجره من الاوكرانيا ، كما كان ثوريا أيضا .
ـ كيف يمكن أن يكون ثوريا وواشيا في نفس الوقت ؟
ـ ذلك ممكن . كان افنو في شبابه ثوريا . لو أنك كنت ثوريا ذات يوم فسوف تكون ثوريا للابد حتى اذا كنت خائنا . كان راسبوتين يأثم متعمدا يستفظع الاثم ويتوب عنه . ربما أطاع افنو ميكانيزم مماثل . كان يخون لكى تزداد كراهيته للسلطة التى تدفع له .

لزمت الصمت لحظة ثم اردفت :
ـ كان هناك شيء آخر طبعا .
ـ أي شيء ؟
ـ أخبرتك ان افنو كان دميما ، ذا كرش كبير وساقين قصيرتين، وبشرة صفراء وعينين سوداوين ، ينبعث من شخصيته شيء ضار مسيطر علي بمجرد ان رايته . كان المعتقد انه ذو شهية كبيرة .. شهوة حيوان يمكنه أن يفعل أي شيء وأن يفعل العكس في نفس الوقت . والواقع أنه لم يكن للثورة بقدر تعطشه للحياة ، والثورة ليست الا مظهرا من مظاهرها . واظن انه يمكن القول عنه أن الذى جعله ثوريا وواشيا فى نفس الوقت هي شهوته الضارية للحياة .
سكتت سونيا سكتة قصيرة ثم استطردت :
ـ كان افنو بالطبع رجلا سوقيا ، فظا ، شهوانيا جشعا جديرا بكل الدناءات . فيهمس المرء بان كل ذلك لا يصدر عن ذهنه وانما عن شيء اسفل .. عن بطنه .. عن الارض التى يقف عليها بقدميه . لماذا نعتب عليه اذن ؟.. هل يمكن أن نلوم شجرة بلوط لان جذورها من العمق بحيث لايمكن انتزاعها وانما قطعها فحسب .
ـ لنتكلم قليلا عن سبب غثيانك .
ـ عفوا ؟

ـ اعنى ما الذى أراد الحزب ان تقومي به وانفت ان تنفذيه ؟
ـ بدأ كل شيء فى بطرسبورج أثناء الاعداد لمحاولة اعتداء كان يجب أن أساعد افنو فيها بناء على أمر الحزب ٠ قيل لى أن أذهب الى محل بشارع كفرسكيا لكى اختار زوجا من الاحذية وان أضعه فى صندوق يحمل اسم المحل ، ثم امضى بعد ذلك الى محل «حلوانى» غير بعيد عن المحل الاول حيث يختلف اليه كل يوم احدى شخصيات الاوكرانو الكبيرة لتناول فنجان من الشيكولاتة . كان يجب ان يدخل افنو بعدى بلحظات وفى يده ربطة مماثلة تماما لربطتى . نفس التغليف ونفس اسم المحل ولكنها تحتوى على قنبلة مؤقتة . وكان المتفق أن نجلس عن كثب من الشخصية الكبيرة وان نحتسى شيكولاتة ، وكان على افنو أن يخرج بعد ذلك ومعه الربطة التى بها الحذاء ويترك الربطة التى بها القنبلة فوق القرص الثانى تحت المائدة وان يخفيها بطرف المفرش . وكان يجب أن تنفجر القنبلة بعد ذلك وتهدم المحل وتقتل الشخصية الكبيرة .

ـ لا افهم . اما كان من الاسهل الا تكون هناك غير ربطة واحدة ، وهي التي تحتوى على القنبلة وان يتركها فى محل الحلوى ؟

ـ كلا . لانك سوف تعرف السبب . كان افنو قد سبق وابلغ البوليس بامر القنبلة ، وكان يجب ان يلقوا القبض على ومعى الربطة التي بها القنبلة . ولو انه كانت هناك ربطة واحدة فما كان فى وسع افنو ان يطلب منى البقاء فى المحل بعد انصرافه .

ـ مازلت لا أفهم . لماذا كان يجب أن تغادرا المحل منفصلين ؟

ـ قال لى افنو ان هناك من يتبعه . كانوا يعرفونه فى حين انهم كانوا لا يعرفونني . واذا كان متبوعا والقى القبض عليه لاكتشفوا ان فى ربطته زوجا من الاحذية . اما اذا خرجنا معا وليس معنا شيء فقد كان من السهل ان يكتشفوا الربطة التى تحتوى على القنبلة . والواقع ان الامر كله كان قائما على أن يتبع رجال البوليس اثرا كاذبا ، واعني به اثر افنو . كانت هذه قصة افنو ، ولكن الغرض الحقيقى من ذلك كان القاء القبض على ومعى القنبلة . كان الاعتداء تحريضا ولم اكن بالنسبة لافنو غير فتاة مسكينة يستخدمها دون وازع من ضمير لكي يقدره رؤساؤه فى البوليس باسهامه فى الكشف عن مؤامرة ثورية .

ـ ولكن ألم تشعرى انت ان فى هذه القصة مايريب ؟

ـ كلا . كنت جديدة عديمة الخبرة ، ولم أكن قد ادركت بعد ان الامور المعقدة معقدة حقا تسع مرات من عشر . وانها معقدة حقا لانها مريبة . ثم اننى كنت فخورة جدا بتعاونى مع افنو المشهور . والتقينا فى محل الحلوى كما هو متفق ومع كل منا ربطته الخاصة . كانت المهلة امامنا قصيرة جدا ، وقد قضيتها فى تأمل افنو .

ـ الحب من اول نظرة ؟

ـ نعم . واتذكر انه أخرج سيجارا من جيبه وقطع طرفه وهو يسألنى ان كانت رائحة السيجار تضايقنى . ورائحة السيجار يمكن أن تسبب لى الاغماء لكننى أجبته باننى أحبها كثيرا . واشعل السيجار وقال لى ان الشخصية الكبيرة تجلس على يميننا وان صاحبها يحتسى فنجان الشيكولاتة اليومى . نظرت فرايت رجلا متوسط العمر ذا لحية وشارب ويضع على عينيه نظارة بدون شمبر يعلقها بشريط ، ومعه عصا برمانة فضية وقفاز ثمين . كان يشبه أبى فى شبابه . وهز افنو رماد سيجاره مستخدما أصبعه الصغير . كان يلبس خاتما رخيصا به فص من الحجر كذلك الذى يلبسه تجار

المواشي . الذين كان يشبههم تماما . ثم وضع سيجاره على منفضة واخرج من جيبه ساعة فضية كبيرة ، سألني ان كان معي انا الاخرى ساعة فأجبته بالايجاب وأنا أشير اليها . كانت ساعة صغيرة من الذهب معلقة الى عنقي بسلسلة أهدتنيها أمي بمناسبة بلوغي الثامنة عشرة . قارن افنو بين ساعتينا ووجدهما متفقتين . اشار بسبابته الى الوقت المحدد الذي يجب أن أنصرف فيه وقال : في الدقيقة العشرين تنهضين وتنصرفين وتنضمين الى في بيتي ، وذكر لي عنوانه ثم أخذ ربطة الحذاء وخرج . وضعت ساعتي فوق بطني ، وبدأت انتظر وأتابع صوت عقارب الساعة وهي تدور حول الميناء ، وبقيت الربطة تحت المائدة حيث وضعها أفنو ، يخفيها المفرش عن الانظار . وكان في استطاعتي أن المسها بتحريك ركبتي . واتذكر وانا أتابع العقرب انني كنت اتساءل كم من الرواد ومن العاملين سيلاقون الموت بسبب القنبلة مع رجل الاوكرانو . ودهشت وانا اشعر بانني هادئة ولا اشعر باى ندم ، ولم ادر هل يجب ان اعزو هذا الاستخفاف الى التعصب السياسي او الى غرامي المضنى بافنو . كنت لاازال جالسة مكاني وعيناي محدقتان في ساعتي عندما ألقى أحدهم يده على كتفي وهو يقول :

ـ شرطة .

ـ وماذا فعلت عندئذ ؟

ـ كنت أشبه بالميتة ، أتكلم بكلمات لا معنى لها ، مدركة ان القنبلة سوف تنفجر ، ولا أستطيع قبول الفكرة المتحمسة بانني يجب أن أرضى بالانفجار مع رجال الشرطة ورجل الاوكرانو . وقد يبدو هذا غريبا ، ولكن فكرة الموت وعدم رؤية الرجل الذي أثر في كثيرا أعطياني الرغبة في الحياة ، واعطياني في نفس الوقت دافعا آخر أقلقني . رأيت أن المؤامرة اذا لم تفلح ، فان افنو لن يريد أن ينظر الى وجهي بعد ذلك . ياالهي ! كم من الاشياء تدور في الراس في مثل هذه اللحظة . ولحسن الحظ ، شدني الشرطي من مكاني ، ودس شرطي آخر يده تحت المفرش واخرجها وبها الربطة وسئلت ماذا تضم فقلت زوجا من الاحذية واطبقت عيني . وخيل لي أنني سيغمى على . لم يتبق غير دقيقتين على الانفجار .

ـ وعندئذ ؟

ـ كان لدي الوقت لكي انهض واخرج من محل الحلوى . قد لا تصدقني ، لكنني بقيت مكاني كالمشلولة . وانا افكر « ساموت

مع رجال الشرطة ورجل الاوكرانو ، وسيعرف افنو أننى ضحيت بنفسي فى سبيل القضية ، وسأصبح فى عينيه بطلة ، وسيظل على حبى طوال حياته . وهكذا كنت اريد من لحظة ان أعيش من أجل افنو ، ولكننى الان ، وبنفس الحمية أردت ان أموت فى سبيله . واذا استقرت نيتى على الموت ، اذكر اننى أصبحت هادئة جدا . ونظرت فى غير اكتراث الى الشرطي وهو يفك الربطة ، بل لاحظت أن أظافره قذرة وقلت لنفسي انهم فلاحون أولاد فلاحين ، اذ لم يخطر لهم أن ينظفوا أظفارهم .

ــ معذرة اذا انا قاطعتك . ولكن كيف راح الشرطى يفك الربطة فى هدوء . الم تخفه القنبلة .

ــ لم يكن خائفا لأن افنو كان قد ابلغ البوليس بانه أوقف مفعول القنبلة .

ــ وماذا حدث عندئذ ؟

ــ كنت مستعدة للموت كما سبق وقلت . انتزع الشرطى الورق الذى يغلف العلبة .. ماذا راى ؟.. زوج الاحذية .

ــ لم تكن القنبلة .

ــ كلا . لم تكن القنبلة .

ــ ولكن كيف حدث هذا ؟ اذن فقد اخطأ افنو ، وبدلا من ان يأخذ علبة الاحذية اخذ علبة القنبلة بالطبع .

ــ نعم . هو ذلك . ولكنه لم يخطىء ، وانما تعمد ذلك . قال لى فى ذلك الوقت انه أخطأ .

ــ ولماذا تعمد ذلك ؟

ــ لم يكن افنو قد سبق له ان رآنى قبل ذلك اليوم المشهود . وما أن القى على أول نظرة حتى تملكته رغبة شديدة .. قلت رغبة ولكن من الاوفق أن اقول انه اشتهانى . أراد أن يرانى . وفى رغبته فى امتلاكى أبطل محاولة الاعتداء وأوقف عملية القبض على لكى يمتلكنى على الفور مهما حدث له . وفيما بعد تذكرت انه اثناء الدقائق القليلة التى بقى فيها فى محل الحلوى لم يرفع عينيه عن صدرى . كنا فى الصيف ، وكنت ارتدى بلوزة من الكتان الابيض ، شفافة جدا . ربما راى من خلاله حلمتى ثديى . واظن انه ما ان راى تلك الحلمتين السمراوين حتى نسي القيصرية والثورة والقسم السياسي والمثالية والخيانة . هذا هو السبب الذى اخذ من أجله ربطة القنبلة فى نفس اللحظة التى دخل فيها رجال الشرطة . ولم يستطع هؤلاء

كلما أخفاه دهشتهم وابتعدوا عنى قليلاً وراحوا يتشاورون فيما بينهم وأنا جالسة مكاني أنظر اليهم بسرور أشبه بامرأة متدينة شهدت لتوها معجزة بهرتها .

ـ لحظة اذا سمحت . قال لك افنو فيما بعد انه اخطأ ، واخذ القنبلة بدلا من الحذاء ، وكان يجب ان يذكر لك الحقيقة ، وانه اراد ان ينقذ حياتك بسبب الحب .

ـ لم يشأ على الارجح أن يشوش صورته كثورى • كان يعرف اننى سأحبه اكثر اذا ظهر كثورى متعصب يضع الثورة فوق كل شيء . وبقوله لي انه ينقذني لانه احبني كان يضع الحب فوق الثورة .

ـ وماذا قال للشرطة تبريرا لفشل خطته .

ـ لم اعرف ذلك ابدا ، كان لا يتورع ابدا عن الكذب ، ولا ريب انه سيختلق اي سبب .

ـ تركنا رجال الشرطة وهم يتشاورون فيما بينهم . ماذا فعلوا بعد ذلك ؟

ـ اقتربوا مني واعتذروا ثم انصرفوا . وخرجت بدورى بعد لحظة ، وركبت عربة وذكرت للسائق عنوان افنو .

ـ وكيف جرت الامور بينكما ؟

ـ ابدى لى سروره الصادق ، ولكن لاسباب اخرى خاصة ، واحتوانى بين ذراعيه ودار بى مرتين أو ثلاثا وهو يرقص وسط الصالون رقصة كالفاس . ثم سالنى متصنعا السذاجة : لمن الان هذه الاحذية .

ـ لماذا تقومين متكلفا ؟

ـ رويدك . لقد فتح الصندوق واخرج منه زوج الاحذية .. زوجا رقيقا طبقا للموضة الشائعة فى ذلك الوقت ، يصل حتى ربلة الساق بحلقات معدنية واربطة . نظر افنو اليه فى اعجاب وقال وهو يضحك اننى استحققته ، وانه يهدينى اياه . والبسنيه هو نفسه ، واراد أن يعقد الرباط . وكما يفعل البائع اخذ قدمى ووضعها فوق كرشه ، وخلع جزمتى القديمة البالية الموحلة ، ودفع بيده وهو يفعل بين فخذى حتى بلغ ركبتى . وبدلا من الاحتجاج شعرت بارتباك شديد وكدت ان اختنق ، ادرك فجاة اننى على استعداد لان افعل كل مايريد . وياخذ قدمى فى كف يده ويلاطفنى طويلا . وينطق فى نفس الوقت بكلمات غريبة اتبين من بينها كلمتى « صاحبة العظمة » وهو لقب كان الروس يطلقونه على رؤسائهم فى ذلك الوقت ، وبعد

ذلك تبينت على الفور كلمتي « أيتها الاميرة » وفهمت عندئذ انه يحتدم ويتصور انه عبد وانني اميرة

ـ كنت من عائلة نبيلة .. أليس كذلك ؟

ـ نعم ، من عائلة نبيلة . ولكن نبالة صغيرة ريفية ولم اكن ما حدث بى . ولكنني ضغطت بقدمى العارية بكل قوتى عليه ، وعندئذ قال فى صوت خافت : ناديني بعبدك .. قولى لى اننى عبدك واننى مملوكك .

ـ واذن ؟

ـ اطعته طبعا ، فقد سبق أن قلت لك انني كنت مستعدة لان افعل كل ما يريد ، وناديته بعبد وانا اضغط بقدمي عليه وفجاة دون أن ادرى لماذا تقمصت دورى كاميرة . وانتزعت قدمى من بين يديه ودفعته بها فى صدره بقوة ، فوقع على ظهره ثم اسرع بالنهوض وهجم على .

ـ هل كنت عذراء ؟

ـ نعم .

ـ فقدت بكارتك بهذه الطريقة اذن ؟

ـ كلا . لم افقدها فى ذلك اليوم ، وانما بعد أيام من ذلك ، عندما قرر أفنو أن يعاملنى كامراة .

ـ ماذا تعنين بقولك هذا ؟ ماذا حدث فى ذلك اليوم مع أفنو ؟.

ـ كل شيء ولا شيء . اغتصبنى ، أقصد انه لاطنى . كانت هذه طريقته فى الرد على الضربة التى سددتها له بقدمى فى صدره . تظاهر فى البداية انه العبد الذى يركع أمام سيدته ، ثم غدا نفس العبد الذى يهجم على سيدته لكى يلوكها . نعم . كانت هناك ناحية سياسية فى هذه الحركة . كنت بالنسبة له رمزا ، وكان يجب أن يمتهن هذا الرمز وأن يدنس .

روت لى سونيا قصتها هذه عن علاقتها مع أفنو بدون اى مبالاة . ودهشت للطريقة التى نطقت بها كلمة « لاطنى » ، وهى كلمة حب مقدسة لا ينطق بها الناس الا اذا كان الامر متعلقا بهم ، وفى نفور وتقزز . أما هى فقد نطقتها بدون أى اكتراث نشأ من ممارستها هذا الحب مدة طويلة ونطقتها بلهجة أهالى البلد ، وخيل لى أنه نوع من النفاق اللغوى تخفى سونيا خلفه وجهها الحقيقى ، اذا افترضنا طبعا أن لها وجها . وسألتها بعد صمت قصير :

ـ وبعد ذلك ؟ .. كيف دارت حياتكما الغرامية .

ـ اراد افنو بعد وقت طويل ، حتى بعد ان مارسنا الحب على الوجه الطبيعي ، ان يعيد ما حدث أول يوم ، راكعا وقدمى العارية على بطنه ، وأنا ادفعه عني فيهجم علي . وكنت ارضى بذلك لانني كنت أحبه حقا ، وطبعا لم أكن احس بشيء تقريبا فيما عدا الم بسيط . والواقع أنني كنت أفهم الحب بالطريقة الرومانتيكية . كنت فتاة من أسرة طيبة نشأت مع فكرة حب عظيم يعقبه الزواج طبعا . لكنني تخلصت من كل هذا بانضمامي الى الحزب ، ومع ذلك فقد كنت لا أزال اؤمن به دون أن اعترف لنفسي بذلك . لم يكن افنو رومانتيكيا وانما كان خنزيرا فاجرا ، كنت مفتونة بذلك الخنزير ، ولم أره كما يريد أن أراه .

ـ اي ؟.

ـ كثوري جريء واضح وسيد أعصابه . كانت له كل هذه الصفات ولكنه كان يضعها في خدمة شيء أشد خطرا من الثورة .

ـ اتعنين التجسس ؟

ـ ليس بالذات . بل اقول التحـريض واثارة الفتن . ان الجاسوس يبحث عن الحقيقة اما المحرض فيبنيها .

ـ ولكن ما الذى كان يدعوه الى التحريض واثارة الفتن ؟.

ـ حسب الظاهر كان بحاجة الى نقود . كان يجب أن يعيش في رفاهية ، ولكن لعله كان يشعر على الخصـوص بأنه قوى وانه يستطيع ان يقول :

أنا الذى ادير اللعبة وليس الثوريون أو رجال الشرطة .

ـ لنعد الى حياتك الخاصة ... كيف كنتما معا ؟

ـ كنت اظن اننا رفيقان منتميان الى الحزب واننا متحابان فوق ذلك . ولكن الحقيقة أن علاقاتنـا كانت علاقات بورجوازى وعاهرته .

ـ ولماذا عاهرته ؟

ـ لك ان تحكم بنفسك . كان افنو يغمرنى بهداياه . وكانت هذه طريقته في اظهار حبه لي . كان يحاول افسادى وان يجعلني شبيهة له . واذا لم يستطع أن يخلق منى محرضة حاول في مجاملة لغرورى ان يفعل منى خليلة تعتمد عليه في الحياة .

ـ اى نوع من الهدايا كان يقدمها لك .

ـ كان يقدم لي كل شيء . كان يحب أن يدخل محلا ويشترى لى اى شيء وقعت عليه عيناى ... حذاء أو ثوب او ملابس داخلية أو روائح أو كريم او صابون .

ـ وكيف كان يبرر مشترواته ؟.
ـ كان يذكر لى مجموعة من الاكاذيب . مثال ذلك ان أباه تاجر ميسور فى حين انه كان تاجرا بسيطا لديه محل عادى لتجارة الملابس الجاهزة فى مدينة صغيرة بالضواحى .
ـ ولكن من أين كانت تأتيه النقود ؟
ـ كانت تأتيه من اللجنة المركزية ومن ادارة الشرطة .
ـ وكيف أدركت أن أفنو كان عميلا مثيرا للفتن ؟
ـ ادركت ذلك فى اليوم الذى عرفت فيه اننى حامل .
ـ وكيف ذلك ؟
ـ كنت أشعر بتلك التوعكات التى تحس بها كل من تنتظر مولودا . ومضيت لاستشارة طبيب فقال لى اننى حامل . اسعدنى هذا النبأ طبعا ، فقد كنت احب أفنو ، وحسبت أن الطفل سيدعم حبنا . واخبرته بذلك .
ـ وكيف تقبل الامر ؟
ـ ضمنى بين ذراعيه وراح يغمرنى بقبلاته ، وارغمنى ان ارقص معه تلك الرقصات الجنونية ، واظن انه كان صادقا فقد ملأته فكرة ان يكون له طفل بطعم جديد للحياة ، واراد أن امضى معه الى أحد تجار المجوهرات . أحب أن يحتفل بمولد الطفل باهدائى خاتما .
ـ وماذا فعلت ؟
ـ أنا ؟... تصور . كنت سعيدة وأنا اراه جد سعيد . واقلتنا مركبة الى محل من اشهر محلات المجوهرات فى بطرسبورج، وهو محل من النوع الانجليزى الفخم ، مريح ، تشع من ارجائه الثقة : خزائن ودواليب مبطنة بالقطيفة . واستقبلنا بائع : شاب انيق الملبس متكلف جدا ، قصير القامة ، اسمر البشرة ، بعينين سوداوين كالفحم ، وأنف معقوف ، وفم كبير تخفيه شوارب كثة . شعرت بالرهبة فى ذلك المحل . عندما قال لى أفنو انه يريد ان يقدم لى خاتما هدية لم اكن اتوقع شيئا من ذلك النوع ، وانما فكرت فى محل صغير : بائع عجوز وخاتم رخيص قليل القيمة . طلب افنو أن يرى الخواتم ، واخرج البائع من الفترينة صينية مملوءة بالخواتم العادية ، ولا تسل عن دهشتى حين رفضها أفنو واشار الى خاتم بسيط جدا ولكنه كبير القيمة ... خاتم من الذهب به ياقوتة كبيرة حمراء . بحجم بيضة الحمام تقريبا . واعطاه له البائع وتحول افنو الى واخذ يدى ووضع الخاتم فى أحد اصابعى ، تماما كزوج فى ليلة

عرسه . ولا أدرى ما الذى حدث فى تلك اللحظة . خيل لى اننى ارى رؤيا فيها افنو عار تماما بكرشه وظهره المشعر يضع خاتما فى اصبعى ، وانا ببطنى المنتفخة بالطفل اقبل الخاتم . وخلف المنصة ، كما خلف مذبح ، بدلا من البائع ، كان الشيطان يقف عاريا هو الاخر بقرنى وفخذى خنزير ... الشيطان بنفسه كان يزوجنا الى الابد طبقا لطقوسه وقانونه .

ــ وماذا فعلت عندئذ ؟

ــ نزعت الخاتم من اصبعى على الفور والقيته على المنصة ، وهممت بأن اخرج . ولا ريب ان افنو فهم شيئا لانه اشار لى الى مقعد وهو يقول أن انتظره . واطعته . كانت راسي تدور وشعرت بوعكة كبيرة ، وحاولت ان اعزو ذلك الى حالة الحمل التى أمر بها. ورأيت افنو . كما لو كان غارقا فى ضباب كثيف ، يشترى الخاتم . والقى من اوراق النقد فوق المنصة وهو يعدها ورقة ورقة ، فى رقة وفى صوت مرتفع يخرج من تحت شواربه الكثة . ثم أخذ علبة الخاتم ودسها فى جيبه ، واشار الى ان اتبعه . وأسرع البائع لكى يفتح لنا الباب ، وخرجنا .

ــ وبعد ذلك ؟

ــ قال لى فى الشارع فى صوت خافت : ايتها الغبية ، الم تفهمى ان هذا استثمار . لم افهم شيئا طبعا . ووصلنا الى البيت ودخلنا مسكننا فى صمت . وقال افنو : علينا أن نحزم حقائبنا الان . شعرت بأننى لست فى حالة جيدة ، وسألته عما يدور وأين نمضى . وجلس افنو بجوارى ، على فراشي وقال وهو يداعبني أن لدينا الآن طفلا وقد حان الوقت لكى نتحدث لان مرحلة جديدة من حياتنا سوف تبدأ أريد ان يكون كل شىء واضحا بيننا دون خداع او كذب . وتمتمت غير فاهمة : ولكن عن أى خداع وأى كذب تتكلم ؟ ... رمانى بنظرة ابوية متسامحة وقال : كنت أريد ابقاءك خارج كل هذا ، ولكن لم يكن هذا ممكنا ، فأنت تعملين معى ، وهل كان بامكاني الا اشركك فى أعمالي ونحن عشيقان . ان الجميع يعتقدون الان انك مثلى ، الشرطة تعتقد ذلك ولكن ليس هذا خطيرا فى الوقت الحاضر . ولسوء الحظ فان رفاق اللجنة المركزية يعتقدون ذلك ايضا ، وهؤلاء لا يغفرون . ارتعشت من البرد كما لو سأصاب بالغثيان وسألته فى صوت خافت : قل لى بحق السماء ، ماذا يعتقد الرفاق فى اللجنة ، وأجابنى فى هدوء : انهم يعتقدون انك عميلة للاوكرانو مثلى .

ـ اكان هذا جوابه ؟

ـ نعم . تماما . ولا اذكر ما حدث بعد ذلك . كنت أتمتم واكاد أختنق ، واحسست بأنني أهذي . وعندئذ تملكه الغضب كرجل هادىء يجد نفسه امام مجنونة . وامسكني من ذراعي وراح يهزني في عنف ، بحيث لم استطع ان اتنفس . كان يصرخ وهو يهزني ويقول انه عشيقي ، وانني يجب أن اتضامن معه وأن أتبعه حتى النهاية ، وانني مضطرة ان اتبعه على كل حال . ما دامتاللجنة على يقين أننا عميلان للاوكرانا ، وانه من المحتمل جدا في هذهالساعة ان يكون قد صدر علينا الحكم بالاعدام ، فيجب أن أكف عن حماقتي وان نحزم حقائبنا على الفور لانه ليس هناك من الوقت مانضيعه .

ـ وانت ؟

ـ بقيت جامدة في البداية كشخص لا يفهم . وبعد ذلك سألته اين سنمضي . فأجابني على الفور وقد اسعده ان يسمع شيئا معقولا ان لديه اموالا كثيرة في احد البنوك بسويسرا . واننا لن نفتقر الى وسائل السفر والانتقال لرؤية العالم . سنمضي لزيارة ايطاليا والبندقية وفلورنسا وروما ونابولي وصقلية ونذهب الى مصر حيث الاهرامات واسوان والاقصر والنيل ثم الى اليونان . وتملكه الانفعال وهو يتكلم . واحتد صوته وومضت عيناه بسرور لم اكن اعرفه . نفس السرور الذي يتملكه عندما يهجم على لممارسة الحب . نسي انه خائن محكوم عليه بالموت من رفاقه وراى نفسه يتنقل في العالم مع المرأة التي يحبها . ولكن هذا البرنامج وهذا المستقبل السياسي كان لهما على تأثير سيىء . وعندما تكلم عن البارتنيون ، رايت نفسي امام هذا النسب المشهور ، انظر اليه وأفكر انني عميلة للاوكرانو . وعندئذ أفلتت مني صرخة مدوية ونهضت وانا ادفع كل شيء امامي ، خرجت من الشقة واندفعت في السلم . وفي رغبتي الجنونية في البعد عنه انزلقت ووقعت واغمي على . وعندما عدت الى رشدي رايت انني طريحة فراش البوابة ، وكنت ملوثة بالدم ولا أستطيع ان اتحرك فقد انكسرت ساقي .

ـ وافنو ؟

ـ اختفى . حملني وانا مغمى على الى غرفة البوابة ثم هرب وحده . وترك لي كلمة يقول لي فيها انه سيرسل الى عنوانه الجديد بمجرد أن يستطيع . ونقلت الى مستوصف وأجهضت على الفور تقريبا . ولزمت الفراش اكثر من شهرين ، وعلمت أسرتي بما حدث

لى وجاءت امي الى بطرسبورج ، واقامت عند أخت لها متزوجة بموظف حكومي . كانت تأتينى فى المستوصف كل يوم . وكانت أسرتى قد ارسلتنى الى بطرسبورج للدراسة فى الجامعة حيث سجلت اسمى فعلا فى قسم الفلسفة . وتحسنت ساقي ، ولكنني كنت اتمنى الا ابرأ . كنت مذعورة لمجرد فكرة مغادرة المستوصف واستئناف حياتى التى يقولون انها عادية ، ولم تكن كذلك بالنسبة لي الا فى الظاهر فحسب . بقيت طريحة الفراش وخدى على الوسادة اصغي الى ثرثرة امي وانا أنظر الى السماء من خلال النافذة . لم أكن افكر فى شيء . خيل لي انني اصبحت مهجورة لا من افنو ورفاقه فحسب، وانما مني انا أيضا .

وذات يوم أقبلت لزيارتى فتاة لا اعرفها شخصيا ، كنت أعرف انها من الحزب . تدعى اليزا . شقراء ونحيفة بوجه أبيض مستطيل، وعينين زرقاوين باهتتين ، نظرتها ثابتة وجامدة عن التعبير . كانت من أسرة نبيلة مثلى ، وعلى عكسي انا احتفظت بهيئتها الارستقراطية والمرائية المعروفة عن هذه الطبقة . وادركت على الفور انها قادمة من قبل اللجنة ، ربما لكى تقتلنى . وادهشتني بساطتها المذهلة فى دورها لفتاة من اسرة طيبة تأتى لزيارة صديقة سيئة الحظ . تناولت الشاى معى ومع امى ، وبقيت أكثر من ساعة تحكى لى احمق الاشياء التى يمكن تصورها . واخيرا أحنقتنى كل تلك المجاملات كل الحنق وانفجرت اقول وانا انظر الى امى : ولكن الا تفهمي يا أماه ان لدينا أنا وليزا أشياء هامة وان وجودك يضايقنا . وكانت أمى من تلك النساء اللاتى يخيفهن اقل شيء ، واظن انها جاءت الى الدنيا وهى خائفة ، فاتسعت عيناها ، منزعجة ، ونهضت وحيتنا أنا وليزا وهى تقول انها ستعود فى اليوم التالى ثم خرجت .

وبعد أن انصرفت أمى انتظرت اليزا لحظة دون أن تتكلم ، ثم مضت الى الباب واوصدته بالمفتاح ثم عادت وجلست بجوار فراشي واخبرتنى بقرار اللجنة فى كلمات وجيزة وعادية وبصوت بيروقراطى جميل لكى تكسب لهجتها بلا ريب اللكنة التى لا طابع لها لقاض ينطق بحكم الاعدام . قالت ان اللجنة حكمت على بالموت ، انا وافنو ، ولكنها منحتنى امكانية التكفير عن ذنبى واحتمال عودتى الى الحزب اذا رضيت ان أكون جلادة افنو . وبمعنى آخر ، كان ينبغى ان أقدم الدليل على براءتى او على الاقل اظهار ندمي بقتل افنو . وقامت بدورها وهى تحدق فى بعينيها الواسعتين الشبيهتين بعينى الضبع .

واردفت تقول انها لم تأت لزيارتي لابلاغي بقرار اللجنة فحسب ، وانما لكي تعطيني عنوان افنو ولكي تقدم لي السلاح الذي يجب أن استخدمه . واخرجت من كمها مسدسا وهي تتكلم . ولكن لم يسعفني الوقت لكي انطق ، او لكي آخذ المسدس ، فقد طرق الباب في هذه اللحظة وارتفع صوت الخادمة تطلبه أن نفتح لانها تاتيني بصينية الطعام . واظهرت اليزا موهبتها في لحظة واحدة ، فقد تمالكت نفسها وتظاهرت بالهدوء ومضت ففتحت الباب ، ودخلت الخادمة ومعها صينيتها ووضعتها فوق منضدة صغيرة . وكعادتها كل ليلة ، طفقت ترتب الغرفة . وعندئذ نهضت اليزا ، وانحنت فوقي وعانقتني في رفق قائلة : « سوف اعود ثانية ياعزيزتي . الى اللقاء » وفيما هي تنطق بتلك الكلمات دست المسدس تحت الغطاء ، ثم خرجت . واقتربت الخادمة من الفراش وهي تقول انها سترتبه لانه يبدو مشوشا جدا . ولم أستطع أن ارفض مثل هذا الاهتمام ، ولكنني أسرعت ووضعت المسدس بين فخذي . وأصلحت الخادمة من شأن الاغطية . وكان معدن المسدس باردا وكان يبدو بارزا ، ولكي اخفيه أخرجت يدي الاثنتين ووضعتهما فوقه في شيء من الاحتشام وقد قررت ان اقول لتلك المراة ، اذا كانت قد رات المسدس انني ارهابية ، وانها يجب أن تلزم الصمت والا قتلتها دون رحمة . ولكنها لم تلحظ شيئا ، فرغت من عملها ووضعت الصينية فوق ركبتي وخرجت .

— وماذا حدث بعد ذلك ؟

— تعافيت وغادرت المستوصف . وذهبت انا وامي الى بيتنا الريفي في ضواحي موسكو . وكان ذلك في شهر يونية . وكان الجو حارا . وكان كل شيء في الريف اخضر . وفرغت من نقاهتي ، لم استطع ان افكر في شيء بصورة جدية . احسست كما لو انني كنت غائبة عن نفسي . وكنت أعرف ان حالة البلادة سوف تنتهي قريبا ، فان المسدس الذي أخفيته بين ثيابي الداخلية ، في أحد ادراج غرفتي كان موجودا لكي يذكرني انني سوف أواجه المشكلة عن قريب . كانت اليزا قد أمهلتني شهرا لتنفيذ حكم الاعدام على أفنو . ومر خمسة عشر يوما . وذهبت انا وامي وبعض افراد الاسرة للقيام بنزهة في الخلاء . كنا ننوي المضي الى مرجة خضراء خلال غابة من اشجار السندر ، وان نفرش مفرشا فوق العشب ونجلس لتناول الطعام . وبينما كنا نتقدم في احدى الطرقات وقع

حادث يتكرر كثيرا فى مثل تلك الاماكن . كانت هناك حية متكومة حول نفسها ، تتدفأ تحت أشعة الشمس ، وذعرت لقدومنا وحاولت الهرب ، وكنت الوحيدة التى احمل عصا ، استخدمها لتعاوننى فى التخلص من التعب الذى سببه كسر ساقى . رأيت الحية ، وكانت لا تزال مذهولة من وهج الشمس وحاولت ان تتسلل خارج الطرقة ولكننى انقضضت عليها رافعة عصاى ، وقتلتها ببضع ضربات محكمة. ولما تحاول ان تدافع عن نفسها ، بل لعلها لم تفهم من اين يأتيها الضرب . وتكورت فى بادىء الامر كما لو انها أرادت ان تختفى فى بطن أم خيالية ، فضربتها من جديد . وحينئذ تمددت وهى تلفظ انفاسها الاخيرة ، وبقيت مكانها جامدة بلا جدال وقد تلوثت بالدم الممزوج بالتراب . أدرتها بطرف العصا فلم تتحرك . كانت قد ماتت حقا . لم أفكر فيها فى ذلك اليوم ، ولكن عادت الى ذكرى موتها فى الليلة التالية . وكان ذلك التبكيت من القوة بحيث جافانى النوم . كنت اخاف ان احلم بتلك الحية ، ولم اشأ أن أراها حتى فى الحلم. وبقيت مدة طويلة جالسة على مقعد بجوار فراشى الذى لم المسه فى الظلام . ولما كنت لا أريد التفكير فى تلك الحية فقد قررت أن اشغل ذهنى فى التفكير فى أفنو وفى المعضلة الرهيبة ، وهى قتله والعودة الى الحزب أو الهرب معه للانضمام الى البوليسى نهائيا . كان ذلك فظيعا ولكننى ادركت أن هذه لم تكن المعضلة الحقيقية ، وان المعضلة هى : هل مسموح لى أن اقتل أم لا . اخيرا تمددت فوق الفراش . كنت مرهقة . وبعد سهر كل تلك الساعات ظننت اننى سأنام . تصورت أن ذكرى موت الحية قد طردتها المشكلة الكبرى التى سببتها لى علاقاتى بافنو . لكننى كنت مخطئة ، فلم تمر الأمور كما تصورت . فما أن أنام حتى تظهر الحية فى الحلم وتحاول ان تهرب وأنا اجرى خلفها رافعة عصاى ، وأصحو وأنا أتصبب عرقا . كان الوقت نهارا . لن أمضى لرؤية افنو ، لا لكى اقتله ولا لكى اهرب معه . سأختفى بكل بساطة ، ليس من حياة افنو فحسب ، وانما من رفاق الحزب كذلك ، ومن حياتى انا بالذات ... فى مقدور الانسان ان يختفى من حياته هو بالذات . وقد اختفيت انا منها .

ــ معذرة ، ولكن لدى سؤال آخر ... سؤال واحد . هل كان رجال اللجنة يعرفون انك كنت عشيقة افنو ؟

ــ كانوا يعرفون ذلك طبعا ، ولكنهم لم يعلقوا عليه اية اهمية ، فان الثورى لا زوجة له ولا زوج ولا عشيقة ولا اب ولا ام ولا أهل . ليس له الا الحزب . ومن ناحية اخرى ، اظن انهم كانوا يعتمدون على

لقائي باقنو لكي يختبروا ايماني بالثورة نهائيا . والخلاصة انهم كانوا يطيعون منطق الثورة ، وهو منطق صلب هو الاخر كمنطق البورجوازية ولكنني لم أعد أريد الاذعان لاى منطق . كنت قد رايت العالم منقسما بين الثورة وبين البورجوازية . فمن ناحية هناك البورجوازية والثورة ، ومن ناحية أخرى أوجد أنا وكل الناس الذين مثلى .

ــ وماذا فعلت عندئذ ؟

ــ رويت حقيقة كل ماحدث لى فى الصباح لامى . تلك المرأة الخائفة دائما ، اتضح انها على طاقة مذهلة فقد كتبت خطابا لاسرة روسية تعيش فى نيس ، واعطتنى مبلغا من المال وساعدتنى فى حزم حقيبتى ، ورافقتنى فى نفس اليوم الى القطار المنطلق الى فيينا . وفى القطار قالت انها تحبذ كل مافعلت وانها فخورة بى . كلمات ما كانت الا لتملأنى سرورا لو صدرت من جماعة أحبذها أنا نفسى . عبرت الحدود فى تلك الليلة . وفى الليلة التالية كنت فى نيس ، مع تلك الاسرة ، كضيفة مؤقتة فى انتظار الحصول على عمل .

ــ وأى عمل حصلت عليه ؟

ــ أخبرتك بذلك . مربية أطفال . فقد دربتنى أسرة انجليزية كانت تقضى الشتاء فى الريفيرا ، لهذه المهنة . وبعد سنة التحقت كمربية لدى أسرة المانية ، ثم لدى أسرة انجليزية بعد ذلك ، وهكذا دواليك . ففى ذلك الوقت كانت العائلات الاوروبية الغنية تستعين بالمربيات لتربية أولادها . وكانت المربية تدرس اللغات للاطفال وتصطحبهم للنزهة بينما كانت الامهات تختلف الى المجتمعات ، ويتصادف ان تشارك الزوج فراشه فى غياب الزوجة . وكانت لدى مؤهلات طيبة ، أجيد الانجليزية والالمانية والفرنسية والروسية . ولم اكن ارى اية صعوبة اذا ما أراد الزوج أن انتقل الى فراشه . واشتغلت بهذه المهنة من سنة ١٩١٩ حتى سنة ١٩٢٢ .

ــ ولماذا حتى سنة ١٩٢٢ . أهى السنة التى التقيت فيها بشابيرو ؟

ــ نعم . التقيت به فى تلك السنة على الريفيرا ، وهو الذى عرض على الاشراف على فيللته فى انا كابرى . وقبلت . وسافرت الى كابرى ، ولم اغادرها منذ ذلك الوقت ولا حتى لكى أمضى الى نابولى . وهذا كل شىء .

ــ وأى نوع من الرجال هذا الشابيرو ؟

وعندئذ حدث شىء غريب وغير متوقع . فما القيت سؤالى

حتي نظرت الى النافذة كما لو لكي تفكر ثم قالت فجاة وهي تستعيد لكنة اهالى كابرى :

ـ سله أنت نفسك .

وكانت تولينى ظهرها فقلت فى اصرار :

ـ بينك انت وشابيرو علاقات يمكن بالتأكيد ان تفسر الكثير من الامور . ثم كيف استطيع أن أسأله وانا لا اعرفه ؟

ـ سوف يصل غدا .

ـ ولكن ماذا بك ؟

لم أستطع الان تجاهل هذا المظهر الذى توليني اياه . وللاسف بكل دلال ، ولم تتحرك كما توقعت ، وانما قالت بكل بساطة دون أن تفارق النافذة بعينيها :

ـ اعطنى يدك .

مددت لها يدى ، فوق الفراش ، تماما فى نفس المكان الذى تضع يدها فيه . اخذتها وادارتها من ناحية الكف ، وادنتها من فمها . أحسست بشفتيها تنقضان على كفي ثم تنزلقان حتى اصابعى وبلسانها يندس بين أصبعين من أصابعى . أدركت عندئذ اننى أشعر برغبة عن تلك التي اوحت الى بها منذ قليل ، وهى تسبقنى على سلم الحديقة . كنت قد فكرت عندئذ فى استغلالها مع اننى لم اكن اعرفها ولم أكن اعرف عنها شيئا لكى استمد من قوتها عونا لقبول فكرة الانتحار المزدوج . أما الان وقد عرفتها أحسن واعرف عنها الكثير فان رغبتى تغيرت تماما ، وارادتنى أن أمارس الحب مع امرأة عجوز شبقة .

كانت طريقة للتهرب طبعا من منطقية اليأس ، لكنها لم تكن تدفعنى بالتأكيد الى ترسيخه والى تطبيع الحياة به . ولم تعد سونيا وسيلة لتخليصى من نشاط خطر وانما اصبحت بالذات الشخص الذى وصفته لى وهي تروى لى قصة حياتها . رأيت نفسى امارس الحب معها فى أزقة كابرى ، وعشيق سونيا فى المتحف تحت عيني شابيرو الغامض ، عشيق سونيا ، بعد أن كانت عشيقة لعديد من الخدم والسائقين والبحارة . احساس بالنفور ممزوج بقوة لا ادريها جعلنى ارتجف ، فانتزعت يدى من اللسان الذى يلعقها ، ونهضت لكى اسرع بالخروج من الغرفة . واسعفنى الوقت لكى ارى سونيا ، ولعلها اعتادت على ذلك ، وقد بقيت جالسة فى فراشها منحنية نحو النافذة . وخرجت من المتحف ركضا عبر الطرقات والممرات التى سبق أن اجتزناها . وبعد بضع دقائق كنت قد عدت للبنسيون .

واذ بلغت غرفتي ارتميت فوق الفراش واطفأت النور . ولم أدر كم من الوقت انتظرت . اردت أن أعرف كم الساعة ولكنني لم أشأ أن أضيء المصباح ، فقد راق لي الظلام وافزعني النور . ظننت ان بيت قد تدخل مابين لحظة واخرى ، ولكنني لم أستطع تحديد تلك اللحظة ، وانتهيت بأن غلبني النوم ، ورأيت التالي في المنام .

رأيت انني في مدينة غريبة ، بعيدة جداً ، لعلها نيويورك ، ولم اكن قد ذهبت اليها أبداً . ولعلها برلين ، وكنت قد قضيت فيها مدة طويلة . كنت اقيم في فندق فاخر . وفي اللحظة التي بدأ فيها الحلم وجدت نفسي في صالون فسيح افترضت انه بهو الفندق . ثريات ضخمة تتدلى من السقف ، ومقاعد وارائك واناس جالسون ، وآخرون يروحون ويغدون . واشعر بقلق خفيف . ولاسباب لا أستطيع تفسيرها ، بقيت في تلك المدينة أكثر من الوقت المتوقع ، اي الى أبعد امكانياتي المالية . ووجدت نفسي خالي الوفاض ، ولابد لي من سداد فاتورة الفندق ودفع ثمن تذكرة الباخرة الى نابولي أو ربما القطار الى برلين أو الى روما .

قدمت لي الفاتورة وانا جالس في مقعدي . فحصتها ، ورأيت انه يتعذر علي سدادها . والاحساس الذي أشعر به ازاء هــــذه الفكرة احساس دهشة اكثر منه خوف : كيف تصرفت بهذا الطيش الصبياني ؟ منذ خمسة عشر يوما كانت معي نقود كثيرة تكفي لسداد الفاتورة وثمن التذكرة . فكيف لم أفكر في ذلك وقتئذ . ثم ان الامر الاكثر غرابة انني طوال الخمسة عشر يوما الماضية لم يكن لدي ما افعل بالذات ، وانما بقيت بدافع الكسل فحسب . احساس بالذنب امتزج كما قلت بالدهشة فلم أكن أعرف انني بهذا الطيش . وفي الانتظار ، كان لابد لي من حل مشكلة فاتورة الفندق . قلت لنفسي انني يجب ان أفعل شيئا للحصول على مهلة ، أو بغباء أكثر ، على تخفيض المبلغ . قمت من مقعدي واجتزت البهو . ومضيت الى الاستقبال . ودون ان ارفع عيني اخرجت الفاتورة وقلت في صوت خافت أنني لا أستطيع سدادها حاليا ، وانني سأسددها بالتأكيد ، ولكن ليس على الفور ، وانه يجب امهالي بعض الوقت لكي أجمع المبلغ . ولدهشتي الكبيرة سمعت صوتا غريبا لامرأة يرد بهذه العبارة الشديدة الغرابة : كان كلايست يسدد حسابه كله مرة واحدة . والغريب انني سمعت نفسي أقول : ولكن وقت كلايست كان يختلف . وفي نفس اللحظة رفعت عيني فرأيت بيت تقف خلف مكتب الاستقبال ، مرتدية زيا عسكريا

وتقول لى فى قسوة : هل انت مستعد للسداد فورا اذن ؟.. نعم ، ام لا ؟.. وارد اننى ليس معى نقود ، وتصر قائلة : هل انت واثق ؟.. واومىء برأسى أن نعم . أرد اننى على يقين تماما مما أقول وتستطرد بيت : حسنا . ولكن فى الانتظار الا يبدو لك اذن ان من الافضل ان تنتقل الى فندق آخر ؟ ان اسعار هذا الفندق مرتفعة جدا بالنسبة لك . هاك عنوان فندق يمكنك ان تدفع فيه أقل بكثير . واسرعت بكتابة بضع كلمات فى قصاصة من الورق ثم ضغطت على جرس فأقبل خادم ونقل حقيبتى على عربة صغيرة ، وتبعته خارج الفندق .

تفسير مفاجىء للجو . ادخل غرفتى بالفندق الجديد . غرفة عارية رمادية فقيرة . ومن اراها جالسة فى مقعد رمادى بجوار النافذة ؟ بيت ، مرتدية ثياب الرجال ، احدى ساقيها فوق احد المساند ، وقميصها مفتوح ، وارى صدرها . وهيئتها أكثر بساطة ومودة . واهتف : الوقت مبكر لكى ادفع . ألم يمنحونى مهلة . ولا ترد بيت ، انما تكتفى ان ترينى شيئا فوق المنضدة . منبه حديث جدا يميناه من الكريستال الشفاف ، تظهر من تحته كل آلية المنبه . واتحقق عندئذ اننى لا ارى من خلال الكريستال التروس الصغيرة العارية وانما المثلث الاشقر لعانة بيت . وأعتقد أن بيت واقفة خلف المنبه وبطنها ملتصقة بالزجاج . ولكن كيف تدور العقارب اذن ؟ ان الامر بسيط جدا . فهى مثبتة ببطنها وامعاؤها هى التى تديرها . واسمع صوتا يقول بهدوء اننى يجب أن أدفع عند الظهر . ويشير عقرب الدقائق الى الساعة الثانية عشرة الا دقيقة واحدة ، ويدور بسرعة مثيرة للقلق . وانكر من جديد انه ليست معى نقود وانه يتعذر على أن أدفع . واقترب من المنبه واحاول ان أفتحه لاعيد العقرب الى الوراء ، او كى اؤخر الدوران السريع بضع ساعات . واسمع عندئذ طرقا على الباب واقول لنفسى ان الطارق هى بيت ، ليست بيت التى فى الحلم وانما تلك التى وعدت أن تزورنى الليلة . واخلط بين الحلم واليقظة ، واشعر بالارتياح واقول لنفسى اننى سأستطيع التفاهم معها وان اطلب منها تخفيضا . بل سأتدبر امرى معها حتى لا ادفع شيئا على الاطلاق . واصحو فجأة مذعورا . فى الظلام التام . والباب الذى تركته مقفلا تقريبا ينفتح فى بطء شديد على الظلمات . وما تمنيته طوال حياتى حدث أخيرا ، فبيت ، أشبه بملاك الموت تدخل ، لا أراها لكننى أعرف انها موجودة . وفى بضع ثوان ، وبينما الباب ينفتح دون أن يصدر فيه صوت ودون ان ينبعث أى نور ، رأيت كل حياتى ، كما يرى المرء من فوق برج عال منظرا يمتد حتى

الافق . وقلت لنفسى وانا فى وضوح تام أنه لم يعد لدى اى سبب ان أعيش ، واننى مستعد لان تأخذنى بيت من يدى لكى أجتاز معها تلك العتبة الاخرى التى ينتظرنا فيها الخلود كما تقول قصـــيدة نيتشه . وانفتح الباب تماما واحسست فى جوف الظلام بوجود بيت. كانت تتقدم فى صمت نحو فراشى وتمتمت : بيت . وصحوت . ولكننى صحوت هذه المرة حقا .

كان الوقت نهارا . تحققت من نظرة واحدة ان باب غرفتى بقى مواربا كما تركته مساء أمس . لم تأت بيت . لم يكن ذلك الا حلما . رأيت فى المنام اننى أحلم واننى صحوت واننى أحلم من جديد . ثم كان وميض ، وشىء أو شخص هزنى او نادانى لكى استيقظ . ووثبت وثبة واحدة جريت نحو النافذة .

وفى الفجر الوليد ارتسمت الحديقة على بياض السماء ، وبدت الاشجار الجامدة كأنها مضناة من التعب ومثقلة ببقايا الليل المعلقة فى اغصانها . واذا بجماعة تخرج من باب الفندق ، فى مقدمتها الحمال يحمل بعض الحقائب ، وخلفه زوج بيت فى بدلته الكتانية المجعدة ، واخيرا بيت ، وقبعة كبيرة من القش تخفى وجههـا ، مرتدية بلوزة خضراء وجونلة ذات زهور ، متنكرة فى زى فلاحات التيرول .

اجتازوا جميعا ، الطرقة ، أمام البنسيون ، قبل أن يختفوا فى الشارع . واغلقت النافذة ونضوت عنى ثيابى ، واستلقيت فوق الفراش . وأخذت ثلاثة أقراص من منوم قوى المفعول كنت احتفظ به فى حالة القلق . وغلبنى النوم على الفور تقريبا .

نمت نوما خفيفا شفافا باحساس الارمل الذى فقد زوجته بالامس ، ويتبين فى نومه وهو يكاد لا يصدق غياب الزوجة المحبوبة كلما بسط يده بجواره وبدلا من أن يجد الجسد الدافىء الذى ينبض بالحياة لا يجد غير الفراغ تحت الغطاء البارد . لم تكن بيت زوجتى ، ولم تكن قد ماتت ، ولم أرقد بجوارها ، ومع ذلك ، احسست ، فى ذلك النوم الخفيف والمضطرب والمنزعج بضميرى ، انها برحيلها .. ماذا أقول ، كانها شطرتنى الى نصفين ، متيحة بذلك الصيغة الشرعية المستخدمة بين بعض الناس حين يشيرون بكلمة « النصف » الى زوجاتهم . وبعد محاولة عقيمة لاطالة النوم صحوت نهائيا . كانت بيت قد رحلت وتركتنى وحدى بعد ان كنا زوجين مثاليين لبضعة أيام .. زوجين متحابين تربطهما نفس الصلات الغامضة والمحتومة التى ربطت كلايست بهنريت .. زوجين انفكت رابطتهما الى الابد . ووقعت فى وحدتى اليائسة بعد أن عرفت ، لوقت قليل ، اليأس الذى يعيشه شخصان . وفكرت اننى أستطيع الرجوع الى مشروعى . وكيف يمكن أن أعيش بعد أن فقدت بيت التى اعطت لحياتى معنى وهدفا ، ماكان ليهمنى فى كثير اذا كان ذلك المعنى وذلك الهدف هما الانتحار ، فان مشروع الموت بدا لى أفضل من عدمه .

وثمة شىء آخر ، فخارج تواطؤنا الانتحارى ، افتقدت ، مع اختفاء بيت ، الاحساس باننى أحب واننى محبوب لاول مرة فى حياتى ، ولاسباب لايجب ان اذكرها حقا ، مناقضة للماديات ، ولنقل اذا اسبابا روحية . اتذكر انه خلال الايام القليلة التى دامت فيها علاقاتنا الغرامية الغريبة لم يتخللها ابدا قبلة أو مداعبة أو حتى ملامسة ذراع ، وانما نظرات فحسب ، نظرات لم يتولد عنها سوى احساس أبعد مايكون عن الحب الطبيعى ، لانه لم يستند ، كما اكتشفت اخيرا ، الا على تجانس طباعنا وآرائنا ومصيرنا . وكما يحدث ذلك عادة ، عندما تكون المشاعر حقيقية فان الامر يتعلق بأمور مبهمة وغامضة .

تمنيت فى البداية ، ثم خشيت ، تمنيت من جديد ثم خشيت مرة اخرى ، ثم تمنيت وخشيت وهكذا دواليك . ان أحب تلك المرأة

التى لم أكن أعرفها والتى لم أعرف شيئا عنها . والتى لم اتبادل معها غير النظرات . ادركت جيدا أن كلمة روحية هى من الكلمات التى لايجب استخدامها الا بحرص ، لكن كيف اسمى بعد ذلك علاقة كان هدفها تدمير جسدينا ، وبمعنى آخر ، تدمير كل لذة طبيعية فى الحب .

رحت افكر مسترخيا فوق فراشى فأقول لنفسى انه لابد من النهوض رغم التقزز الشديد الذى تثيره هذه الفكرة . كنت أعرف أن قيامى معناه مجابهة يأسى البسيط ولأقل يأسى قبل ان اعرف بيت ، والذى لم يكن يطمع الا فى ان يتمدد فى حياتى اليومية ككاسر يتمدد فى العشب العالى للغابة . كنت أفكر انه طالما بقيت راقدا فقد أستطيع التأمل فى تهربات مختلفة اهمها الحلم ، بمجرد مغادرتى الفراش كان على أن اتصرف ، وان اهبط مثلاً الى غرفة الطعـــام لتناول افطارى . رغم معرفتى ان الوحش سوف يستيقظ حتمـا وينقض على .

كان لابد للحياة من أن تسير . نظرت الى المنبه ، فوق المائدة الصغيرة بجوار الفراش وقلت لنفسى أننى سأنهض فى تمام الثانية عشرة . وكانت الساعة الحادية عشرة والنصف . بدت لى نصف ساعة كافية لكى تستقر منى النية . واقبل الظهر دون أن أتحرك . وفى الثانية عشرة والدقيقة العشرين ، وبدون أى سبب تقريبا ، وضعت قدمى أوتوماتيكيا على الارض . وبعد قليل كنت فى موقف الاوتوبيس الذى ينطلق الى البيكولا مارينا .

هكذا بدأ يومى الاول بعد بيت . وما كدت أصل الى البيكولا مارينا حتى تصرفت كما يتصرف كل الناس الذين يمضون الى البلاج . ولم افعل ذلك بلذة فحسب وانما بغبطة وسرور . اكتشفت عندئذ منظرا آخر لليأس . اليأس هو الا اكون يائسا .

فى اللحظة التى وثبت فيها من فوق صخرة ساخنة الى اخرى فى طريقى الى المنط اندفع رجل ، يقطر ماء وشعره مبتل ، عنـــد ساقى تقريبا والقى على السؤال التالى : كيف الماء اليوم . دهشت وانا أقول له « رائع » . لم يسعنى الا ان افكر بشىء من المرارة فى كل هذا وانا واقف فوق المنط ، انظر الى الماء ، يتألق ويتموج حول الصخور ، أسفلى بثلاثة او اربعة أمتار .

كنت اقوم بمقايضة غريبة . استبدل الفراغ الذى يســتخدم للوثوب من فوقه للانتحار بالفراغ الذى يستخدم للهو واللذة والقفز للسباحة . لماذا لا اعترف بذلك . كنت سعيدا جدا آنذاك .

تناولت طعام الغداء فى مطعم الشاطىء ، وهو طعام قليل بلا طعم، أحسست ، وأنا مشـــغول بتأمل بحر بداية الاصـيل ، متالق ومتموج بالريح التى تطلق ألف قطرة صغيرة من الزبد الابيض ، بلحظة من الراحة أعترف بانني خجلت منها . فقد كنت جالسا الى مائدتى ، بلباس البحر وصدرى عار ، سعيد بالاحساس الذى يمنحه مزيج الملح والشمس . عندئذ راح ذهنى ، وقد تحرر من كل الهموم ، يتخيل قصصا قصيرة لا أهمية لها ، من هذا النوع : أنا على يقين انه هنا ، بجوار هذه الصخرة ، رست ، منذ عشرين قرنا ، الســـفينة التى جاءت بالامبراطور تيبريوس الى كابرى . لكن كيف يسمون القرن الذى اعيش فيه اليوم . هل مر الوقت بعد تيبريوس أم تجمد ؟

ذهبت بعد الغداء ، واستلقيت فوق مقعد مستطيل ، راسى فى الظل وجسمى تحت أشعة الشمس كى اتصفح خطابات كلايست كيفما يتفق ، لعلى أجد فيها تفسيرا لرحيل بيت المفاجىء . وكنت قد أتيت معى بنفس الكتاب . وهاك ما قرات .

« ليس هناك ما هو أشد نفورا من الخوف من الموت ، فالحياة هى الخير الوحيد الذى لا قيمة له ، الا اذا لم نعلق عليها غير قليل من الاهمية ولم نقدرها . ولمن البشاعة الا تعرف كيف تفارقها لاغراض نبيلة ولا يمكن ان يستغلها الا ذلك الذى يشعر انه جدير بأن يتخلص منها بسهولة وهدوء . وذلك الذى يفرط فى حبهـا انما هو ميت أخلاقيا ، لان قوته الحيوية الفائقة ، تلك القـوة التى تسـمح له بالتضحية بحياته ، تفسدها فى الوقت الذى يهتم هو بتنميتها ، ولكن ما أشد غموض الارادة التى تسيرنا ، فالحياة شىء يتعذر علينا فهمه ، شىء نملكه ولا نستطيع له دفعا ، ولا ندرى لماذا ترغمنا قوانين الطبيعة على حبها .

« يجب أن نضطرب أمام نهاية أقل قسوة مما تكون عليه غالبا حياة انسان ، بينما يشكو من الهبة الحزينة للحياة ، لابد له من صيانتها بالاكل والشرب والحرص الا تنطفىء أبدا الشعلة التى تضيئها وتدفئها .

ثم ان الحياة ليس فيها شىء سام حقا ما لم نستطع التخلص منها فى حركة سامية .

تابعت قراءتى وانا اتوقف هنا وهناك . وبعد أن ألقيت بالكتاب جانبا رحت فى حالة تأمل عميق ، قلت لنفسى : وكما ان هنـــاك أسبابا خاصة للانتحار فهناك ايضا اسباب عامة . والاسباب عندى أنا وعند كلايست متشابهة ومختلفة فى نفس الوقت ، فهى متشابهة

لان كلايست وجد فى ظروف الحياة فى المانيا فى عصر التفسير المنطقى، وان كان جنسيا ، لكى ينتزع حياته طواعية . فى حين اننى اعيش فى ظروف ايطاليا فى الوقت الذى اتحدث عنه ، وهى مختلفة لاننا لا نخمن فى كل خطابات كلايست المرارة الهادئة لاحباط نهائى وانما بالحرى الفضب من صبر طويل نافذ . لم يشأ كلايست أن يعيش لانه لم يعد لديه الامل فى اى شىء ، لا بالنسبة اليه فحسب وانما بالنسبة لوطنه . ومع ذلك فانه لم يستبعد ان يعود الامل يوما ما بعد موته . وكان انتحاره اذن انتحار صبر نافد . أما انا فلم احتمل الدنيا التى شاء لى القدر أن أولد فيها ، ولم أخدع نفسى أبدا بأية دنيا أخرى ، ولا حتى بدنيا افضل . لم يرق لى أن أعيش فى ظل النظام الفاشى ، ولكننى ما كنت أريد ايضا ان اعيش فى اى عهد آخر مستقبلا لاننى على تمام اليقين ، أن الامل فى دنيا افضل لا يمكن الا ان يكون كذبة او خدعة .

من الغريب اننى اذ بلغت هذه النقطة من افكارى ، اكتشفت ان اليأس المتفائل لكلايست يؤدى الى الانتحار مباشرة ، فى حين ان يأسى المتشائم يتيح لى التطبع به وترسيخه . قادتنى بيت الى عتبة الانتحار . لكنها أفلحت ايضا ان تحملنى على تمنى الموت لانها جنت من حبى لها بالذات الطاقة الحيوية الضرورية لكى تدمر نفسها بنفسها . وفى غياب بيت لم تعد حيويتى تتحمس للحب . ولم استطع الا الرجوع الى مشروعى الاول وهو مشروع معقول لترسيخ اليأس . ومن ناحية اخرى . هل كان جنون كلايست ممكنا بدون الحب الذى يكنه لهنرييت ؟ أقصد بدون الافراط فى تلك الحيوية المستمدة من حبه والتى تتيح ، طبقا لكلمات المؤلف نفسه ان يتخلص من الحياة بسهولة وهدوء . وهكذا ادركت شيئا فشيئا ان انتحارى ، اذا عزمت عليه حقا ، لا يمكن ان يكون بأية طريقة الا انتحارا مزدوجا .

رأيت فجأة أن الوقت كان يمر وأنا افكر . لم تعد الشمس تقع على راسى مباشرة ، امتد على البحر ضوء غير مباشر اكثر اعتدالا. كان لابد ان ارتدى ثيابى وأن اعود الى اناكابرى ، اجد ما يشغلنى بقية اليوم . كان للعمل جانب مهم فى خطتى للترسيخ . وكان امامى ثلاث أو أربع ساعات قبل العشاء . سأعاود ترجمة ميخائيل كوهلهاس ، أو ربما أحاول مواجهة صيغة الانتحار فى روايتى ، مادمت قد عدلت انا نفسى عنه سأقوم بعد العشاء بنزهة ليلية ثم أمضى بعد ذلك كى انام . ستستمر الحياة حتى بعد اختفاء بيت ، وستستمر بالذات لان بيت اختفت .

وفى رائحة الخشب الحلوة الممزوجة بالملح والسائدة فى المقصورة ارتديت ثيابى على عجل وانا افكر من جديد فى بيت ، كأنها شيء لا يزال مستمرا . لماذا لم تأت بيت الليلة الماضية الى الموعد الذى ضربته لى لماذا لم تخطرنى انها لن تأتى . واخيرا ، وعلى الخصوص لماذا تركت مع السنيور جالامين مجموعة خطابات كلايست ، مشيرة بعنـاية الى الخطاب الاخير لهنرييت فوجل ما دامت هى التى قررت الرحيل الا نراها بعد ذلك أبدا .

بعد لحظات فى الاوتوبيس العائد بى الى كابرى ، ظننت اننى عرفت الرد على هذه التساؤلات ، وهو أننى ، اذا كنت بحاجة الى بيت فليس هناك أى داع للتهويل والاستناد على المزعوم بأننى ارمل ، فأتخلى عن البحث عنها ، وهو تخل يمكن أن يخفى خوفى من الانتحار المزدوج ، فان بيت لم تمت ولم تختف ، وانما عادت الى بلدها فحسب. أما أنا فعلى ان اقوم بشيئين ، كل منهما مرتبط بالاخر . اولهما ان احاول فهم ما ارادت ان تقوله بتصرفها المناقض ، أعنى بعدم مجيئها فى موعدها وتركها لكتاب كلايست ، مشيرة الى الخطاب الذى تعلن فيه هنرييت فوجل عن موتهـا ، والثانى ان أتاكد أن بيت ارادت ان افهم أن علاقاتنا يجب ان تستمر حتى أجد الوسيلة للحاق بها فى المانيا او فى أى مكان آخر . وطرحت عنى المسألة الاولى ، واعنى بها المعنى المراد من مجموعة خطابات كلايست ، فقد كان من الواضح ، كل الوضوح ، أن بيت تستمر بجرأة فى اتباع نفس الخط ، دلال وشذوذ مأتمى . كان من الواضح أيضا ، أننى لم اشأ التخلى عن تأثيرها على ، وان الموعد الذى لم يتم يجب اعتباره كعمل من الاعمال التى تقوم بها كى تجرنى نحوهدفها النهائى ، أعنى الانتحار المزدوج . واذ رأيت الامر من هذه الوجهة فان خطاب هنرييت فوجل لم يكن له غير معنى واحد وهو : لم ينته شيء بيننا ، يجب أن يرى احدنا الاخر. اننى لم اعدل عن الانتحار ، وانما أجلته الى ما بعد فحسب .

ويجب أن اعترف اننى وأنا أفكر فى هذه التوقعات سرت فىبدنى قشعريرة كاستشعار جنائزى . احسست انه ليست بى اية رغبة فى مقاومة بيت ورفض الموت معها لانجاز الخطة الحكيمة والرائعة لترسيخ اليأس .

خطة حكيمة متقنة تمام الاتقان .

بقيت أمامى الان مسألة اكتشاف المكان الذى توجد فيه بيت حاليا . أدركت الان اننا فى رسائلنا العديدة المتبـادلة المستندة الى كتابى نيتشه وكلايست نسينا اكثر الاشياء اهميـة ، وهو تبـادل

عنوانينا ، لعل هذا النسيان لم يأت صدفة ، ولعلني خلقت لنفسي مسبقا وبغير وعي حجة لكي لا أتبعها الى المانيا اذا حدث واختفت .
فكرت انه لن يتعذر على الحصول على عنوان آل موللر من السنيور جالاميني ، فلابد أن لديه هذا العنوان لان القانون يلزم البنسيونات والفنادق بطلبه من الرواد بمجرد نزولهم اليهم . ولكن رغم سهولة هذا الحل فانني نفرت منه لعدم رغبتي فى اشراك ، ولو بطريق غير مباشر اناس آخرين فى مغامرتي الغرامية . تساءلت كيف ابرر طلب هذا . اي سبب كان يبدو لي كذبة واضحة سوف يخمن الجميع فيها الحقيقة بسهولة . وهو انني أريد عنوان مدام بيت لكي انضم اليها فى المانيا ولكي أنتحر معها .
أخيرا اهتديت الى الحل . ودهشت وقلقت فى نفس الوقت لبساطته الشديدة . ما على الا أن اسأل السنيور جالاميني عن العنوان زاعما له أنني أريد أن أعيد لبيت كتاب كلايست الذى اعارته لي . راقت لي هذه الفكرة لانها تطابقت مع نفس العلاقات التى كانت بيني وبين بيت : تبادل النظرات والكتب والاشعار وبعض نبذات من الخطابات .
خيل لي ، بعد لحظات ، انني وضعت اصبعي فى فخ كنت اعرف انني لن افعل شيئا لكي اتحرر منه . ومهما يكن فانني سأحصل على عنوان بيت وأسافر الى المانيا ، وابحث عنها ، وسيسرني ان أراها . صحيح انني وقعت فى فخ ، لكني أشعر دائما بسعادة الوقوع فى الفخاخ بطرقي المضادة . رأيت فى ذلك الفخ حتمية مشئومة ... مشئومة وخبيثة تريدني ان آكون عشيق بيت ورفيقها فى الموت فى نفس الوقت .
أحسست باضطراب هذه الافكار تدور فى رأسي . اضطراب تمتزج فيه الشهوة والشبق وسحر الموت صاحبت فكرة الفخ فى ذهني العناق العشقي ، بسبب التشابه بين اللسعتين : لسعة الفخ ولسعة ساقي العشيقة بممارسة الحب . فكرت انني سأكون سعيدا بأن أحس بساقي بيت تطبقان على ظهري فى الضمة التشنجية فى لحظة الاستمتاع . قلت لنفسي فى هذه اللحظة انه لن يتعذر على قبول الموت معها .
توقف الاوتوبيس ، وهبطت منه وانا مذهول تقريبا ، وسلكت الازقة الضيقة لكي امضي الى البنسيون ، دخلت البهو مسرعا ، وتوجهت الى مكتب السنيور جالاميني ، كان مهتما بتدوين بعض البيانات فى سجله وقلت له :

ـ معذرة يا سنيور جالامينى ، لكننى بحاجة الى عنوان زبونيك الاثنين ، الزوجين الالمانيين اللذين سافرا صباح اليوم : مستر ومدام موللر .

رفع السنيور جالامينى راسه ، ونظر الى من تحت نظارته . واسرعت اقول :

ـ ان الامر يتعلق بمدام بيت ، فقد اعارتنى كتابا ورحلت على عجل فلم اتمكن من اعادته اليها . واريد ان ارسله الى عنوانها فى المانيا .

بدا ان السنيور جالامينى لم يفهمنى جيدا ، والواضح انه كان يفكر فى امر آخر ، ثم أسرع وقال فجأة شأن الرجل الذى يريد ان يتخلص من متطفل .

ـ حسن جدا . اعطنى هذا الكتاب وانا الكفيل بارساله بدلا منك .

استولت الحيرة على كأننى خمنت تحت رقته وجود ارادة قوية مخادعة ، نفس الارادة التى اوحت لى الحصول على عنوان آل موللر من السنيور جالامينى بتلك الحجة المخادعة باعادة كتاب كلايست الى المانيا . واذا بتلك الارادة تستخدم نفس الحجة لكى لا احصل على العنوان المطلوب . ماذا ارادت أن تفعل بى تلك الارادة الغامضة ؟. هل يجب أن اصر للحصول على العنوان أو اعطى الكتاب للسنيور جالامينى وافرغ من بيت الى الابد .

بقيت على تلك الحالة مدة طويلة ثم تمتمت فى غباء : « سوف افكر فى الامر مرة اخرى » وهى عبارة ادهشت السنيور جالامينى كما فهمت من نظرته المتسائلة . ومضيت الى السلم فى خطوات ثابتة، اغلقت باب غرفتى على واستلقيت فوق فراشى ، وفتحت كتاب كلايست . فتحته على صفحة العنوان فوقع بصرى على الفور على الاهداء : الى اختى الحبيبة بيت من اختها الحبيبة ترود . احسست من جديد وانا أقرأ هذه الكلمات بأن ارادة قوية وخبيثة تتصرف فى حياتى كان المعنى الواضح من هذا الاهداء هو وجود تلك الاخت التوأم التى حدثتنى بيت بمجيئها القريب الى كابرى ورأيت أن مشكلة العنوان لم تعد بذات أهمية فسوف أطلبه من الاخت ، وسيكون هذا بحجة رائعة لكى اتقدم اليها .

واذا اتخذت هذا القرار احسست أننى اصبحت أكثر هدوءا ، اكثر حرية على العموم ، ولعل هذا بالذات يرجع الى أننى تخليت

عن حريتي . وقرأت خطابات كلايست سريعا ومن بينها خطابه الاخير .

جذبني اليها هذا القرار الذى استقر فى ذهنها ان تموت معي، ولا يمكن التعرف على اية قوة عظمى وجبارة ... واجتاحنى اعصار من فرحة غامرة لم احس بها من قبل . ويجب ان اعترف لك ان قبرها اعز الى قلبى من فراش كل ملكات العالم » .

توقفت طويلا عند هذا الخطاب . قال كلايست فيه ان قبر هنرييت أعز لديه من فراش ملكة . ولكنني فهمت انه قال ذلك لانه سبق ان دخل فراش الملكة ، اعنى فراش هنرييت ، وسبق ان عرف فيه اللذة الجنسية ، وهى موت آخر يشبه الموت الحقيقي كثيرا . وهكذا واخيرا ، كان يجب الاعتراف ان بيت فى فكرة الانتحار المزدوج تمسكت بكل دقة بنموذجها ، بالامانة الخاصة هل تطابق ، فأولا فراش الملكة ، اى فراشها الذى سنتحد فيه ، والذى سيتم فيه عناقنا الاول والاخير ، ثم القبر الذى ما كان عناقنا ليتحقق بدونه ، وبتلك اللذة التى تريد الخلود التى تكلم عنها نيتشه فى قصيدته .

انتزعني من تأملاتي صوت الجرس العنيف الذى راح يدوى فى طوابق الفندق الثلاثة ، فالقيت بكتابى وأسرعت الى الخارج ، وجريت نحو السلم ، وهبطت خلف جماعة من السياح ، وكنت آخر من دخل غرفة الطعام .

وفى انتظار تفرق النزلاء واحتلالهم لمقاعدهم وجدت الوقت الكافى كى انظر ناحية مائدتى والمائدة التى كان يجلس اليها حتى الامس آل موللر لكى أرى اذا كانت الام قد قدمت هى واخت بيت ... نعم قدمتا كما تحققت على الفور ، ولكن الام هى التى جاءت فحسب ، ولم تأت الاخت ، لان التى تجلس بجوارها كانت بيت بدون شك .

نظرت بانتباه شديد . نعم . لم اخطىء . انها بيت برأسها الكبيرة وشعرها الاشقر ووجهها المثلث الزوايا الرقيق وعينيها الخضراوين وفمها المكتنز وانفها الدقيق . خيل لى اننى اعرف ثوبها الموشى باللؤلؤ الاخضر والذى ينتفخ بجلاء تحت نتوء الثديين .

كانت دهشتى من الشدة بحيث لم اجد الوقت لا لكى اغتبط او لاشعر بالاستياء ازاء هذا الوجود الذى ندمت على غيابه طوال اليوم وخشيته فى نفس الوقت . وتمثلت أوتوماتيكيا النظريتين الوحيدتين اللتين يمكن أن يفسرا هذا الظهور العجيب غير المتوقع :

أ ــ بيت لم ترحل وترود لم تأت . الزوج هو الذى رحل وحده ، والام هى التى اقبلت فحسب .

٢ ـ كنت ضحية هلوسة .

كانت أولى هاتين النظريتين هي الاكثر اقناعا اما الثانية فتستند على معلومة غير معقولة ، وهي التي فضلتها . بعد أن فكرت دقيقة ادركت تماما لماذا لم أشأ انتكون هذه المراة بيت . ربما لأنني لم أكن أريد أن أراها ، وربما لأنني خططت لكي اراها في ألمانيا ، وليس في اناكابرى . الخلاصة أن الهلوسة لازمتني في جميع الحالات ، لكن تلك النظرية لم تدم غير لحظة ، يبدو أنني ما لبثت ان عرفت تلك المراة الشقراء بحركة صدرت منها ، فقد دفنت ذقنها بين يديها المعقودتين ، وهي حركة اعتدت أن اراها من بيت . عندئذ عدت الى نظريتي الاول وهي ان بيت رافقت زوجها حتى نابولي ثم عادت مع امها .

أدركت عندئذ انني أشعر بشعور صحيح : فرحة الرجل الذي يجد من جديد ومن غير ان يتوقع المراة التي أحبها دائما والتي ظن أنه فقدها . بلغت الفرحة من القوة بحيث انها نضحت بصورة غريبة كما يقال ، على المراة التي تجلس أمامها اثناء بضع ثوان . فقد تصورت لحظة ، بحكم العادة ، ان التي يجلس مكان الام هو الزوج ، كما تصورت ان الاخت هي التي تجلس مكان بيت . هذا الخلط الذي تسبب فيه اضطرابي بلغ من اثره أنني عند اقترابي من مائدتهما تذكرت ان الزوج ، في أول يوم . ارغمني بعد الانتهاء من تناول الطعام على تأدية التحية الفاشية . كان ذلك اول درس فرضه زوج بيت المزعج ليعاقبني لمغازلتي زوجته .

ولهذا ، وبطبيعة الحال ، ومع استمراري في تصرفي في حالة الاضطراب التي امر بها فكرت انني لابد رافع ذراعي فقمت بنصف دورة حول نفسي وضممت عقبي وأديت التحية الفاشية ، وفي نفس اللحظة زال اضطرابي ، ورأيت ان بيت تجلس امام مائدتها وان الشخص الاخر ليس موللر وانما سيدة : الام بالذات .

نظرت اليها وذراعي ممدودة في الهواء بتحيتي الفاشية السخيفة. كانت امراة بين الاربعين والخمسين ، كامدة اللون ، نحيفة الوجه ، قاسية الملامح ، ذات عينين سوداوين زائغتين وقلقتين بصورة غريبة، الانف كبير ومستقيم ، والشفتان غليظتان مستخفتان ، والشعر قصير جدا ، خصلتان منه على شكل الفاصلة تحيطان بأذنيها (كانت هذه الموضة الشائعة في المانيا في ذلك الوقت) وتكسبان سمة رجولية . ترتدي سترة سوداء لرجال اما ربطة عنقها كعقدة فراشة سوداء هي الاخرى تحت ياقة منشاة تزيدان معا تلك السمة ، فكرت

ان أم بيت ترتدى زيا خيلّ لى وانا اراه اننى سبق ان رايته كما يحدث مع الازياء التى لا يميزها شيء عن العديد من نوعها الا خلوها من النجوم والشرائط .أحسست بالرغبة فى مقارنة هذا الوجه بوجوه الجنرالات البروسيين الذين يظهرون من وقت لآخر فى المجلات الالمانية المصورة واقفين فوق منصة ، يستعرضون الفرق العسكرية . لم تدهش أم بيت من تحيتى الفاشية . اعتبرتها حركة عادية ، وردت عليها بايماءة ظاهرة من رأسها . لكن حدث فى نفس الوقت شيء قلب اعتقادى باننى امام المرأة التى احبها . رأيت بيت او تلك التى حسبتها بيت تنظر الى فى دهشة ثم تضحك منى ... كانت تضحك منى وما كانت بيت لتفعل ذلك أبدا ، فقد كانت تضحك من غير حزن وعيناها تتألقان خبثا . وعندئذ استقر فى ذهنى أنها لا يمكن ان تكون بيت . كانت امرأة غريبة دون شك ، او ربما تكون ترود الاخت التوأم لبيت .

ظلت تضحك فى مرح أكثر منه سخرية . ثم رأيت ترود (وسأدعوها بهذا الاسم من الآن) تحنى رأسها ناحية امها وهى تهمس ببضع كلمات فى أذنها . وعندئذ قالت لى الام فى صوت جاف ومهذب بلغة ايطالية سليمة :

ــ لعلك السنيور لوسيو ؟.

ــ نعم . أنا لوسيو .

ــ أنا اسمى بولا ، وانا ام بيت وترود . لا تغضب من ترود فهى لا تضحك منك بسبب تحيتك وانما لانك حسبتها بيت ، وهذا يحدث كثيرا ، أنت لست أول من يختلط عليه الامر . فهما متشابهتان كثيرا ، ومن الطبيعى أن تخطىء .

لم يسعنى الا أن أسألها بغباء :

ــ وبيت ؟... اين هى ؟.

تدخلت ترود عندئذ وتكلمت بالايطالية ، اثارت معرفتها بلغتى التى لم تكن بيت قد قالت لى انها تعرفها ، دهشتى ، فهمت فى تلك اللحظة ، وطبقا للتعبير الشائع اننى استطيع ان اؤكد اننى لم أصدق ما تراه عينى ، وانها ليست بيت وانما هى ترود حقا .

ــ بيت فى المانيا . لماذا ؟... لعلك تؤثر ان ترى اختى بدلا منى ؟.

ــ كلا ، ولكن ... هذا صحيح ... حسبتك بيت .

ــ ومع ذلك فنحن لسنا متشابهتين الى هذا الحد ، فانظر مثلا الى هذه الشامة التى لدى ، انها ليست لدى بيت .

وكان هذا صحيحا ، ففى ركن من فم ترود توجد شامة واضحة

تزيد من سحر وجهها الثلاثي الاضلاع . استطردت ترود بنفس الصوت الرقيق :
ـ بيت ليست بها شامة ، ثم ان لدي شامة أخرى في مكان يتعذر رؤيته الا ببذل جهد كبير .
اسرعت الام فتدخلت كما لو كانت تريد اسكات ابنتها :
ـ حدثتنا بيت عنك كثيرا .
اسرعت الفتاة هي الاخرى واحتجت قائلة :
ـ تخشى امي أن أقول ان شامتي الاخرى في مكان حساس جدا .
قالت الام في عتاب وتوسل :
ـ ترود ... قالت لنا بيت انك تجيد اللغة الالمانية .
تدخلت ترود من جديد فقالت :
ـ وعندي شيء آخر ليس لدى بيت ، وهي رغبة قوية في الاستمتاع بالشمس والبحر وبايطاليا .
كانت تضحك وهي تنظر الي ، وعيناها تتألقان فرحا ، مختلفتان جدا عن عيني بيت التعستين الكامدتين اليائستين . وتمتمت أقول :
ـ انكما تجيدان الايطالية على كل حال . اما بيت فلم تتكلمها على الاطلاق .
ـ هذا صحيح ، فقد أدرت فندقا في لوجانو بضع سنوات . وعندما حصلت على الطلاق كانت بنتاي صغيرتين ، فاحتفظت بترود معي في ايطاليا ، أما بيت فمضت لكي تعيش مع أبيها في ميونيخ . وهذا يفسر لك اجادة ترود للايطالية .
جلست وانا في غاية الاضطراب والضيق . غاضبا لانني ألقيت بالتحية الفاشية للمرة الثانية ، ثم احسست انني غبنت بالشبه العجيب الطبيعي بين الاختين .. شبه بدا لي غير موجود في الطباع . لماذا اغضبني هذا الشبه ؟ لماذا بدا لي طبع ترود أنه قائم ، على الاقل بقدر مابدت ، على أن تعبيرا من تعبيراتها يعادل تدنيسا للصورة المثالية التي اختلقتها لبيت . مثلا عبارة مكان حساس جدا مصحوبة بضحكة خبيثة ، عبارة ما كانت بيت لتنطلق بها أبدا ، لقد أثرت في تأثيرا غريبا ، كأنها غيرت رسم ولون الشفتين اللتين نطقتا بها : شفتان كانتا شفتي بيت وأصبحتا الان مختلفتين تماما .
حملتني هذه التأملات ازاء ترود الشبيهة ببيت والمختلفة جدا عنها على مراقبتها باهتمام أكثر . لو انني أفلحت في ملاحظة هذه الاختلافات أولا بأول فسوف أتأكد ان هاتين الاختين تختلف احداهما

من الاخرى ، ولن أشعر بعد ذلك بالغبن . وفوق ذلك ، وبسرعة فائقة اكتشفت بارتياح كبير اختلافا جوهريا . كانت ترود تنافس بيت دون أن تدرى ، وقد دبرت نفس المحادثة عن بعد غير مستخدمة نفس الكلمات وانما نفس التصرفات ، ولكن أية تصرفات . بيت بعاداتها الحافلة بالكآبة والشؤم واليأس أوحت الى المقارنة بالملاك الحزين كالنكوليا دورر . أما ترود فقد ذكرتنى بتلك النســاء اللاتى تمتلك حيوية غريبة وشذوذا غامضا كالنساء اللاتى رسمهن كيرشنر وموللر فى لوحاتهما التى ظهرت بعد الحرب الكبرى ، فبيت مثلا تتناول القليل من الطعام كما لو رغما عنها فى نفور ظاهر . أما ترود فعلى العكس منها ملأت طبقها بالمكرونة حتى حافته ، وراحت تزدردها بتلك الحركات المبالغ فيها والتى ينسبها الاجانب للايطاليين لانه يتعذر عليهم التعامل مع هذا النوع من الطعام فى حركات غير خرقاء . تلفها كالكرة حول شوكتها ، وبكمية كبيرة لايمكن ان يسعها فمها ، ذلك الفم الذى تفتحه بكل اتساعه لكي تلتقط بعض المكرونة المعاكسة ، كانت تمتصها بصوت مرتفع ، ملوثة ما حول شفتيها بالصلصة وتحاول بعد ذلك أن تنظفهما باخراج لسان ضخم ذكرنى بلسان سونيا . ولكى تفرغ جمعت البقايا التى تبقت فى قاع الطبق بأصابعها الخمسة ، ثم راحت تلعق الاصابع الواحد بعد الاخر . وأثناء ذلك المنظر لم تكف لحظة عن النظر الى فى سخرية وخبث .

جاء بعد ذلك دور السمك ، قدمته الخادم وهى تدور حول الموائد فى أطباق كبيرة بيضاوية ، كان من نوع البورى قدم مع حساء بالليمون والمايونيز . الذى قدم على حدة ، فى اناء صغير . رأيت ترود تضع ملعقة من المايونيز فى طبقها وتغرز ابهامها فيه لم تخرجه وبه كتلة صفراء . ادخلت ذلك الاصبع فى فمها فى بطء وشيئا فشيئا ، ثم أخرجته بنفس الطريقة . وفحصته بضع ثوان ثم كررت نفس العملية مرة ثانية وثالثة وهى تحدق فى لكى ترى دون ريب ان كنت قد ضمنت معنى حركتها هذه ، لم يكن من الصعب فهمها طبعا ، فقد كانت تشير بذلك الى الولوج الجنسى .

لكن تعذر على أن أفهم كيف بلغنا تلك المرحلة من هذا النوع من التلميح هكذا سريعا . ماذا حدث لكى تظن ان لها الحق ان تقول دون أن تنطق بكلمة أنها على استعداد لممارسة الحب معى ؟ تضايقت جدا وخفضت عينى . وعندما تمكنت من رفعهما رأيت أن ترود كانت تنتظر منى ذلك ، فأسرعت وغمزت لى بعينها وهى تبتسم ، واثقة كل الثقة من نفسها .

نظرت الى الام . كان يبدو انها حريصة على الاكل بكل دقة ونظام ، ضمت كتفيها اليها وخفضت عينيها ، وامسكت السكينة والشوكة بأطراف أصابعها الطويلة النحيلة . بدت مقطبة الجبين ، لا ريب انها تتعمد تجاهل تصرف ابنتها . تحولت ترود اليها فجأة لكي تقول لها شيئا في صوت خافت محموم . وحدث عندئذ تغيير عجيب فقد استمرت الام تأكل بضع دقائق بطريقتها المهذبة جدا . القت السكينة والشوكة بجوار طبقها بسرعة وفتشت في حقيبتها واخرجت علبة سجائر ثم تحولت الى وعلى شفتيها ابتسامة غريبة بالغت فيها وطلبت منى عود ثقاب .

اسرعت بالنهوض واشعلت لها السيجارة . فشكرتنى بابتسامة اخرى بالغت فيها أيضا ، ثم ، تحت نظرة ابنتها المتواطئة والمتضامنة نطقت بعبارة لا تخلو من الرياء فقالت :

ـ انا وابنتي سعيدتان جدا أن يكون لنا جار مثلك .

ترددت لحظة : توقعت أن تدعوني للانضمام اليهما . لكن لم يحدث ذلك . عدت مكاني وسألت نفسي : ماذا تريد مني الاخت التوأم لبيت ؟.. الظاهر مايريده الرجال عادة . ولكن لماذا تريد هـذا الشيء . واجهت نظريتين اخريين :

١ ـ لانها فتاة من الشمال ، قدمت من المانيا الى ايطاليا وكلها رغبة لاشعورية لارضاء ذوقها للشمس وللرجال الساخنين ، وهو ذوق لا تستطيع ارضاءه في موطنها الاصلى .

٢ ـ لان بيت باحت لاختها بمكنون قلبها وحدثتها عني ، ودفعها التنافس ان تحل محلها بجواري .

بدت لي هاتان النظريتان المعقولتان والمبتذلتان غير كافيتين . لم توضحا لي ، بين غيرهما من النظريات ، لهفة ترود أن تحل محل اختها بمجرد وصولها ، وبتصرف اقل مايمكن أن نقول عنه انه أحدث تأثيرا عكسيا لذلك الذي تصبو اليه . وفوق ذلك لم يكن ينبغي نسيان تصرف أمها ، وهو تصرف يشبه بصورة غريبة ، تصرف موللر مع بيت ، أعني تصرفا متواطئا وعدوانيا في نفس الوقت .

وانتهى العشاء بموزة كررت ترود ايماءتيها بها للولوج الجنسي الذي سبق ان قامت بها منذ قليل ، فأزالت قشرة الموزة شيئا فشيئا ثم ادخلت الموزة في بطء في فمها دون أن تقضمها . وكررت حركتها وهي لاتكف عن ملاحقتي بنظراتها ، بدا كأنها تريد أن تعبر عن رغبتها في تذوقي . وفرغت من موزتها والقت بالقشرة في طبقها الفارغ . فكرت لحظة ثم اقتربت من أمها فجأة وراحت تحدثها في

صوت خافت وهي ترميني بنظراتها في نفس الوقت ، كأنها تريد أن تقول لي انني اتحدث عنك الان فلا تتحرك وانتظر حتى أفرغ . وكان امامها كأس مملوءة بالنبيذ فراحت ترشف منه مابين لحظة واخرى جرعة وهي تتكلم . ومرة أخرى آختلفت في هذه النقطة مع بيت التي لم أرها تحتسي شيئا آخر غير الماء . ويظهر انها طلبت من أمها شيئا رفضته هذه الاخيرة في اصرار . كان الطلب غاية في الرقة في حين كان الرفض جافا جدا . وكما يحدث أحيانا بين أم قاسية وابنة مدللة . راحت ترود تتكلم وهي منحنية الى النصف تقريبا فوق المائدة ، وكانت الام تصغي خافضة رأسها ، تدخن سيجارتها وترسل انفاسا صغيرة متأملة .

واخيرا اتضح لي معنى ذلك المشهد ، فقد استدارت الام ناحيتي فجاة وقالت بصوت جاف ومتباعد كصوت رقيب :

ــ تقول ترود انك عرضت عليها القيام بنزهة في ضوء القمر ، فهيا . لكنني احرص ان اقول لك انني لا اثق في الايطاليين ، وان الامر يجب أن يقتصر على نزهة في ضوء القمر ولا شيء أكثر من ذلك ، فانتم ايها الايطاليون تغالون في مغازلتكم للنساء . لا تفعل ذلك مع ترود ، عليك ان تحترمها فهي فتاة المانية صغيرة .

بقيت مشدوها ازاء اكذوبة ترود المؤكدة بأنني دعوتها (ولكن متى وأين وكيف) للقيام بنزهة معي في ضوء القمر ، بحيث لم يخطر لي الاستياء من لهجة الام المتكلفة ومن آرائها العنصرية .

ثم انه منعني من الرد على كذبة ترود وازدراء الام شيء آخر ، فقد كانت هذه النزهة في الواقع هي التي أريدها أكثر من غيرها في تلك اللحظة . أفما كان يجب أن أطلب من ترود عنوان اختهـا ؟ ثم رأيت فجاة ، وانا اتحدث مع ترود عن أختها انني استطيع معرفة من هي بيت حقا ، اكتفيت بالتظاهر انني لم أسمع كلمات أمهـا البغيضة ، ونهضت واقتربت من مائدتها وقلت :

ــ انا مستعد لهذه النزهة . اطمئني ياسيدتي ، فانا ايطالي غير تقليدي تقريبا . . درست في المانيا وامتحنت هناك .

كنت ارجو أن تخفف كلماتي هذه عدوان الام ، لكنني اخطأت ، فقد استطردت تقول في صرامة :

ــ تقول انك ايطالي غير تقليدي ؟.. ومع ذلك فطريقتك في النظر الى ترود اثناء تناول الطعام تثبت العكس .

قلت لنفسي ان بيت كان في أعقابها زوج غيور وان ترود تراقبها أم تكرهني . انحنيت في تكلف ظاهر وقلت متهكما :

ـ ان لك رأيا خاطئا عن الايطاليين ياسيدتي .
ـ انني اعرفكم معشر الايطاليين ، فكلكم متشابهون .. ما أن تمر بكم النساء في الشـــارع حتى تفقدوا عقولكم وتلتفتون لرؤية اردافهن ، وهذه وقاحة لا تحدث أبدا في المانيا .
ـ لكل بلد عيوبها ومزاياها .
ـ كان كازانوفا ايطاليا .
ـ صحيح .. ولكن دون‌جوان كان أسبانيا .
تدخلت ترود فقالت في احتجاج :
ـ اوه ، هذا يكفي ياماه . لا تسيئي معاملة السنيور لوسيو . انتظري افعاله قبل أن تحكمي عليه . هل نمضي يالوسيو ؟
اومات بالايجاب . ونهضت المرأتان ، قالت الام ، وهي تبتسم ، في رقة غريبة غير متوقعة على الاطلاق :
ـ اوصيك الا تبقي ترود الى وقت متاخر ، فسوف نصـحو مبكرين جدا لكي نذهب الى جروتا أزورا .
خرجنا نحن الثلاثة معا من غرفة الطعام . وتحولت ترود الى امها وسألتها قائلة :
ـ وأنت ، ماذا ستفعلين ؟
أجابت الام مقطبة
ـ سأمضي الى الصالون للاستماع الى الراديو .
قالت ترود وهي تعانق أمها في رفق :
ـ مسكينة يا أماه . اتركك وحدك دائما .
ثم تحولت الى وأمســكت يدى وقالت وهي تمضي نحو باب الخروج :
ـ دعنا نذهب .
اجتزنا الحديقة ، قلت اسال ترود :
ـ اين نمضي ؟.. نحو الحقول أو الى القرية ؟
ـ لنمض الى القرية ، فالوقت ليل . لا أريد ان يسـتيقظ الايطالي التقليدى فيك اذا مضينا الى الحقول .
ـ لماذا لا نعود الى الصالون اذن للبقاء مع امك ؟
ـ انت سريع التأثر . لنمض الى القرية ، لكن لنمض اليهـا عبر الازقة الضيقة الصغيرة الخافتة الاضواء . هاانت ذا ترى انني اثق بك .
سلكنا الشارع في صمت قبل ان نعرج الى زقاق يحده سوران

من الاحجار اليابسة كنت اعرف انه يفضى الى ميدان القرية . سألتها متابعا مجرى أفكارى :
ـ لماذا قلت لامك انني دعوتك للقيام بنزهة فى ضوء القمر ؟ تعرفين تماما انني لم افعل .
ـ لانني استشعرت انك سوف تفعل ، ثم اننى اردت البقاء وحدي معك .
ـ لماذا أردت البقاء معى وحدك .
ـ ياله من سؤال ؟.. لانك تروق لى .
لزمت الصمت لحظة ، اذهلتني صراحة ترود ، ليس بسبب تلقائيتها او فظاظتها وانما بسبب وقاحتها التى ضمنتها . بدا كما لو انها دبرت كل شيء مسبقا . واستطردت اقول :
ـ أروق لك ؟.. فى اى شيء ؟
راحت تضحك ثم قالت :
ـ وفى اى شيء يروق الرجل للمراة .
ـ لا أدرى .
ـ فكر قليلا .
ـ لممارسة الحب ؟
ـ هو ذلك بالضبط .
جازفت عندئذ وقلت :
ـ لممارسته الان ، فى آلتو واللحظة ؟
ظهر عليها الجد فجاة وتغضن جبينها وقالت :
ـ ولم العجلة . كلا . اننى . انما تكلمت ، كيف اقول ، نظريا ؟
كنا مستغرقين فى حديث ضمنى ماجن . احسست بتهيج للتميز الذى تمنحه لي ، تميز واضح وكامل واحساس غير محدد تماما بالغبن . لم تسمح لي بيت أبدا أن اعلل نفسي بالامل ، ولا حتى باقل ملاطفة ، سخرتني مقاومتها وأهاجتني . أما خضوع ترود ، فعلى العكس نفرت منه ، فقد مزجت بالاثارة شيئا اخلاقيا . ربما استطيع ممارسة الحب معها ، ولكن لكى اتأكد مرة اخرى انهـا نسخة سيئة من بيت قلت محاولا تغيير مجرى الحديث :
ـ سوف تدهش امك لو سمعتك تتكلمين بهذه الطريقة .
ـ امى لاتعرفنى ، شأن جميع الامهات فى الدنيا .
ـ هل تحب أمك بيت أكثر منك ؟
ـ أنا وبيت جد مختلفتان ، وهى تحبنا معا لاسباب مختلفة .

ـ اي ؟

ـ حسنا . تظن امي ان بيت اكثر مني ثقافة وفنا وعقلانية . وهي تحبها لهذه الصفات الافتراضية ، اما انا . فعلي العكس ، تحبني لانها تعتبرني ودودة واكثر تشبها بها واتصرف كما الابنة المخلصة ، وعلي الخصوص اكثر موضوعية واكثر انسانية من بيت .

ـ لماذا قلت صفات افتراضية ؟

ـ لان امي ليست حجة في هذا الموضوع . انها امراة تؤمن بالقيم التقليدية . تصور انها تنتمي الى اسرة من الضباط ، وانها لا تفهم شيئا في كل ماهو ثقافة ، وتعتبر العنجهية والتصنع والثقافة المزعومة من الفنون .

نظرت اليها مذهولا ، وقلت :

ـ يخيل لي انك لا تحبين اختك كثيرا :

ـ كنت احبها . بل كانت احب شخص لي في الدنيا . لكن عندما انضممت الى الحزب رايتها في صورة اخرى . اصبح كل ماكان يروقني فيها فظيعا .

ـ مثل ماذا ؟

ـ سبق أن قلت لك هذا . ثقافتها المزعومة وعنجهيتها وتصنعها ادركت ان في بيت ميلا شديدا للتدمير .

واذ سمعتها تتكلم عن بيت هكذا قلت لنفسي ان اكتشافاتي ليست مسببة للسرور . اردت ان اعرف عن بيت الغامضة المزيد ؛ وكان لي ما اردت . ومع ذلك قلت معترضا :

ـ التدمير ؟.. اليست هذه الكلمة مفرطة العنف تقريبا ؟

ـ عليك أن تحكم بنفسك . الا يوجد شيء مدمر في شخص يزعم انه فوق البشر ، وفشل في كل ماانجز .

ـ تقولين فشل ؟

ـ طبعا . ظنت بيت وهي في التاسعة انها موهوبة للرقص ، وبعد خمس سنوات عدلت عنه لكي تصوغ الشعر . وضعت قصائد في الرابعة عشرة حتى السابعة عشرة من عمرها ثم اكتشفت في نفسها موهبة للرسم . وبعد سنتين هاهي ذى تمتهن التمثيل ، وهي الان تقوم بأدوارها في المطاعم ، وفي المسارح الصغيرة بالارياف ، وتستمر في فرض اشعار رديئة ، وترسم لوحات فظيعة . آه . نعم ، لان ميزة بيت انها لا تتوقف ابدا في تجميع النشاطات الفنية الكاذبة . وماذا يبقى من كل ذلك في النهاية .. لا شيء سوى كبريائها . هل تعرف ماهي بيت في الحقيقة .

ـ لا ادرى . لكننى اقول قبل كل شيء انها اختك .
ـ وا أسفاه ! لكنها مع ذلك عقلانية والعقلانيون واليهود هم الذين أفسدوا المانيا .

كنا قد خرجنا من الزقاق الصغير ، ودلفنا الى الطريق العام . ونظرت الى ترود . تهيج غريب كان يصبغ خديها وتتألق به عيناها . كان الواضح أن الحديث عن طباع اختها يهمها كثيرا ، ومهما يكن من هجومها على بيت فانه لم يغضبنى كثيرا ، لان الامر يتعلق بوجهة نظر خاصة .

ـ قلت ان بيت كانت تزعم أنها فوق البشر ، فماذا عنيت بقولك هذا ؟

ـ شيء ما يمكن تلخيصه فى بضع كلمات . اننى انضممت الى الحزب . أما هى فلا . وعندما اقول الحزب أقول العالم أجمع .. اقول الناس اجمع او اذا أردت الدقة أقول الشعب الالمانى . فبأى حق تضع بيت نفسها فوق أولئك الذين استبعدوا كل التعليقات وانضموا بدون تحفظ الى الحزب ، مشمرين عن سواعدهم واصبحوا بنائين . تؤكد انها تكره السياسة ، واظن أن الحزب هو الذى تكرهه أكثر من السياسة . انها لا تقول ذلك لاننى لن أسمح لها بقوله ، ولكن هذا شيء محسوس . ومن المتعذر الا يلحظ احد ذلك .

لم اقاوم اغراء العودة الى عبارة من عباراتها فقلت :

ـ انت اذن شمرت عن ساعديك وأصبحت بناءة ؟

خمنت السخرية واجابت :

ـ انا أيضا ابتسمت من هذه الصيغة فيما سبق . اكتشفت منذ انضمامى الى الحزب انه من الممكن أن نقول افضل من ذلك ، لكننا لا نستطيع قوله بطريقة أخرى . بيت لا تعرف معنى الانضمام الى الحزب ، لهذا تشعر بأنها متفوقة على وتحتقرنى ، الان استحق الاحتقار لاننى لم أشأ ان أكون فاشلة متأصلة مثلها .

ـ طبعا .. لكن ماذا تعنين بكلمتى فاشلة متأصلة ؟

ـ هذه هى الصفة التى تستحق أن توصف بها بيت ، شخص حاول كل شيء ماعدا الشيء الذى يمكن أن ينقذه .

ـ الانضمام الى الحزب ، اليس كذلك ؟

توقفت وتأملتنى فى اصرار ثم قالت :

ـ هو ذاك

وكان الدور على فى محاورتها ، فقلت فى اصرار :

ـ هل تعرفين ماقلت الان ؟.. ان الحزب مكون من فاشلين

متأصلين . آه ، نعم ، اذا تمسكنا بكلامك بالذات . اذا كانت بيت لم تشأ أن تغدو فاشلة متأصلة فقد كان يجب عليها أن تنضم الى الحزب ، أليس كذلك ؟

خمنت الفخ الذى نصبته لها وقالت :

ــ الحزب أشبه بكنيسة فيها كل الذين سبق دخولها حتى عندما كانوا فى الخارج والذين يجب أن يغيروا ما بأنفسهم لكى يدخلوها . لو انضمت بيت الى الحزب لانتمت الى الطبقة الثانية .

قلت وانا استأنف السير :

ــ وانت تنتمين الى الطبقة الاولى ، اليس كذلك ؟

ــ ارجوك . دع الكلام عنى .

واستطردت انا أقول بعد صمت قصير :

ــ يبدو انك تشعرين نحو اختك بعداء كبير .

ــ سبق ان قلت لك ذلك . كانت فيما سبق الشخص الذى يعجبنى اكثر من غيره ، ثم فتحت عينى . لم تعد بهوانيتها تستهوينى على الاطلاق .

ــ وما الذى جعلك تفتحين عينيك ؟.. انضمامك الى الحزب ؟

ــ ليس بالضبط . كان انضمامى نتيجة مسيرة طويلة داخلية .

ــ وماذا اذا كانت بيت على حق ؟

اجابت بهدوء وهى شديدة الثقة فى نفسها :

ــ لايمكن أن تكون على حق .

ــ لعل بيت تبحث عن حقيقتها ، وفى هذا النوع من البحث لايمكن تجنب الاخطاء .

ــ ان بيت لاتبحث عن الحقيقة . بل عن الموت ، بها ميل كبير للتدمير الذاتى سوف يقودها يوما الى الانتحار .

ــ لعل الحقيقة هى الموت . الا يبدو لك انك تبالغين قليلا ؟

توقفت فى منتصف الطريق وهى تنظر الى بشبه ابتسامة وقالت :

ــ الم يحدث أن كلمتك بيت عن كلايست وانتحاره المزدوج ؟

لم أملك الا الاحساس بالغيرة . اذن ما حسبت انه سر بينى وبين بيت أصبح شيئا معروفا ، اذا حكمنا على الاقل من لهجة ترود ، وهى لهجة فيها خليط من التسامح والتهكم الذى يتخذه عادة افراد اسرة واحدة وهم يتكلمون عن عادات أقاربهم . تمتمت اقول :

ــ نعم . قالت لى شيئا عنه .

ضحكت ترود ضحكة ضارية وقالت :

ـ الم تقل لك انها تبحث عن شخص يفكر مثل كلايست ويقبل ان ينتحر معها ؟ اتساءل لماذا تخلط بيت بينها وبين كلايست . لسوء الحظ انها لم تجد بعد الشخص الذى يقوم بدور هنرييت فوجل ، واننى اراهن انها طلبت ذلك منك انت أيضا .

ـ طلبت منى ماذا ؟

ـ ان تموت معها .

كذبت بجراة :

ـ لم تطلب منى شيئا .

ـ الم تحدثك عن كلايست ؟

ـ البحث الذى قدمته كان عن كلايست ، ثم اننى اقوم حاليا بترجمة احدى قصصه . نعم ، تحدثنا عنه ولكن من الناحيـــة الادبية .

نظرت الى نظرة خبيثة قرات فيها السخرية وعدم التصديق :

ـ ومع ذلك فاننى واثقة انها فعلت

ـ لمـاذا ؟

ـ لانك الشخص المناسب بالذات .

ـ المناسب لاى شىء ؟

ـ انت عقلانى ، افلا تكتب ، افلا تقرأ ، افلا تفكر .. افلا تبحث مثلها عن الحقيقة ؟

ـ اذن ؟

ـيبدو لى ان من المعقول ان تكون بيت قد طلبت منك الانتحار معها على طريقة كلايست .

آثرت الصمت ، فان لهجة ترود كانت تنطق بالسخرية بحيث لا تستحق ردا عدوانيا ، ومشينا لحظة دون ان نتكلم ، ثم سألتها فى فضول وسخط معا :

ـ معذرة ، هل استطيع ان أعرف لماذا طلبت الخروج للنزهة معى الليلة ؟ كنت فى اتم الهدوء وحـــــدى ، ولو اننى توقعت انك ستتحدثين هكذا عن شخص عزيز على ماخرجت معك .

ـ وانت ؟.. لماذا رضيت بهذه النزهة ؟

تساءلت . هل يجب ان اقول لها اننى رضيت بها لكى احصـــل منها على عنوان بيت ، ثم استقرت نيتى ، فى الوقت الحـاضر على الاقل ، انه لا جدوى ان اخبرها باننى اريد اللحاق ببيت فى المانيا . جبت :

ـ لانني أردت أن أسمعك تتحدثين عن بيت طبعا ، اريد أن اعرفها أفضل .

ـ وهل حدثتك عنها ؟

ـ اجـل .

ساد صمت جديد ، عادت لتقول :

ـ حدثتني بيت عنك فى نابولى كما قلت لك .

ـ وماذا قالت ؟

ـ قالت كلّ شيء .

ـ كلّ شيء عن ماذا ؟

ـ عنكما معا .

ـ عنا معا ؟.. لكننا لم نتحدث سويا الا مرة واحدة .

ـ وعدت بيت ان اكتم السر ، ومن الافضل ان تعرف . قالت بيت انك أحدثت فيها تاثيرا كبيرا .

ـ أى نوع من التاثير ؟

ـ باصطلاح اخر ، وقعت بيت فى حبك .

دهشت وتملكنى الانفعال وسألت :

ـ هل قالت لك ذلك ؟

ـ نعم . قالت انها تخشى أن تكون قد أحبتك . صفوة القول انها احست نحوك بالحب من أول نظرة ، كما يقال .

تضحك ضحكة غريبة ، ساخرة تنطق بالغيرة ، كنت بعيـدا عنها . بعيدا عن كابرى عن ايطاليا . كنت فى برلين ، فى غرفة المعيشة بشقة بيت ، حيث تعمل ، وتستمع الى الموسيقى ، وتقرأ . هناك شرفة كبيرة كما فى المبانى الحديثة ، تطل على الحديقة الخضراء وعلى شجرة وحيدة وسط الحديقة .. شجرة أرز كبيرة زرقاء من كاليفورنيا بأغصان ممدودة كالاذرع فى حركة توسل حزين . وتقف بيت خلف ألواح الشرفة الزجاجية تنظر الى شجرة الارز بنفس النظرة اليائسة التى ظلت ترمينى بها كل الليالى فى أنا كابرى . فيم كانت تفكر ؟ لاشك فى تلك اللذة التى تطلب وتريد الخلود كما كتب كلايست ، تلك اللذة التى تهفو اليها والتى لست جديرا بأن أتيحها لها .

صحوت من هذا النوع من أحلام اليقظة وأنا أسمع ترود تقول :

ـ وأنت ؟.. هل تحب بيت ؟

فضلت توخى الحرص فقلت :

ـ لا أعرف اذا كنت أحبها أم لا ، فهذه أمور لا تعرف الا فيما

بعد . لكن اذا كان معنى الحب أن يحس الانسان أنه جدير بارتكاب حماقات فى سبيل التى يحبها فانتى اقول نعم .

ـ أية حماقات ؟.. تكلم .. هل تعنى الانتحار المزدوج ؟

لا ادرى لماذا سلمت بالحقيقة التى سبق أن انكرتها ، فقد اجبت :

ـ نعم . الانتحار المزدوج على طريقة كلايست . دعينا من الحديث فى هذه الامور ، فانت لايمكنك أن تفهميها .

كنا قد بلغنا ركنا مظلما من الشارع . رددت ترود البصر حولها ثم اقتربت منى وهى تقول فى صوت خافت :

ـ اعطنى قبلة .. قبلة واحدة .. الم تمنحها لك بيت ؟

نظرت اليها مشدوها باحساس تغير مفاجىء وقاس . واجبت مرتبكا :

ـ كلا . لم يقع شىء بيننا .. ولا حتى قبلة .

ـ ايسعدك أن تقبلك بيت ؟

تكلمت فى الفة حميمة ، أجبتها بنفس اللهجة :

ـ ما اعجب أمرك !.. لماذا تلقين على هذا السؤال ؟

ـ فكر فى إن ترد على فحسب .. ايسعدك ذلك أم لا ؟

ـ نعم ، طبعا .

ـ سامنحك قبلة اذن . وعليك أن تتصور ان بيت هى التى تمنحها لك ، فأنا وبيت متشابهتان بحيث لايمكن التفريق بيننا .

تتكلم فى صوت خافت وقد ادنت وجهها من وجهى فقلت :

ـ لم تقبلنى بيت قط ، فكيف استطيع المقارنة .

ـ لا تقارن .. تصور فحسب ان بيت هى التى تعانقك . تعال هنا .

كنا فى منتصف الشارع . دفعتنى ترود الى زقاق مظلم ، كان هناك مدخل منزل بابه مغلق فجذبتنى اليه وهمست :

ـ لا تفعل انت شيئا .. دعنى انا افعل .

ثم ، وبدون أن تنتظر ، وعلى الفور ، القت ذراعيها حول عنقى. واحسست بيدها على كتفى واظافرها تنغرز فى مؤخرة عنقى ، واقترب فمها من فمى . تباطأت لحظة ، كما لو تخلط انفاسها بانفاسى ثم اطبقت شفتاها على شفتى وهما تأتيان بحركة دوارة حتى احدثتا فجوة فى اللحم الرطب والنهم ، وراح لسان لا يكل ولا يتعب يروح ويجىء فى اعماقها . لم استطع أن أمنع نفسى من التفكير انها تفعل ذلك فى تلذذ تقريبا ، وفى حذق تقريبا ، كما تفعل نساء المجتمع عندما

يقبلن عشاقهن ، ولكنها تفتقر الى التجربة والمران ، بدا عملها لايختلف عن تصرف هاوية ، ومع ذلك احسست فيها بشيء قاتل ولكنه شخصي لا يخص الا المرأة التي تعانقني والتي بدت كأنها تبحث ، كما تقول قصيدة نيتشه ، في عمق اللذة عن خلود العدم والنسيان . وجاء السؤال : ترود او بيت .

واذ أتذكر براءة وسوقية ترود الباروية لا اجد مجالا للشك . ان بيت هي التي تقبلني وانه لايمكن الا ان تكون هي . هذه الفكرة ، أو بالاحرى ، هذا الاحساس المحير اتبعته بمحاولة مني لاتمام الوهم بملامسة مباشرة لجسد ترود الشبيه تماما بجسد بيت . احتويتها بين ذراعي ، واطبقت بيدى على خصرها النحيف القاسي لكي اجذب بطنها الى بطني ، وعندئذ اكتمل الوهم تماما . كان حوض بيت الواسع المعروق هو الذى اضمه الي وكانت جوارحها القاسية البارزة تلامسني اكاد ان أهمس واقول مؤكدا انني ساسمعها تقول نعم ، انا بيت . انت لم تخطيء ، عندما حدث شيء طاريء كان متوقعا .

ففى اللحظة التي بدات قبلتها تبلغ ذروة الاتساع ، اذا بترود تضع لسانها بين أسناني وتنفخ محدثة فى مخي صوتا فاحشا ومضحكا . تملكني السخط لكنني لم أستطع ان أفهم شيئا ، فاتيت بوثبة كبيرة الى الخلف . حولت ترود بكل قواها وهى تضغط بيديها الاثنتين على صدري . صحت فى غضب :

ـ ماذا بك ؟

ـ عندما رايتك تطبق عينيك ادركت انك تتصور انك تقبل بيت ، فشعرت بالغيرة منها واردت ان اقوض وهمك .

ـ حسنا . انك افلحت فى تقويض وهمى ، فمرحى . ولكن مافعلته ليس جميلا .. انه عمل فظ .

ـ لكننى لست عقلانية مرفهة . انا فتاة سوقية بسيطة ، ككثيرين غيرى .

ـ لست سوقية . انما أردت أن تكونى كذلك .

لم ترد . بلغنا الميدان ونحن نسير جنبا الى جنب فى صمت ..

وكانت المقهى شاغرة كالعادة . رأيت من خلال الواحها الزجاجية صاحبها واقفا خلف منصته ، فقلت فى لهجة متساهلة :

ـ اتريدين أن تحتسى شيئا ؟

ـ لم لا ؟.. أليست هذه هى المقهى التى غازلت فيها بيت وانت بعيد عنها ؟

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ قلت ان بيت حكت لى كل شيء .
دخلنا ، طلبت ترود قدحا من الينسون وطلبت عصير عنب .
وفجأة قالت ترود تخاطب صاحب المقهى :
ـ هل تتذكرنى ؟
أجاب الرجل على الفور :
ـ طبعا . لقد أتيت مع رجل بدين بوجهه ندبة .
تحولت ترود الى وقالت :
ـ هل ترى ؟
ثم عادت تخاطب الرجل فقالت :
ـ انت لم ترني ، لقد أتيت اليوم ، انما رايت اختى التوام .
ـ ومع ذلك فقد بدا لى ...
ـ أكرر لك انك رأيت أختى التوام .
عاد الرجل الى غلايته وقد تملكته الدهشة . ورفعت ترود قدحها وهى تقول :
ـ لنشرب نخب صحتنا . هل ستشرب انت نخب بيت او نخب صحتى أنا .
ـ نخب صحتكما معا .
ـ انت ماكر ، لاتريد ان تورط نفسك .
وضعت قدحى الفارغ فوق المنصة وانا اقول :
ـ ليس صحيحا أن لها أختا توأم . قالت لك ذلك لكى ترى ان كنت تصدقها
ابتسم الرجل مرتبكا ، لعله أحس بأنه مشترك فى لعبة لا تهمه قال :
ـ بالنسبة لي انتما زبونتان سواء كنتما توامين ام لا .
خرجنا من المقهى ، وسألتنى ترود :
ـ لماذا قلت للرجل اننى بيت ؟
ـ قلت الحقيقة . فقد كان لقبلتك تأثير غريب .. عندما قطعتها احسست تماما أن بيت هى التى معى .
ـ فلنسلك هذا الطريق .. سنعود الى البنسيون خلال ازقة صغيرة جميلة .
ولكن ماكدنا نقطع بضع خطوات ، هى امامي وانا خلفهـــا ، فى الطريق القديم المبلط بين سورين من الحجارة اليابسة حتى تحولت الى وسألتنى :
ـ واذا كنت انا بيت حقا ؟

اجبت وانا ابتعد عنها قليلا :
ـ لست بيت ، تريدين أن اتصورك هي .
ـ لماذا ؟.. ولأي سبب ؟
ترددت قليلا ثم أجبت :
ـ قلت ذلك بنفسك . لانني أروق لك ، واذ تفكرين في أنني اريد ان ابقي مخلصا لاختك فانك تريدين ، ايهامي انك بيت ، أن تجعليني خائنا .
ثم أردفت :
ـ الغريب هو انني اود الاعتقاد بأنك بيت .
ـ لمـاذا ؟
اجبت في صدق :
ـ حسنا . لا استطيع انكار ذلك . كانت بيت تريد ان نمارس الحب معا ، وان نموت معا . اذا استطعت أن تحمليني على الاعتقـاد بأنك بيت فربما اتمكن من ممارسة الحب معك من غير سماع اقتراح الموت .
ـ اخبرتك انك ماكز . وحين يخطر لي أن بيت ، وهي تحدثني عنك ، قالت انها واثقة أنها التقت بيائس مثلها .
قلت مصححا على الفور بدون حماس :
ـ صحيح انني يائس ، لكن ليس لي نفس آراء بيت فيما يتعلق باليأس .
ـ ماهو رايك ؟
ـ رايي أن اليأس يجب ان يكون الحالة الطبيعية للرجل ، وليس هناك جدوى أو داع للوصول الى الانتحار .
واذ رايتها تنظر الى بطريقتها الساهمة المتسائلة ادركت على الفور انها لم تفهم . قالت :

ـ اذا استمررت في التظاهر بانني بيت فليس ذلك بسبب يحملني على ممارسة الحب معك ، فالموت والحياة بالنسبة لبيت شيء واحـد لا يمكن التفرقة بينهما ، وبصفتي بيت يجب حتما ان أتخلص منك .
ـ وبصفتك ترود ؟
ـ من يدري . لكنك تريد أن تبقى مخلصا لبيت ، اليس كذلك ؟ امامنا نظريتان اذن . اما ان تتصور ان ترود هي بيت ولا تمارس الحب معها واما لا تتصور ذلك وتمارسه . او بالاحرى لا تمارسه لان ترود ليس لديها اية نية في الموت .

ـ لكن يمكنك دفع الوهم حتى التظاهر بالانتحار .
ـ وكيف التظاهر بالانتحار . الانتحار لابد ان يكون حقيقيا .
وهكذا ، وبطريقتها فى السخرية من كل شيء وضعتنى أمام خيار : اما أن أتصور انها بيت والا اتجاوز الحدود التى حددتها أختها ، واما ، وهذا شيء قد حدث فعلاً ، ان اقع تحت اغراء اخت المرأة التى احبها ، واتورط معها فى مغامرة صيف عادية على شاطيء البحر . ومهما يكن فقد أصررت :

ـ انت على حق . أود أن تكونى بيت وأن تتصرفى كترود .
ـ آه ، آه ، اه . تريد ان تأكل فطيرتك مع احتفاظك بها للغد ، (ثم بلهجة الجد فجأة) اذا مارست الحب معى فسوف تمارسه مع نموذج من افضل نماذج الجنس الجرماني .. مع فتاة سليمة ونظيفة وشريفة وبسيطة وصريحة . اما اذا اصررت على العكس بأن أتشبه ببيت فسوف تجد بين يديك فنانة مزعومة متصنعة، عقلانية منحطة ، ولن تحصل علي شيء نظرا لانها لاتريد أن تسمع شيئا فيما عدا الشروط التى تعرفها .
قلت متهربا :
ـ الواقع أنك تكرهين اختك . جئت الى نابولى وفى ذهنك أن تحلى محلها .
ـ كلا . انا لا أكرهها ، لكننى لا اطيق التصنع .
ـ ماذا تعتقدين ؟
ـ لا شيء .
ـ هل تظن انها تحبك حقا ؟.. كلا . انت واهم ، فهى تحب نفسها متنكرة فى صورة كلايست . الست بالنسبة لها الا هنرييت فوجل ، اى زميل محتمل للانتحار . وستقوم معك بمهزلة الانتحار حتى نقطة معينة كما يفعل كل المتصنعين :
ـ حتى اية نقطة ؟
ـ الموت . ليس موتها بالطبع وانما موتك انت لانك ربما تجهل ان بيت جبانة .. جبانة جدا . تتحدث عن الموت لكنها تخشاه . ثم ان الممثلين لا يموتون . صحيح انهم يتظاهرون بالموت على خشبة المسرح ، ولكن ما أن تهبط الستار حتى ينفضون ثيابهم ويمضون لتناول العشاء مع أصدقائهم .
ـ هذه مهنة كل الممثلين .
ـ على المسرح هى مهنة . ولكن فى الحياة هى تصنع . انك

تدافع عن بيت ، اعرف لماذا تدافع عنها .
ـ لمــاذا ؟
ـ لان فكرة الانتحار المزدوج تثيرك جنسيا . انت الاخر عقلانى منحط مثل بيت . تريد الا أمنحك وهم الحب فحسب وانما وهم الموت أيضا .
ـ يمكنك ان تمنحيني هذا الوهم في حالة واحــدة ، وهى ان تطلبي مني أن أموت معك حقا .
ـ حقا . وما معنى كلمة حقا هذه .
ـ هذه أشياء لايمكن تفسيرها . انها تحس ، هذا كلّ شىء .
راحت تضحك فى شىء من الخبث وقالت :
ـ من الصعب تصنع الانتحار . يمكنني أن أتدرب . فمن يدرى، ربما أفلح .
كنا قد وصلنا امام باب البنسيون فى ظلام شبه تام ، فقــد اخفت سحابة القمر . فجاة تناهى الى سمعى ، فى جوف الظلام ، صوت دقات ساعة الكنيسة فتوقفت لكى أعد الدقات . وفى نفس اللحظة انقشعت السحابة عن القمر واضاء وجهــا ينظر الينا بعينين متسعتين خلف قضبان الباب . كانت أم ترود ، التى هتفت قائلة :
ـ أسرعى ياترود . . أسرعى . . بيت تتكلم فى التليفون مــن ميونيخ .
لم تبد اللهفة على ترود للاتصال باختها ، قالت :
ـ هلْ بيت هى التى على التليفون ؟
ـ كلا . . قيل لى أنها ستتكلم بعد خمس دقائق . . مســـاء الخير يامسيو لوسيو . . ماذا تنتظرين ياترود ؟

ـ هلْ تريد أن تتكلم معى أنا ؟
ـ نعم ، نعم ، معك انت .
انفتح الباب ودخلت ترود واختفت راكضـــة ، وجاءت الام للقــائى .
ـ هلْ استمتعتما بالنزهة ؟
ـ نعم . جدا .
ـ اراهن انكما تحدثتما عن بيت .
ـ ما الذى يحملك على هذا الاعتقاد ؟
ـ آن امر اختين توامين لغريب ، فهما تفكران وتحسان أحيانا بنفس الاشياء وأحيانا لا . واذا عاشت احداهما مغامرة فيمكن أن

تعيشها الاخرى ولو فى مكان اخر بعيد . صفوة القول ان التوامين صديقتان ذات يوم وعدوتان يوما آخر ، ذات يوم متواطئتـــــان ومتنافستان يوما اخر .

ـ وماذا يحدث فى حالة ترود وبيت ؟

ـ تريد أن تعرف الكثير . سمعت ان الايطـــاليين مغرمون بمغازلة النســاء . لكننى لم أعلم أنهم متطفلون . الى اللقاء ، اتمنى لك ليلة طيبة .

قالت العبارة الاخيرة فى شىء من السخرية ثم أولتنى ظهرها ، واختفت خلف البوابة فى ظلام البهو الكبير .

- ٩ -

لماذا انتحر كلايست ؟ شغلني هذا السؤال طوال نهـــار اليوم التالى ، كان سؤالا لا يقل اهمية كما يبدو لان كلايست ، كما قالت ترود ، هو القدوة التى تلهم اختها ، ثم ان السؤال كان يستتبع حتما سؤالا آخر وهو أن كلايست انتحر لاسباب شخصية تلاقت معها فى لحظة ما اسباب اخرى شخصية خاصة بهنرييت ، وانتحارهما المزدوج كان فى النهاية عبارة عن انتحارين مختلفين حتما الا اذا كان العاشقان قد انتحرا لسبب اخر يخصهما معا .

اعود فاقول ان سؤالي لم يكن عديم الجدوى حقا كما يبدو . والحق ان ترود كانت تتهم أختها أنها تبحث عن رجل تشركه فى مصير لا يعنى أحدا غيرها . ولو أننى قبلت ان انتحر معها . فما كنت لاموت بسبب يأسى وانما بسبب يأس بيت . أعني ان انهى حياتى ارضاء لها . والدليل ان يأسى لم يكن يدفعنى الى الانتحار المزدوج ، لكننى واثق الان كل الثقة انه يدفعنى الى ترسيخ اليأس . فحبى لبيت وحده يمكن أن يحملنى على تغيير الفكرة كما يحملنى التخلي عن مشروعى من أجل المراة التى أحبها .

ولكن كل ذلك لم يكن مؤكدا . صحيح ان لى انا وبيت مفهوما مختلفا عن اليأس . ولكن حبى لبيت وحب بيت لى هو الســبب الوحيد الذى يحملنى على الموت معها دون اى شرط ذهنى ، اذا تغلبت ارادة بيت على ارادتى . ومع ذلك أحب بيت وهى تحبنى خصوصا ان هناك فى أعماق حبنا الاحتمال المطلوب أو المرفوض ــ وهــذا لا اهمية له ــ للموت معا . كان ذلك حقيقيا بحيث أحسست بأننى مشدود الى ترود بسبب شبهها بأختها . كان لترود أن تقلد أختهـا فى كل شيء فيما عدا أن تنتحر معي .

واذ بلغت بأفكارى هذه النقطة ، بعد دورات طويلة ، عدت الى نقطة الانطلاق ، اى اننى ، من خلال ترود ، أستطيع التوهم اننى أحب بيت ، وفى النهاية هناك الانتحار المزدوج الذى لايمكن تقليده أو التظاهر به ، وسينتهى بتحطيم الوهم نفسه . من الاحرى ان تقع مغامرة مع ترود كى أرى اذا كان يمكننى من خلالها أن تكون لى مغامرة

مع بيت دون الاضطرار بانهائها بانتحار مزدوج . لم يكن كلايست قدوة لي ، ولم اكن المانيا بالنسبة للرومانتيكية الجرمانية . بدا لي انني يجب ان أتمسك بالحكمة الرواقية المعتدلة .

نظرية ممكنة ومعقولة أكثر منها مشروع حقيقي . اذن فيجب ان ابقى مخلصا لبيت لانني احبها ولا احب ترود . وفضلا انني خنتها مع أختها ، وحتى اذا ماتصورت أنني امارس الحب معها فكيف يكون وجهي وانا اتقدم اليها في المانيا . في مواجهة بيت بلحمها وشحمها ، سوف تكون السفسطة الموحية بالشبه قد تكشفت أنها حجج من اجل بلوغ غزو سهل .

قضيت اليوم بين المشاغل المتعددة العادية التي تشغل المرء عندما يقضي أجازته على شاطىء البحر . فذهبت المراتان ، في ذلك الصباح الى جروتا ازورا ، احسست ببداية قلق عندما خطر لي انني لن أرى ترود طوال اليوم ، وانني لن أستطيع ان اتوهم انني احب بيت من خلالها . طرحت عني ذلك القلق ، وانا اقول لنفسي ان الامر لا يتعلق باكثر من يوم واحد . فان الام والابنة لابد ستهبطان في المساء في غرفة الطعام بالبنسيون .

لم تات أي منهما ، بقيت مائدتهما خالية وحزينة . وكعادة بنسيونات العائلات ، فمنشفة كل منهما موضوعة في مكانها بجوار زجاجات النبيذ والمياه المعدنية المملوءة . ظللت أحدق في المقعد الذي شغلته الواحدة أو الاخرى من الاختين ، وجمع غيابهما اليوم بينهما وخلط بينهما . فأي منهما كانت تنظر الي دون أن أستطيع رؤيتها ؟ وأي منهما تجلس حقيقة على المقعد الخالي . اهي بيت أم هي ترود ؟ أحس بأن عينين كئيبتين تنظران الي واحيانا اخرى بأن عينين تومضان بسرور بهيمي وتحدقان في . يخيل لي انني أرى شبحيهما الواحد بعد الاخر ، أحدهما لا يلمس الطعام للحظات والاخر يلتهمه وهو خافض الرأس . تهز بيت رأسها كأنها تقول لي ان الحب بيننا قرين بالموت . أما ترود فتغرز اصبعها في فمها لكي تجعلني افهم انني أستطيع ان أمارس معها الحب وقتما أشاء .

قمت بجولتي الليلية بعد العشاء ، رأيت أن الوحدة تثقل علي . احسست من جديد بالرغبة في أن أشغل نفسي في التفكير في ترود لكي اجد بيت . أحسست من جديد بذلك الاحساس الحقيقي بأن بيت هي المراة الوحيدة التي أحبها ، وانها الوحيدة التي احبتني . لم يكن بمقدوري أن الجأ الى هذه اللعبة مدة طويلة ، أن أتوهم حب

بيت من خلال ترود . لابد ، اذن ، الحصول على عنوانها والرحيل الى المانيا فى أسرع وقت .

هبطت فى اليوم التالى مبكرا ، ومضيت الى الشاطىء . ولان الوقت مبكرا فقد جلست دون ان أخلع ثيابى فوق مقعد مستطيل فى الشرفة . فى جيبى مجموعة خطابات كلايست ، بدات قراءتها . فجاة احسست بيدين على عينى سمعت صوت ترود يقول بمزاجها المعتدل المعروف : خمن من انا فقلت : ترود .

ــ أنت مخطىء . انا لست ترود .. أنا بيت .

لم يسعنى الا ان أفكر ان اللعبة قائمة على اساس استخدام الشبه الموجود بينهما لخلق الوهم واستمراره . أتيت بحركة تدل على الضجر ، امسكت باليدين اللتين تحجبان عنى النظر وخلصت عينى منهما ، ارغمت ترود على الدوران حول مقعدى ، وقلت لها فى قسوة :

ــ كفى عن هذه الحماقات . اعطينى عنوان بيت فى المانيا .

ــ وماذا تريد ان تفعل بهذا العنوان ؟

ــ اريد ان ارحل وامضى لرؤيتها . سارحل قريبا . ربما غدا .

نظرت الى وفى عينيها اهتمام شديد ، وراحت تراقبنى . وقالت :

ــ مهما يكن فلن أعطيك العنوان .

ــ لماذا لاتريدين اعطائى اياه ؟

اجابت ببساطة :

ــ لاننى لا اريدك ان ترحل .

ــ لكننى اريد أن أرى بيت .

قالت فى شىء من التوسل :

ــ ابق هنا واقنع بى ، فاننى اشبهها كثيرا . وعندما نرحل سوف تأتى معنا وسنمضى معا لرؤية بيت فى المانيا .

كان اقتراحا معقولا ومقبولا . دهشت وانا أرى اننى لا أشعر ازاء هذا الاقتراح بلهفة رجل يريد أن يرى بأى ثمن المرأة التى يحبها . احسست بتلك اللهفة فى لحظة واحدة ، عقب العبارة التى نطقت بها ترود انه يجب أن أقنع بها ريثما ارى بيت . وفى نفس الوقت غمرتنى بلبلة بها خليط من الفضول والاغراء والريبة ، سألتها :

ــ الى اى مدى يجب ان أقنع بك ؟

ـ الى المدى الذى تريد .
ـ فى كل شىء ؟.. ولكل شىء ؟
ـ نعم .

ماذا أرادت أن تقول ؟.. هل تعنى انها على استعداد لان تدفع الوهم حتي الانتحار ، شريطة أن أمارس الحب معها . الفريب اننى بينما احدق فى عينيها الجميلتين الخضراوين الشبيهتين بعينى بيت ، شعرت فى السويداء من قلبى أننى لا اريد أن أعرف ما ارادت أن تقول باستخدامها هذه العبارة المبهمة « اقنع بى » قلت وأنا استخدم نفس الابهام :

ـ اذا اردت أن ابقى فاعطينى العنوان ، وسوف نرى بعد ذلك .
ـ سوف نرى ماذا ؟
ـ لا أريد أن أفاجىء بيت بدون اخطارها . اذا اعطيتنى العنوان فسأكتب اليها كى أعرض عليها مشروعى .
ـ ماهو مشروعك ؟

اجبت فى حزم وفى كثير من العنف ايضا :

ـ أريد أن أعرض عليها أن تعيش معى ، هنا فى ايطاليا ، بعيدا عن موطن كلايسمت .
ـ آه ، حسنا . وماذا تظن ؟.. أن تقبل ؟
ـ لا أدرى .. وانت ، ماذا تظنين ؟
ـ انها لن تقبل ، فهى متعلقة بزوجها بكلايسست كثيرا .
ـ سوف نتحقق من ذلك . اعطينى العنوان فى انتظار ذلك .

نظرت الى دون أن تنطق بكلمة ثم قالت :

ـ ساعطيك عنوانها اذا وعدتنى بالبقاء هنا والرحيل الى المانيا معنا فى نفس الوقت .
ـ الى متى تنوين البقاء هنا ؟.
ـ اسبوع .

حسبت حسبتى سريعا . سرعان مايمر الاسبوع ، وسانتهز الفرصة للحصول على أكبر قدر من المعلومات من ترود عن بيت ، وفوق ذلك ، يجب أن تبقى العلاقة بينى وبين ترود طيبة اذا أردت أن اري بيت دون علم زوجها . لابد لى أن أجعل ترود شريكتى ، قلت :

ـ اتفقنا . اعد أن انتظر اسبوعا .

صفقت بيديها فى سرور صادق وصبياني . ثم القت بذراعيها حول عنقى لكى تقبلنى فى وجنتى الاثنتين ، وقالت :

ــ مرحى . سأكتب لك عنوانها على هذا الكتاب فورا .

واخرجت من حقيبتها قلم حبر ووضعت كتـــاب كلايست على ركبتيها وفتحت صفحاته الاولى ، وصاحت تقول على الفور :

ــ أنا التى أهديت هذا الكتاب لبيت ، فكيف وقع بين يديك ؟

اجبت : أيدهشك ان تريه معى ؟

ــ نعم ، شيئا ما .

ــ لمـــاذا ؟

ــ لان الكتاب كان شيئا حميما وسريا بيننا نحن الاثنتين .

ــ اذا نظرت هنا ، ستعرفين لماذا أعطتنى اياه .

أشرت لها الى الخطاب الذى تعلن فيه هنرييت فوجل عن موتها مع كلايست . قرات ترود فى اهتمام ثم هزت راسها ، ووضعت سبابتها على صدغها ، وهى حركة ياتى بها الناس عادة للاشارة الى جنون الاخرين ، وقالت :

ــ دائما كلايست .. دائما كلايست . ولكن ما شان هـــذا الكاتب الكبير الذى مات منذ اكثر من قرن بهذه المولعة بالفنون التى لا يرجى صلاحها ، والفاشلة التى هى أختى . انتظر . سأكتب لك العنوان .

وخفضت رأسها الكبيرة الشـــقراء وكتبت العنوان بسرعة ثم اعادت الى الكتاب . وقلت :

ــ كنت أريد أن ارسله اليها ، ولكننى ساعيده اليها الان بعد أسبوع ، فى المانيا .

قالت فى شيء من الاحتقار :

ــ لا حاجة لك الى اعادته اليها . لا تقلق ، فان لديها نسخة أخرى .

واردفت تقول :

ــ كفى الان حديثا عن بيت . ما رايك ان نمضى للنزهة فى قارب ؟ سوف نستحم فى احدى المغارات ثم نعود الى الفندق لتناول الغداء . انه مكان جميل .

كان برنامجا لا بأس به ، تعرضه على بعينين تتألقان لهفة . اجبتها فى شيء من عدم المبالاة .

ــ هذه فكرة رائعة .

ـ حسنا . هلم بنا . اين مقصورتك ؟
ـ اليس لك مقصورة ؟ أليست أمك هناك ؟
ـ انها فى البنسيون . أو بالاحـــرى ، أنا التى أجبرتها على البقاء . أرادت المجىء لكننى قلت لها اننى ارغب أن أكون وحدى معك. تحرك قليلا .. هلم بنا نخلع ثيابنا فى مقصورتك .
قمت وتقدمتها الى المكان المخصص للنزهة . لم يكن هناك أحد فى ذلك الوقت المبكر من الصباح . عندما بلغنا مقصورتى فتحت الباب وقلت :
ـ ادخلى أنت أولا .. سادخل بعد أن تفرغى .
نظرت الى والى الباب المفتوح ، لمع وميض من الخبث فى عينيها فجاة وقالت :
ـ واتتنى فكرة . انه لا يوجد أحد . سيعتقدون اننى زوجتك تعال معى . سوف نخلع ثيابنا معا .
وارتدت فجاة الى اخر المقصورة وهى تغمز لى بعينها كالطفلة . وعندئذ ودون أن انطق كلمة دخلت واغلقت الباب . وأصـــبحنا منحشرين فى المقصورة مع رائحة الخشب الجميلة المزوجة برائحة الملح وحرارة الشمس . أحسست بالضيق أكثر مما أحســست بالارتباك ، تساءلت لماذا ارادت ترود أن تدخل المقصورة معى فى نفس الوقت . لسوف أخمن سببا يتجاوز الدلال الجرىء شيئا ما . لكن اى سبب . لم أستطع أن أحدد ذلك . خلعت فانللتى وأنا أرفعها فوق راسى وأفكر . وما أن خرجت منها عارى الصدر حتى رأيت ترود تنظر الى وهى بكامل ثيابها .
فقلت :
ـ من منا سيبدأ بخلع ثيابه ؟.. ليس لدينا غير منشفة حمام واحدة لكى نستتر بها . فمن الذى سيستخدمها أولا ؟
أسرعت تقول : اخلع ثيابك أنت الاول .
وترددت قليلا قبل أن تستطرد فى لهجة غريبة لا أثر فيها للدلال ولا للضيق :
ـ اذا اردت أنت فلست بحاجة الى استخدام المنشفة ، فلن تكون أول رجل أراه عاريا ، فنحن الالمان لا نعزو للعرى هذه السمة الممنوعة التى يعزوها اليه الايطاليون . فقد اشتركت فى العـــام الماضى فى أحد معسكرات العراة على بحر الشمال .
كان استخفافها بهذا الموضوع واضحا بما فيه الكفاية . ولكننى

أرى في تفسيرها شيئا كما لو كان فكرة او اختيارا غير محدد وان كان حقيقيا . شيئا كان ذريعة كي تتصرف كما يحلو لها . قلت في خبث :

ـ في هذه الحالة اقترح عليك بأن نخلع ثيابنا في وقت واحد بدون استخدام المنشفة . وعلى كل حال فاننا دخلنا المقصورة لكي يرى كل منا الاخر . فاي سوء في هذا ؟.. سوف اراك وسوف ترينني . اتفقنا ؟

احتجت على الفور قائلة :

ـ لو انك الماني لقبلت ذلك . لكنني اعرفكم أيها الايطاليين . كلا ، كلا لا اريدك أن تنظر الي وانا اخلع ثيابي . لو كنا عشاقا لفعلت ذلك . لكننا لم نرقد معا . ثم انك ايطالي .

قلت وقد خاب املي بعض الشيء :

ـ يمكنك ان تخبريني لماذا أردت ان ندخل معا .

هزت كتفيها وأجابت :

ـ هكذا .. لكي نفعل اسرع .

قلت في شيء من العجرفة والغيظ :

ـ حسنا . انا بالذات من الايطاليين الذين يحبون النظر الى النساء . واذا كنت قد دخلت معك مقصورتي فلكي أرى ان كنت تختلفين عن بيت ، ليس في الوجه فانني أراه ، وهو مشابه ، وانما في الجسم .

بلغت دهشتي حدها وانا أرى ترود غير غاضبة ولا تشعر بأية اهانة ، وانما سألتني بشيء من الفضول :

ـ كيف ستفعل لكي ترى اذا كان جسمي مختلفا عن جسم بيت ؟.. انك لم ترها عارية أبدا .

ـ بل رأيتها بالتاكيد . ان زوجها فخور جدا بها الى حد انه ذات يوم ، وعلى شاطىء مقفر ، اضطرها ان تدعني التقط لهـا صورة وهي عارية تماما .

ـ حقا ؟.. وما رأيك في ذلك ؟

ـ أرى أن بيت جميلة جدا ، وان زوجها جد مغرم بها .

ـ هذه هي الحقيقة . انه مغرم بها .

اردفت تقول بعد لحظة صمت في لهجة عارية وخاطفة :

ـ حسن . اذا كنت تتمسك بذلك كثيرا فساخلع ثيابي امامك ساقول لنفسي انك الماني وانك تنظر لكي تعرف اذا كنت أشبه بيت

ام لا فحسب . لكن يجب ان تخلع انت ايضا ثيابك .

وهكذا عادت الى فكرتها الاولى . ارادت ان تريني نفسها عارية شريطة ان اتعرى انا الاخر . ومرة اخرى بدا ان اصرارها مجرد حجة ، قلت بلهجة قاطعة هذه المرة :

ــ كلا . كلا . لن يكون هذا . اردت أن امتحنك ، فنجحت. يكفي هذا . سأخرج الان . ارتدى ثوب الاستحمام ، وعندما تخرجين سأدخل انا .

ــ انت اول رجل التقى به لايريد أن يتعرى امامي .

ــ لا اهمية لهذا . قد يكون الايطاليون مولعين بالتلصص والنظر الى النساء خلسة . ولكن من النادر أن يعرضوا أنفسهم للفرجة .

ينبض صوتى بنوع من الاحترام والكبرياء . ومع ذلك ادركت أن سبب غضبى يرجع الى شيء اخر . وبدورها ، وبرياء تام مثلى ، غضبت ترود وقالت :

ــ تستحي أن تتعرى لانك ايطالى مشحون بالمبادىء الكاذبة .. العرى ، بالنسبة لنا نحن الالمان شيء صحي ونظيف وحق . لا أخاف أن يرانى أحد . انظر الى وافحصني جيدا وتحقق اذا كنت اشبه بيت .

وخلعت ثوبها وهي ترفعه من فوق راسها بحركات خرقاء . لم تكن ترتدى شيئا تحته ، تتجرد سريعا فى اى وقت وفى اى مكان وتستحم عارية تماما . دون أن تعيرنى اهتماما ، كما لو انني غير موجود اخرجت من حقيبتها ثوب الاستحمام ، وانحنت لكى تلبسه من ساقيها . دون ان تتوقف لكى تدعنى اراها تماما كما تفعل المراة حين تكون وحدها . واعتدلت بعد ذلك لكى تقول بصوت ساخر وقاطع :

ــ حسنا . كيف تجدنى ؟ هل انا شقراء اكثر من بيت او اقل . وهل انا مجعدة تقريبا ؟

هززت كتفى عندئذ وخرجت من المقصورة .

لم تدعنى انتظر طويلا ، فقد أسرعت بالخروج . هادئة ومشرقة قالت :

ــ انني مستعدة . البس ثوب استحمامك وهلم بنا .

لم انطق . دخلت المقصورة ، ولبست ثوب الاستحمام بسرعة ، وبعد عشر دقائق كنا بعيدا عن الميناء الصغير ، وفى عرض البحر .

كان البحر اشد اهتياجا مما بدا لى عندما راقبته من الفندق . جلست ترود فى مقدمة القارب وتشبثت بيديها على الدربزين ، وعقدت

ساقيها وراحت تصعد وتهبط مع ايقاع الامواج على السور الاحمر لكابرى كخلفية للديكور . أحسست بأنني مضطر ان أرى كيف يلتقى، تحت بطنها المقعرة فخذاها الضامران بلونهما الابيض الذى يشبه لون اللبن ، وبالنمش الاشقر الذى يبدو كأطراف غابة . كنت قد رأيت بيت جالسة بنفس الطريقة فى مقدمة قارب أمام موللر ، ولم تبد مختلفة فى عينى زوجها العاشق ، وفى فكرة ابعاد صورتها هذه فى القارب الذى يعطينى شيئا مشتركا مع موللر سألت فجأة :

ــ ايزعجك أن ألقى عليك بضعة أسئلة عن بيت ؟

ــ لماذا أنزعج ؟.. سل كل ماتريد .

ــ أريد أن أعرف ماذا قالت لك عنى بالتحديد ، فى نابولى عندما التقيتما :

نظرت الى فى شيء من الخبث ، وصخور كابرى تصعد وتهبط خلفها مع اهتزاز الامواج :

ــ انت تعرف ذلك تماما . قالت انها تخاف ان تقع فى حبك .

ــ ولماذا تخاف ؟

نظرت الى بطريقة غريبة . كانت تدرسنى . قالت :

ــ خائفة لانها لم تشأ أن يتكرر معها نفس ماحدث لها مع عازف كمان كان عشيقها قبل زواجها .

ــ وما دخل هذا العازف فى موضوعنا هذا ؟

ــ كان يهوديا .

ــ وبعد ؟

لزمت الصمت بضع لحظات قبل ان تستقر نيتها وتقول :

ــ لم تشأ بيت ان يكون لها اى شيء مشترك مع اليهود . ولهذا السبب ، قبل أن تتورط فى مغامرة غرامية كان يجب أن تتأكد أن الرجل آرى .

غامرنى عندئذ احساس ، مزيج من الدهشة والحذر والسخط ، كما لو كنت ازاء فرية مجافية ولا مبرر لها وصحت :

ــ يبدو ان من المستحيل ان تأخذ بيت مثل هذا الاحتياط . انت التى اقترحت عليها ذلك .

ــ كلا . بل هى التى فكرت فيه ، هى التى ذكرته لى ، ولكى اكون صريحة معك تماما ، ما ان رأيتك انا مساء أمس حتى قلت لنفسى انك يمكن أن تكون يهوديا .

ــ ما الذى جعلك تفكرين هكذا ؟

ــ انت أولا مفكر ، وكل المفكرين تقريبا ، وفى المانيا على الاقل ، يهود .
ثم ان لك سمة اليهود .
ــ وما هى تلك السمة ؟
ــ انت أسمر ، ولست طويل القامة ، وعيناك ســــوداوان ، وشعرك مجعد .
ــ لكن غالبيةُ الايطاليين سمتهم كما تقولين .
ــ ثم ان الامر مجرد تخمين ولكن لابد من التاكد .
ــ التاكد من ماذا ؟
ــ التاكد من اننى امام رجل استطيع الوثوق به .
واردفت : من المؤكد ان بيت لا تهتم ان كنت يهوديا ام لا . كما اهتم انا ، فان بيت لا تنتمى للحزب .
سألتها : لنفترض لحظة اننى يهودى ، فماذا تفعلين ؟
ــ سأرجوك عندئذ ان تعيدنى الى الشاطىء .
نظرت اليها فى اهتمام لكى ارى ان كانت تتكلم جديا . نعم . كانت تتكلم جد ، اتسمت قسمات وجهها بالقسوة مع احتفــاظه بتعبيراته الصبيانية .
ــ لن تتصرف بيت بهذه الطريقة .
ــ انا وبيت شخصان مختلفان ، وقد قلت لك ذلك .
قلت عندئذ فى برودُ :
ــ حسنا .. حسنا .. لنعد الى الشاطىء .
وادرت القارب ، فى طريق العودة ، ورحت اجدف دون ان ازيد .
ظهر عليها الذعر عندئذ وقالت :
ــ هل انت يهودى .. نعم ام لا ؟
اجبت : اننى ذهبت الى المانيا منذ ايام . واعرف هذا النوع من الامور . اذا لقى على احد سؤالا كهذا فاحيانا اقول الحقيقة ، اى اننى لست يهوديا ، ولكننى أوثر بعد ذلك الا اتعامل مع مثل هؤلاء الاشخاص .
لزمت الصمت لحظة ثم استطردت :
ــ سأرحل غدا الى المانيا وسأرى بيت . وهى على الاقلْ لن تلقى على سؤالا كهذا .
تأملتنى ترود لحظة ، فى شىء من الحيرة والشك ثم قالت :
ــ لا اريدك ان ترحل . وعدتنى انك سترحل معنا بعــــد

اسبوع . اذا لم تكن يهوديا فما الذي يمنعك أن تثبت ذلك . تقول انك تعرف المانيا ، فيجب أن تعرف اذن ان الفوهرر يحظر علينا معاشرة اليهود . انا أريد الاحتفاظ بك . فما الذى يخيفك . اننى لا أسألك شيئا غريبا .. لكى يطمئن قلبى .

كففت عن التجديف لكى أسألها :

ــ صفوة القول ، ماذا تريدين منى ؟

ــ أن تقدم لى البرهان على أنك لست يهوديا .

ــ أي برهان ؟

ــ حاولت الحصول على هذا البرهان بكل الوسائل منذ لحظات ، ولكنك لم تفعل شيئا لكى تقدمه لى .

ــ سألتها فى دهشة :

ــ وأين كان هذا ؟

ــ فى مقصورتك . عرضت عليك أن نتجرد من ثيابنا معا لاننى اردت ان أرى ان كانت عملية الختان قد أجريت لك ، لكنك لم تدعنى أرى شيئا .

تملكتنى دهشة كبيرة . اذن فذلك الاقتراح الغريب والمقلق لتعريتنا معا لم يكن الا كنوع من سؤال يلقيه على موظف بيروقراطى كى يرى ان كانت أوراقى الشخصية مستوفاة . صحت فى قوة :

ــ آه ، اذن الامر كذلك . افهم الان لماذا أردت ان ترينى عاريا هذا صحيح ، اليس هذا ماكنت تريدين .. أن اريك ختانى ؟

اجابت بلهجة جدية ومهذبة جدا ، كما لو كانت طبيبا يسأله مريضه هل يتجرد من كل ثيابه . اجابتنى .

ــ نعم . هذا صحيح . اذا لم يزعجك ذلك .

حسبت الامر فى ذهنى بسرعة . اذا رفضت تقديم هذا البرهان الشهير كما سولت لى نفسى ، ورافقت ترود حتى الشاطىء فان علاقاتى بها ستنقطع كما يبدو وتليها علاقاتى ببيت بالطبع فلا يمكن التفرقة بين الاختين . ولهذا رأيت ان من الاوفق ان أرضى بالامر الواقع وان أقدم مستنداتى الجنسية لترود كما يقدم المرء جواز سفره لرجال بوليس الحدود . ومهما يكن فقد بقى فى أعماقى فضول كبير .. ميل مشابه تقريبا لذلك الذى يحس به شخص ينحني فوق هوة لكى يقيس قرارها بنفسه . كيف تطلب ترود منى ما تطلبه ، وقلت بتلك اللهجة الحزينة الرقيقة التى يتخذها رجال التفتيش :

ــ هل انت على يقين تام من انك تريدين هذا البرهان ؟

هجمت موجة على مقدمة القارب ، وطارت ترود فى الهـــواء تقريبا . وما كادت تهبط حتى قالت :

ـ انا على يقين تام بأنني احب وطنى . ووطنى يريد أن احصل على هذا البرهان ، ولهذا أسألك اياه . وهذا كل شيء .

قلت فى اصرار : هل يجب أن تحبى وطنك دائمــــا فى كل الحالات ؟

ـ اظن ذلك .

استعدت مجدافى دون ان انطق ، جدفت ، ثم قلت :

ـ أما أنا فلست المانيا ، وهناك ، فى وطنى ، فى الوقت الحاضر على الاقل ، ثمة أشياء لايجب ان نطلبها .

ـ نعم . أعلم انك لست المانيا .

ـ وأخيرا .. ما الذى يضطرنى أن أقدم لك هذا البرهان ؟

ـ سبق ان قلت لك ، لكى يطمئن قلبى .

ـ ولكن ما الغرض من ذلك ؟ ان بيت هى التى احبها ولا احبك أنت . وبيت لا تطلب منى أى برهان . ليس هناك شيء بينى وبينك ، ولا يمكن أن يكون بينى وبينك أى شيء . فلماذا هذا البرهان اذن ؟

كلمتها دون أن أنظر اليها وعيناى مطرقتان الى قاع القارب . وبعد صمت قصير سمعتها تقول فى اذعان :

ـ أنت على حق . فلنعد .

وعندئذ رفعت راسى .

أدهشنى التغيير الذى طرأ على ملامحها . كانت متكومة فى المقدمة تنظر الى بعينين خاملتين بالقلق ، نفس القلق الحزين اليائس الذى كنت أقرأه كل ليلة على وجه بيت ونحن نتناول طعام العشاء فى غرفة الطعام بالبنسيون . لم تعد ترود فى تلك اللحظة ، وانمــا كانت بيت رغم قصة البرهان السخيفة ، ولان بيت ما كانت لتطلبها منى ابدا فقد اثارت قلقى كما لو كان اعترافا بالحب لم أتوقعه . قلت لنفسى عندئذ ان ترود هى التى أرادت أن ترى ختانى ، ولكن بيت هى التى ستراه . سيبدو هذا التمييز دقيقا ولكنه لم يكن كذلك فى عينى بسبب رغبتى المتقدة والمترقبة دائما . سألتها فى هدوء فى صوت خافت :

ـ اذن ، تريدين هذا البرهان حقا ؟

رايتها تأتى برأسها بايماءة ايجابية . لم تكن ترود وانما بيت هى التى أومأت بايماءة القبول ، احسست بأن طلبها ليس سخيفا ،

وليس بيروقراطيا واجب التنفيذ ، وانما فضول شهوانى غامض ومتملق . فرفعت يدى الى حزامى وفككت الرباط المطاط للباس الاستحمام ، وأنزلته فى بطء بطول ساقى ، وتمتمت فى صوت خافت من غير أن ارفع عينى ، وانا أنظر الى أسفل بطنى .

ـ هاهو المستند الذى تريدين رؤيته . أوراقى مستوفاة . كان فى مقدورك أن تجنبينى هذه المحنة .

وأتيت عندئذ بحركة لكى أعيد اللباس مكانه ولكننى سمعت صوت ترود يقول متوسلا :

ـ كلا . ارجوك . ابق كما انت لحظة أخرى .

ـ لماذا ؟

ـ البحر جميل ، والريح والشمس والصخور ، وانت وسط كل هذا ، وتشتهينى .

ـ انا لا اشتهيك وانما اشتهى بيت .

ـ أعرف ذلك . لكن الامر جميل هكذا .

قلت وقد تملكنى الغضب فجأة :

ـ الامر ليس جميلا . انه عار وخسة ودناءة .

ـ ولماذا خسة ؟

فكرت قليلا ثم قلت فى هدوء :

ـ لان من الخسة أن يكذب المرء على نفسه لكى يرضى غيره .

أوشكت أن اضيف مرة أخرى : ماكانت بيت لتطلب منى هذا ابدا . أطبقت شفتى ، فان بيت عندما شجعتنى بنظراتها لكى أرد على التحية الفاشية لموللر اتت عملا شائنا وخسيسا كهذا ، ان لم يكن اسوأ .

خيم الصمت لحظة . انظر الى بطنى ولا أراها . سمعت صوتها مرة اخرى :

ـ لك أن تتصور ، اذا أردت ، اننى بيت واننى طلبت منك هذا البرهان لاننى اريد أن أمارس الحب معك .

ـ بيت لا تريد ممارسة الحب معى .

ـ من يدرى ؟ دعنا نحاول .

ما كان أحلى صوتها ! بتلك الحلاوة المتواطئة والمثيرة للرغبة التى تتولد من رغبة الاخر . فجأة احسست بغضب شديد ، ولكن من نفسى ، وصحت :

— لست بيت ، ولا يمكن أن تفهمي ماهي بيت بالنسبة لي . لم تشعري باليأس أبدا . ولم تتمنى الموت أبدا ، ولم تروعك الحياة أبدا . ما أنت الا فتاة من الشمال جاءت الى كابري ومعها رغبة غبية حمقاء في الوقوع في مغامرة صيفية .

لم تشعر بأي غضب ، بل راحت تضحك ، وهي تقول :

— هذا الشيء لا يفكر كما تفكر انت . ابق كما انت . احب ان انظر اليك . اسمع ماسوف أطلبه منك . انت تحب بيت ، اتفقنا . لا أريدك أن تخونها . ولكن بي رغبة في ممارسة الحب . لعلها غلطة هذه الشمس وهذا البحر . أصغ الى اذن . ابق كما انت، ابسط ساقك . هكذا . والان ، أعطني قدمك . لا شيء . لا تفعل شيئا . قدمك وحسب .

— ماذا تعنين ؟

— سوف ترى .

ونظرت الى نظرة جدية وحاسمة ، وكان الامر يتعلق بشيء عادي وله مايبرره . ورفعت ساقي اليمنى بحركة آلية ، ومددت لها قدمي فأخذتها بين يديها وامسكتها من عرقوبها وبدأت تحركها ذهابا وايابا وفي بطء

أحسست بباطن قدمي يلمس بدنها اللدن والمقاوم والمرن ويتفتح وينشط وهو يتحرك في هدوء كما تتحرك الزوائد المكتنزة والملتصقة لبعض الحيوانات البحرية التي تلتصق بالصخور والتي تعاملها التيارات في هدوء ودون هوادة دون أن تتمكن من قطع التصاقها بها . رفعت عيني ونظرت اليها . رأسها مائلة فوق كتفها ، وعيناها نصف مطبقتين . ومن وقت لاخر ينساب لسانها الوردي من بين شفتيها في حركة ميكانيكية غامضة وساخرة بعض الشيء . ثم حركة قدمي التي توجهها بيديها ، واستمرت هكذا مدة طويلة ثم أطلقت زفرة كبيرة وتشنج جسدها وانزلق في قاع المركب . ولم تطلق قدمي مع ذلك بل راحت تضغطها في صدرها كأنها كنز ثمين ، فجأة ادركت الصمت وسمعت بجوارنا ارتطام الامواج بصخور الشاطيء ، أوشك قاربنا مع التيار أن يصطدم بالصخور فأمسكت بالمجدافين بكل سرعة تاركا قدمي في يدي ترود . وببضع ضربات من المجدافين ابتعدنا عن الصخور ، ثم وضعت المجدافين جانبا من جديد ونظرت الى ترود . وما أن التقت نظراتنا حتى قالت :

— دعنا نستمر .

— اضطررت أن ادعها تجلس على مقعدها من جديد ..

العينان مطبقتان ، واللسان ينساب من بين شفتيها ، والزفرة والانزلاق فى قاع المركب . بقيت جامدة لا تتحرك كأنها تستمتع بلذتها . ونهضت لكى تجلس فى المقدمة . واعدت سروالى مكانه واستعدت المجدافين . وسألتنى راضية ومتهكمة :

— من كنت بالنسبة لك اذن وانت تلاطفنى ؟.. بيت ام ترود ؟

— ماكانت بيت تريد ان الاطفها .

— هل انت واثق ؟.. الارواح الجميلة التى من نوع بيت لها شهية كبيرة .

اخرجت من حقيبتها طاقية من الكاوتشوك الابيض وغطت بها راسها وطوقت شعرها . وقالت :

— سأغطس .

ووقفت فوق المقعد ، والقت بنفسها فى الماء .

وبقيت فى القارب ويدى على المجدافين ، انظر اليها تسبح دون أن تبتعد . وبدا كأن الامواج لا تلمسها فقد كانت حركات يديها سريعة وسليمة وهى تنزلق من موجة الى اخرى بحيث بدت أشبه بسمكة كبيرة لامعة وسوداء براس بيضاء . دارت حول المركب ثم تسلقته بحركة سريعة من يدها ، وبحركة اخرى من صدرها مشفوعة بوثبة سريعة تدحرجت بجوارى ، وجلست فى المقدمة ، لامعة فى زى الاستحمام المتلصق بجسدها . وقالت وهى تخلع طاقيتها وتهز راسها لتخرج الماء من أذنيها .

— لنمض الان لتناول الطعام . اننى أموت من الجوع . أريد ان آكل وآكل كل الاشياء الجميلة بالمطبخ الايطالى . لا أريد الحديث الان عن بيت وعن مشاكلها طالما لم آكل حتى الشبع .

صدقت ترود عندما قالت انها تموت من الجوع . وبرهنت ان جوعها لم يكن تباهيا ونحن نتناول الطعام فى مطعم المصيف . ربما يكون مبعثه عداءها لاختها المعروفة باعتدالها الى حد فقدان الشهية . اكلت كثيرا . الشيء الذى أثار دهشتي أكثر من اى شيء آخر أنها تناولت نفس الوجبة مرتين ، مثلما أرادت ممارسة الحب مرتين فى القارب . رايتها تلتهم طبقين من حساء بلح البحـــر والاسباجتيني باصداف البحر وطبقين آخرين من الجمبرى والسمك البربون ، وطبقين من المشهيات (سلطة وبطاطس محمرة) ، وطبقين من الحلوى (جيلاتى وفطير) ، ومع هذه الوجبة المزدوجة رأيتها تجرع كمية كبيرة من النبيذ . تملأ كاسها وتفرغها بنفس السرعة . وبسبب افراطها فى حركاتها وحديثها ادركت انها ثملت .

احسست بحالة ذهنية مضطربة ، لكنها لم تكن جديدة على . احسست انني أصبحت يائسا لانني غير يائس . أعنى ان اليأس كان كامنا فى داخلى ، لم يمنعنى ذلك من تقدير جمال اليوم وروعة المنظر وطيب الطعام ، وبالطبع ، جمال ترود الغامض المثير . لعل ذلك هو الترسيخ الذى أبحث عنه منذ وقت طويل . يأس مستقر وعادى يتيح لي كل ما اشتهي فى الحياة ، بل وأكثر مما اشتهى فلم أعد أتمنى شيئا آخر . وبدلا من الاستقرار فان ذلك كله يمكن ان يجرني الى نوع من الحياة المخادعة ، أعنى الاحساس انني يائس وفى نفس الوقت أتناول الطعام والشراب باستمتاع وامارس الحب دون تبكيت ، واستمتع بجمال الطبيعة .

ولكي أطرح عنى هذه الافكار المضجرة ، أردت أن أفكر فى بيت . رأيتها بعين الخيال فى غرفة معيشتها فى المانيا تتأمل الشجرة فى حديقتها ، سألت ترود فجأة :

ــ هل هناك شرفة كبيرة مزججة فى شقة بيت تطل عـــلى الحديقة ؟ وهل توجد فى الحديقة شجرة ضخمة ؟

انفجرت ترود ضاحكة وقالت :

ــ ألا يمكن أن نبقى دقيقة واحدة من غير ان تتكلم عن بيت ؟ حسنا . لحسن الحظ انني فرغت من تناول الغداء . لنتكلم قليلا

عنها من جديد . هذا صحيح . ففي غرفة المعيشة شرفة كبيرة تطل على الحديقة ، وفى الحديقة شجرة أرز ضخمة من كاليفورنيا .
— كثير من الشقق الحديثة بها شرفات تطل على الحدائق . هل شقة بيت كبيرة ؟
— نعم انها فيللا من طابقين
— وأين توجد غرفتها ؟.. أعنى أين تنام ؟
— تنام مع الويس ، فى غرفة بالطابق الثاني .
— ومن هو الويس ؟
— كنت اظنك تعرفه .. انه موللر ، زوجها .
— هل يناماں معا ؟. اعنى فى نفس الفراش ؟
— طبعا .
— لقد فهمت من الكلمات القليلة التي تبادلناها أن زوجها يثير تقززها .
— هذا صحيح . فانها لاتسمح له بأن يلمسها .
— هذا أمر يصعب تحقيقه فى الفراش . بل أقول ان من المستحيل أن تنام معه دون أن يلمسها .
نظرت الى بعينين تومضان بالخبث وقالت :
— حسنا . لنتكلم عن بيت ثانية . يجب أن تقول لى ماذا تريد أن تعرف حقا ؟ ما الذى يعود عليك اذا عرفت ان كانت يد الويس تنزلق بين فخذى بيت . ليس هذا بالامر المهم .
تملكنى الغضب والسخط وقلت :
— حسنا . أريد أن اعرف لماذا قبلت بيت الزواج من الويس ؟.
بدا عليها التفكير لحظة ثم قالت :
— هل تريد ان اتكلم عنى أنا أولا أو عن بيت ؟
— ماذا تفضلين ؟
— عليك أنت أن تقرر . هل اتكلم عن نفسى أم عنها ؟
— تكلمى عن بيت أولا .
ترددت قليلا قبل ان تقول :
— حدث كل شيء مما أقول انه تمثيل من بيت ، فان بها ميلا كبيرا ان تنظر الى نفسها وأن تتصرف كبطلة رواية او مسرحية. بدات تفكر وهى فى الخامسة عشرة من عمرها فى تقليد كلايست وفى الانتحار المزدوج مع احد زملائها فى المدرسة ، كان يدعى رودلف . عقدا النية ذات يوم على ممارسة الحب معا وان يغلقان بعد ذلك كل النوافذ ويفتحا صنبور الغاز . ارادت أن يجدوهما متعانقين

وعاريين فوق الفراش ، تحيط بهما الزهور ، ووضعا فى مكان ظاهر فوق المائدة خطاب نسخته على غرار ماكتبته هنرييت فوجل قبل ان تموت مع كلايست . ولكن مدام رودلف عادت من الريف على غير توقع ووجدتهما عاريين ، الا أنها لم تر الخطاب ، ولم تشم الغاز الذى يتسرب من الصنبور . عنفتهما بشدة والقت عليهما محاضرة فى الاخلاق قائلة انه من العار أن يمارس فتيان الحب وان ابنها يجب الا يفكر الا فى دروسه واشياء من هذا القبيل . واثناء المحاضرة ، التقطت بيت الخطاب خلسة وامسكت ثيابها تحت ذراعيها ومضت الى المطبخ واغلقت الصنبور ثم ارتدت ثيابها وولت هاربة .

ورغم هذا الفشل ، لم تكف بيت عن التفكير فى كلايست . وفى الانتحار المزدوج لم تكن هذه المحاولة الفاشلة بالنسبة لها الا طريقة لتتالف بها مع فكرة الموت المزدوج . وفى السابعة عشرة ، اى بعد سنتين خيل لها أنها وجدت الزميل المثالى فى شخص كاتب مسرحى شاب يدعى سباستيان لم يتخذ كلايست نموذجا له وانما اتخذ دستويفسكى أو بالحرى أحد أبطاله فى رواية « الممسوسين » الذى انتحر لاسباب فلسفية . واتفقت بيت بسهولة مع سباستيان لانها لم تهتم كثيرا بأن يكون كلايست نموذجه المفضل ، وانما أن يتم تنفيذه فى جو ادبى . وماذا تجد أكثر أدبا من مشروع يجمع بين كاتبين مثل كلايست ودستويفسكى .

اذن ، قررا الانتحار معا ، يتبعان نموذجين مختلفين . اختارت بيت تلك المرة المسدس كما اختاره كلايست ودستويفسكى . لكن قبل الانتحار ببضعة أيام أفضى سباستيان بسر قراره الى صديق له ، وهو شاعر يدعى جوتفريد . وانتهز هذا الاخير فرصة خروج العشيقين ودخل بحجة ما الغرفة التى يقيم فيها سباستيان فى البنسيون . وبحث عن المسدس وعثر عليه وافرغ الرصاص ووضعه فى جيبه وخرج . ولك الان أن تتصور الان ماحدث بعد يومين عندما هم سباستيان وبيت بالانتحار . فهاهما فوق الفراش بعد أن فرغا من ممارسة الحب وشربا الكثير من خمر المانية من نوع رخيص . أخذ سباستيان المسدس من فوق الطاولة التى بجوار الفراش وصوبه نحو خد بيت لانهما كانا قد قررا أن تموت بيت اولا . وضغط على الزناد ، صدر من السلاح الفارغ صوت جاف . وحاول سباستيان أن يطلق الرصاص مرة أخرى ، ولكن بدون

جدوى . وعندئذ نظر الى المسدس ورأى انه فارغ فصاح : لابد أن جوتفرى هو الذى أفرغه . وثارت أعصاب بيت بسبب هـــذا الانتحار الفاشل ، فاخذت تسبه وتقول له انه هـو الذى أفرغ المسدس خوفا من فكرة الموت . ويحتج سباستيان لكن بيت تزداد سخطا وتسبه من جديد وينتهى الانتحار على طريقة كلايست الى مشاجرة فظة . وترتدى بيت ثيابها بسرعة وتخرج من البنسيون ، ولم تشأ أن ترى سباستيان بعد ذلك أبدا .

ــ قاطعت ترود قائلا :

ــ تكررين القول ان بيت ممثلة ، ولكن أين التمثيل فى كل ماذكرت ؟.. يبدو ان بيت تصرفت فى كل من هاتين المسألتين تصرفا أمينا . أرادت أن تموت حقا ، لكن المصادفة منعتهـــا . أما الذين ندعوهم ممثلين أو بهلوانات فانهم لايتصرفون بأمانة . انهم يحتفظون دائما ببعض الخدع للتهرب من الموت .

احتجت ترولا على الفور بحدة قائلة :

ــ أنت مخطىء . ان الممثل فى اعجابه بالدور الذى يقوم به جدير بأن يفعل أى شىء . انه ممثل بكل جوارحه ، حتى عنـــدما يعتقد انه يقوم بدور جدى ولا يفلح الا فى أن يكون ممثلا . لزمت الصمت بضع لحظات ثم استطردت : ولنأت الآن الى محـــاولة الانتحار الثالثة . اختارت بيت فى تلك المرة عازف بيان يهوديا . رجلا أكثر منها فشلا اذا جاز لنا هذا القول .. فاشل كعازف لانه متوسط وفاشل كزوج لأنه منفصل عن زوجته .. أفلم يكن الشخص المثالى للانتحار على طريقة كلايست ؟

احتججت : لم يكن كلايست فاشلا أبدا .. كان كاتبا عظيما .

أجابت وهى تبتسم : هذا هو التمثيل بالذات . ان تكون بيت موللر وأن تعتقد انها هنريك فون كلايست .

سألت : وماذا حدث مع عازف البيان ؟

ــ حدث أن بيت كانت قد صممت ان تموت حقا لانها ممثلة حقيقية ولان العازف كان مراوغا .

ــ ولماذا راوغ ؟

ــ لانه كان خائفا ، ولانه فى أعماقه أقل تصنعا من بيت ، وأقل شجاعة منها . لم يكن يائسا ولم تكن تدفعه دوافع أدبيـــة كبيت لكنه كان يهوديا ألمانيا . وهذا سبب جدى للانتحار ، ولكن جديته لا تدفع المرء لتقليد كلايست بالذات . صفوة القول ، كان

كل شيء فيه يهوديا . لا يبقى أمامه سوى أمل صغير جدا ، فى حين ان بيت لم يكن لديها اى أمل . كانت على يقين أنه ليس لديها اى أمل . وتباطأ هو وبيت بضعة شهور وتأجل مشروع الانتحار اثناء ذلك . وأخيرا عرف اميل (وهذا اسم العازف) أن عقده انفسخ لاسباب عنصرية وقرر ان يتصرف عندئذ .

ــ باية طريقة ؟

ــ بأسوأ الطرق فى العالم . حاول أن يشنق نفســه بحبل ستارة فى الغرفة التى كانا يقيمان فيها . كان يجب أن تســاعده بيت وأن تضع الحبل حول عنقه وان يصعد مقعــد ثم يدفعه من تحت قدميه على أن تتصرف بيت بعد ذلك بنفس الطريقة . ولكن الغرفة المفروشة التى كانا يقيمان فيها توجد فى شقة قديمة يرجع عهدها الى القرن الماضى . والعمود الذى ربط فيه الستارة يبدو فى حالة سيئة ، كان أميل بدينا فانكسر العمود ، وقع على الارض بطريقة خرقاء وانكسرت ذراعه .

ــ انتحار مأساوى مضحك !

ــ اليس كذلك . وكذلك كل مايقع لبيت على كل حال . عندئذ عدلت بيت مؤقتا عن الانتحار ، وساعدت اميل على الخروج مــن الشقة واجلسته فى سيارتها ، ومضت به آلى مســتوصف خاص حيث وضعت ساقه فى الجبس . ثم غادرت المستوصف وذهبت رأسا الى الرجل الذى أصبح زوجها ، آلويس موللر ، وهو شخص له أهميته فى الحزب ، وكانت بيت تعرف أنه مغرم بها جدا فعرضت عليه الاقتراح التالى : قيل ان البوليس سيلقى القبض على اميل ، فلتساعده على الهرب الى الخارج واعطيك كلمة شرف أن اتزوجك فى اليوم الذى يعبر فيه الحدود .

هتفت : ولكن مادام الويس كان مغرما بها الى حد الجنون ، انما كان يكفيها أن تعده بمضاجعتها مرة واحــدة بدلا من الزواج منه ؟

ــ آه ، كلا . لم تكن بيت تريد ممارسة الحب مع الويس . تتزوجه ، نعم ، اما ممارسة الحب فلا . انها لم تخف عنه ذلك . قالت له : سأتزوجك ولكن لن تلمسنى حتى بأطراف اصابعك .

ــ وهو ؟

ــ قبل طبعا ، وبكل سرور .

قلت : مهما يكن فان بيت رائعة فى هذه القصة . حاولت أن

تنتحر حقا ، ولتزوجت رجلا لا تحبه .
ـ انت مخطىء . لم تحب بيت اميل . تصور انه عندما انكسر عمود الستارة وانه ببدانته وقع على الارض مشدوها لم يسع بيت الا ان تنفجر ضاحكة . رأت اميل بكل سطحيته ، ولكنها ارادت كعادتها أن تقوم بدور البطلة . الخلاصة أن تصرفها كان مبعثه حبها للتمثيل مرة أخرى .
ـ بالنسبة لك فان بيت تظل ممثلة مهما فعلت .
ـ لايمكن ان يفكر المرء فى الانتحار بصورة جدية الا اذا كان ممثلا فى قرارة نفسه .
ـ آه . من رايك طبعا ان كل المنتحرين ماهم الا ممثلون .
ـ نعم ، طبعا .
ـ وكلايست كذلك ؟
ـ طبعا . عندما كان يكتب لم يكن يمثل . لكن عندما انتحر ، نعم .
تملكنى الغضب وقلت فى حدة :
ـ مهما يكن ، كفى عن محادثتى بشر عن بيت . الامر اقوى منى وأنا لا احتمله .
راحت تضحك ثم قالت :
ـ لكن الحقائق هى التى تتحدث عنها بشر . مهما يكن ولكى نعود الى اميل ، تسلم جواز سفره ورحل الى فرنسا . تزوج الويس وبيت فى اليوم التالى لرحيله . وفى الساعة الثانية صباحا من نفس الليلة سمعت على بابى طرقا عنيفا . كان هناك من يحاول تحطيمه . فمضيت وفتحت فاذا به الويس . ضع نفسك مكانى . لم اكن أعرف شيئا عن اتفاقهما . اتوقع كل شيء الا ان افاجأ به فى ليلة عرسه . ودون أن ينطق بكلمة امسكنى من شعرى وجرنى بكل قوة وعنف خلال الشقة ، واوقفنى امام الجدار وامرنى أن ارفع جونلتى . وعلى الا اتكلم والا افعل شيئا وان أدعه يرى عورتى فحسب شقراء تماما مثل بيت . تملكنى الذعر واطعته . جلس على مقعد والقى ذراعيه فوق المسند وراح ينظر بحدة الى الشعر الاشقر الذى كان بالنسبة له رمزا لكل مايهيم به ولا يستطيع الحصول عليه من بيت . بدا لى هذا التأمل مضحكا بحيث لم استطع أن امنع نفسى من الضحك . وعندئذ استولى عليه غضب جنونى فتقدم نحوى وصفعنى والقانى فوق الفراش حاول أن يفرغ فى جسمى الشهوة التى ترفض بيت ارضاءه بها . ولكننى عارضته وقاومته بيد أنه

تغلب علي في آخر الامر . لكنه كان بحاجة الى مقاومتي الشديدة لاتمام الشبه الطبيعي والنفسي مع بيت . كان يتوهم أنه ليس معي أنا وانما مع بيت .

وكنت أنا الذي اتممت هذه القصة بأن أتممت هامسا :

ــ التي كانت تنفر منه لان يديه ملوثتان بالدم .

قالت مصححة في هدوء :

ــ التي تزوجته شريطة ألا يلمسها . وفي اللحظة التي أفلح فيها في اخضاعي اذا بي يدعوني بيت وهو يلهث . علمت أن الامر سيكون هكذا من الان فصاعدا ، اذا أردت أن تستمر علاقاتنا الغريبة : الضرب ، والمقاومة والعراك والفجور واسم بيت منطوق بين شفتيه في تشنجات .

قلت مشدوها : اذا أردت أن تستمر علاقاتكم .. ماذ تعنين ؟ عن أية علاقات تتكلمين ؟

نظرت الي في دهشة هي الاخرى . يخال انني لا أعرف ما الذي يختفي خلف عبارتها ، لم تكن انبأتني بذلك . ولكنها هتفت في سذاجة :

ــ آه . هذا صحيح . الم أقل لك ذلك ؟ كان الويس عشيقي قبل أن يعرف بيت . وهي اذ تزوجته خطفته مني ، وفي تلك الليلة أنا التي خطفته منها .. (لزمت الصمت بضع لحظات ثم اردفت لاريب تخليصا لذمتها) صحيح أنه عاد الي لانني أشبه بيت ، ومهما يكن فهو يمارس الحب معي وليس مع بيت .

مدت يدا لكي تمسك كأسا ، فأمسكت معصمها بقوة وقلت :

ــ كفي عن الشراب والا فقدت القدرة على فهم أي شيء .

ــ آه . انك تؤلمني . لماذا أنت غاضب هكذا ؟

ــ لست غاضبا .

ــ بل انت غاضب . أقول لك لماذا . لا يروق لك أن تشبه الويس ، ومع ذلك فالامر صحيح ، فكل منكما حاول خداع نفسه . انت معي لانك تريد أن تكون مع بيت . هذا غريب . أليس كذلك ؟

كان السكر يجعل نظرتها تنتقل من الخبث الى التيه ، ومن التيه الى القسوة .

سألتها :

ــ ما الذي يحملك على الظن انني أتصرف معك كما يتصرف اليس ؟

راحت تضحك :

ـ أيضايقك أن تشبه رجلا آخر ؟ وأن يكون ذلك الرجل الويس بالذات ؟

ومع ذلك فانني واثقة اننا اذا استمررنا في أن يرى احدنا الاخر فسوف تفعل بي ذات يوم مايفعله الويس بي .

ـ ماذا مثلا ؟

ـ سوف تنقض علي وتضربني وتغصبني ، وفي لحظة النشوة الكبرى تدعوني بيت .

ـ لكنك لم تذكري لي لماذا افعل بك ذلك .

ـ لان بيت تتابى عليك كما تأبت على الويس ، ولان هذا الرفض غامض ، وهذه حقيقة روحية مناقضة للطبيعة ، والرفض الذي يستند اليوم عند المرأة هو الذي يتسبب في السادية عند الرجال .

ـ لكنني لست على شيء من السادية .

ـ سوف تغدو كذلك .. سوف تغدو كذلك .

داعبت بيدها راسي ، كنت اخفضها في اصرار دون أن أرفع عيني ، قلت وأنا أصر على أسناني :

ـ اذا أردت . لنعد الى الوراء الان .. لنعد الى الويس .. من هو ؟

ـ موظف بالحزب .

ـ وفي حياته الخاصة ؟

ـ انه يملك ضيعة لتربية الكلاب الذئبية في ضواحي برلين .

ـ اذن فهو يهتم كثيرا بمهنته هذه ؟

ـ كلا . انه يمضي الى الضيعة من وقت لاخر لكي يرى سير الامور ، وأنا التي أشرف عليها .

ـ يمضي اليها من حين لاخر ، وينقض عليك ويجبرك على القيام بدور بيت ؟

ـ نعم .

ـ اخبرتني بيت بالقليل عند زوجها ، لكن ذلك القليل جعلني ارغب في معرفة المزيد .

ـ ماذا قالت لك ؟.. هل اخبرتك انها تنفر منه لان يديه مخضبتان بالدم ؟

ـ كيف عرفت ذلك ؟

ـ انا ثملة ولكنني لست صماء . انت الذي قلت ذلك بنفسك منذ لحظات .

ـ حسـنا .

ـ حسنا . انها عبارة مثيرة قالتها لك للتأثير عليك . وربما لكي تبرر نفورها منه بالذات . ولكنها غير صحيحة .

ـ ماهي الحقيقة اذن ؟

ـ نفس الامر دائما ... ان بيت ممثلة ، ومهمـا يكن فهي مخطئة اذ تلوث سمعة الويس هكذا ، فهي زوجته شاءت أم لم تشأ . اما هو فانه يعبدها ، وليست هناك كلمة أخرى للتعبير عن شعوره نحوها . اذا كانت تنفرمنه بهذه الصورة فقد كان يجب أن تترك عازف البيان لمصيره ولا تتزوج الويس .

ـ انها ليست زوجة وانما سجينة .. ضحية ابتزاز

ـ هذا ماتريد أن يعتقده الجميع . لكن الامر اكثر تعقيدا من ذلك .

ـ مثلا .

ـ عرفت بيت دائما علاقاتي بالويس ، ومع ذلك ففي ليلة عرسهما دفعته الى المجيء الى . قالت له « بما انك تريد ممارسـة الحب بكل طريقة فامض الى ترود ، انها أختي التوام ، ونحـن متشابهتان ، وسوف ترى أنها لن تصدك .

ـ ولكن كيف كان يمكنها معرفة ذلك ؟

ـ كانت تعرف أنني كنت لا ازال احب الويس لانها اردفت تقول :

« انها لن تصدقك فحسب ولكنها ستتظاهر بأنها انا دائما .

ـ ماذا كانت تعني ؟

ـ تعني بأنني سأتظاهر انني هي تحت مظهرنا المتباين ، وهو مظهر السياسة .

ـ آسف ، لا افهم .

ـ الامر سهل . كان يجب ان انفر من الويس لان يديه ، كانتا ، كما تقول مخضبتين بالدم .

ـ ماذا تعنين بقولك هذا ؟.. اكان يجب ان تظهري مشاعر ضد النازية ؟

ـ هو ذلك . لم يكن يجب ان اقاومه طبيعيا فحسب ولـكن سياسيا كذلك .

ـ سياسيا ؟

ـ كان يجب ان اتحدث ضد الحزب وضد الفوهرر كمـا

يعتقد ان بيت يجب ان تفعل اذا كانت صادقة ، وكلما تحدثت بسوء عن الحزب وعن الفوهرر ازداد هيامه . وعنـــدما انقض على فى النهاية وصفعني ، كان عنفه صادقا شيئا ما . كان محنقا حقا ، يكاد يجن ، وفى لحظة المضاجعة طلب منى ان أصرخ واقول « يحيا الفوهرر » كانت يجب أن تكون صرخة بيت وقد روعتها الضربات . وبعد ذلك تملكه الخوف وجعلنى اقسم اننى لم اطلع احدا على هذه العادات الغريبة .

ـ صفوة القول ، كان يجب أن تقومى بدور بيت فى كل شيء . أمازلتم تمارسون هذه المهزلة ؟

ـ نعم . ففى الليلة الماضية ، فى نابولى ، ونحن فى الفنـدق دخل غرفتى واراد ان نمارس الحب ونحن نستوحي الفكرة المعتذة فى ذهن بيت ، وهى الانتحار المزدوج على طريقة كلايست .

ـ اذن فهو يعرف ان بيت تتخذ كلايست نموذجا لها ؟.

ـ وكيف لايعرف ذلك . ولكنه بدا لى فى ليلة نابولى أكثر جنونا من المعتاد . أراد بعد ان مارسنا الحب أن اقول له قلننتحر معا كما فعل كلايست وهنرييت . وما كدت افرغ من عبارتى حتي وثب من الفراش وفتش فى جيب سترته واخرج منه علبة صغيرة وهو يقول : هذه حبوب من السيانور هل انت مستعدة حقا ؟ اقسم لك انه أخافنى . نعم ، كنا لا نزال تحت ذلك الوهم فى اننى بيت وانه مارس معها الحب ، ولكن لو أن السـيانور حقيقى ، ولو استمرت المهزلة حتى النهاية لعثروا علينا ميتين فى غرفة بأحد فنادق نابولى ، ولكانت فضيحة رائعة . قلت له : مع من تظن انك تتكلم ؟.. انا ترود اخت زوجتـــك ولا رغبة بى فى الموت . عنـــــدئذ راح يضحك ويقول هذه حبوب سكارين ، اضعها فى قهوتى بسبب مرض السكر . قال ذلك بلهجة ضاعفت خوفى ولهذا ، لم يكن يهتم فيها بى دسست يدى فى جيب سترته وسرقت علبة السكارين ، وهى معى هنا ، فى غرفتى . اريد أن يحللها لى شخص متخصص لكى اعرف ما بها .

ـ هل تعتقدين ان الويس لم يكن يمزح ؟

ـ انه لا يمزح ابدا . ولهذا خفت جدا .

ـ ولكن ماذا تعرفان ، انت وبيت ، عن الويس ؟

ـ نعرف انه يمضى فى كل صـــباح الى مكتبه بادارة الحـزب ، وانه لا يعود الا فى المساء . نعرف انه رجل دقيق ومنظم جدا وانه يحب الموسيقى الكلاسيكية وخصوصا موسيقى باخ . وانه يحب

الفطائر الى حد الشراهة وان هوايته التصوير .
قلت مستأنفا ما يقال انه مجرى الحديث :
ـ اذن فأنتما لا تعرفان عنه شيئا فيما عدا انه موظف وعضو بالحزب . ولكن عبارة بيت بخصوص يديه المخضبتين بالدم تدل على انها تعرف عنه المزيد .
ـ وماذا تريد ان تعرف ؟ اذا كان الويس موظفا حقا وعضوا فى الحزب ؟ انها لا تستطيع ان تعرف شيئا اكثر من ذلك على كل حال .
ـ فى ايطاليا تأتينا كل يوم من المانيا انباء احداث يلعب فيها العنف دورا كبيرا ، وانت لا تعرفين شيئا عن حياة الويس العامة ، فهل يمكن ان تؤكدى لى انه لم يشترك ابدا فى أحداث من هذا النوع .
ـ نعم . يحتمل شيئا ما أن موظفا هاما نسبيا كالويس يشترك شخصيا وبصفة مباشرة فى مثل هذا النوع من أعمال العنف .
ـ وبطريقة عامة وغير مباشرة ؟.
ـ كل امرىء اذن فى المانيا يمكن ان تكون يداه ملوثتين بالدم .
ـ افهم الان لماذا تريد بيت ان تنتحر .
احتجت ترود على الفور قائلة :
ـ كانت بيت تريد ان تنتحر حتى قبل ان تعرف الويس ، ولكنك ، انت ، لا تزال ترفض أن تفهم شيئا .
ـ اى شىء ؟
ـ نفس الشىء دائما ... أن بيت ممثلة .
رددت في غضب :
ـ الحقيقة انه ربما لدى بيت ، دون وعى منها ، كل اوجاع العالم ، وهى أوجاع انت لست جديرة بالاحساس بها او حتى تخيلها .
لم تنطق بشىء . إكتفت ان تنظر الى ببرود تام . وقلت :
ـ بيت هى المرأة الوحيدة التى استطيع ان احبها واعيش معها . سأمضى الى المانيا وأقنعها ان تأتى لكى تعيش معى فى ايطاليا .
ـ وما الذى تستطيع أن تقدمه لبيت ؟
ـ أتعنين من النواحى ، المادية ؟
ـ طبعا .

ـ انا ابن وحيد . وابى يملك عقارا متوسط الاهمية ويقيم فى فيللا صغيرة فى احدى الضـــــواحى . ثم انه طبيب . واعيش فى روما وابى يعطينى مبلغا شهريا يكفينا أن نعيش عيشة متواضعة ، ثم اننى اكسب القليل من المال من الاعمال التى أقوم بترجمتها ومن المقـالات التى تنشرها لى الجرائد . ومن علاقاتى الادبيـــة . ليس الغنى ولكن بيت لن ينقصها شيء .

نظرت الى وهى تبتسم فى غموض ، وربما فى سخرية ، ثم قالت فى صوت هادىء :

ـ لكنك ترفض ان تفهم ان بيت لا تريد أن تعيش معك ولا مع اى شخص آخر . تريد أن تموت فحسب .

ـ عندما يوافقك الامر تقولين انها ممثلة . وعندما لا يوافقك تقولين العكس .

ـ ابدا . اقول نفس الشيء دائما . انها ممثلة ، وتريد أن تموت .

كان هناك شيء غامض وغير مفهوم فى عداء ترود لاختها ، لم استطع ادراكه . واذ رات اننى لا انطق بشيء قالت :

ـ هل تأخذ بيت مأخذ الجد حقا ؟.. قل لى اذن ما الذى تنتظره منها عندما تذهب الى المانيا . قلت لك ما تريده هى منك . واذا أخذتها مأخذ الجد فيجب أن تكون على يقين انها لن تغير فكرتها على الاطلاق . ومهما يكن الجد فيجب أن تكون على يقين أنها لن تغير فكرتها على الاطلاق . ومهما يكن فمن المؤكد انها لن تقبل أن تصبح زوجتك . من هذا يجب ان تكون واثقا على الاقل . وأكرر لك الآن ماذا ستفعل فى المانيا ؟ اتريد ان تقول انك مفكر ايطالى وان اباك يملك عقاراً وانك تريد ان تتزوج المانية حسناء ؟.

سرت القشعريرة فى بدنى بسبب لهجتها الباردة الساخرة . واجبت ساخطا :

ـ من السهل ان تسخرى من خطتى لانك لا ترين الا ما اردتك ان تريه : شقة صغيرة من ثلاث غرف ومطبخ وسيارة حقيرة والزوجين البورجوازيين البسيطين ، ولكن لانى لم احدثك الا عن هذا لا يعنى انه ليس هناك شيء آخر .

ـ شيء آخر ؟... وما هو ؟

ـ اذا وعدتنى الا تســـــخرى منى والا تتحدثى بسوء عن بيت فسأحاول ان افسر لك ذلك .

راحت تضحك وقالت :

ـ لماذا تكره ان اسخر منك ؟ . . . حسنا ، أعدك .
فكرت لحظة ، ثم تشجعت وقلت :
ـ هل تعرفين ما الذى يحملنى على حب بيت كل هذا الحب ؟
ـ لا ادرى . وكيف أعرف ذلك ؟
ـ ذلك لان بيننا شيئا عاما .
ـ وما هو ؟
ـ اليأس . . . كلانا يائس .
ـ من قال لك ان بيت يائسة ؟ . . . اهى التى قالت لك ذلك ؟
ـ أنت قلت لى انها تريد أن تموت .
ـ تريد أن تموت لاسباب فنية وليس بسبب اليأس .
ـ فنية ؟.
ـ نعم . اسباب مسرحية . تريد أن تقوم بدور شخصية معينة حتى النهاية .
ـ طلبت منك الا تتحدثى بسوء عن بيت .
ـ لم أذكر اى سوء . لم أقل هذه المرة انها ممثلة وانما قلت انها تريد أن تقوم بدور شخصية معينة فحسب تقول ان بكما يأسا مشتركا . فلتدع يأس بيت جانبا ولنتكلم عن يأسك انت هل تبحث عن شخص قد يرضى أن ينتحر معك ؟ او لعلك تفكر فى ان تموت وحدك .
ـ ها أنت ترين أنك لا تريدين التخلى عن السخرية .
ـ التمس معذرتك مرة أخرى . ولكن لا يشغلنك امرى . عليك أن تتكلم ، فتكلم .
قلت بعد ثوان وانا اتنهد :
ـ كلانا يائس . ولكن يأسنا مختلف ، فبيت تريد أن تتبع منطق اليأس حتى النهاية ، أعنى الانتحار . اما أنا ، فعلى العكس ارفض أن اكون منطقيا .
ـ لا تريد أن تنتحر ، أليس كذلك ؟
أجبت فى اخلاص ساخر نوعا ما :
ـ اذا كان ذلك ممكنا فاننى افضل أن اتجنبه .
راحت تضحك ، ثم مدت يدها كى تداعب خدى فى رفق وقالت :
ـ على الاقل انت مخلص ، ويحيا الاخلاص .
الغريب اننى لم أشعر بأية مهانة من لهجتها الساخرة ، ولعل

ذلك لانه امتزج فيها مرة اخرى شيء لا ادريه من العذوبة والرفق . قلت فى اصرار :
ـ دعينى أفسر لك نظريتى عن اليأس .
ـ تكلم .
ـ افهمينى جيدا . فنظريتى ليست معقدة جدا . اننى افكر ومؤمن تماما أن اليأس هو الوضع العادى للانسان ... يأس طبيعى كالهواء الذى نتنفسه ، الاختلاف الوحيد هو اننا نتنفسه دون وعى ، فى حين انه لا يسعنا سوى الشعور باليأس . وقد انتهيت اليوم الى الاعتقاد اننا ، من ناحية ، يجب أن نرفض رفضا باتا كل الاوهام التى تقدمها لنا الطبيعة ، وان نرسخ اليأس . أعنى ان نقبل قواعده كما نقبل القوانين الاجتماعية . اننا نعيش فى دنيا اليأس ولابد أن ننحنى لقوانينه .
كانت تصغى باهتمام شديد ، وما أن فرغت حتى اسرعت تقول :
ـ ولكن من يقول لك ان اليأس لا يفقد قوته بعد أن تعدل عن الموت ، وانه لا يتغير الى ذريعة لكي تستمتع بحياة افضل .
اجبت وانا شديد الثقة من نفسي :
ـ ان المرء لا يشعر باليأس لحظات بين وقت وآخر ، وانما يظل يائسا الى الأبد مهما كانت المتعة التى يستمدها من الحياة .
بقيت ساهمة تفكر لحظة بعد أن سمعت ما نطقت به ثم قالت :
ـ هـذا هو حبك لبيت اذن .. حب قائم على حسـابات دقيقة كما يحسب المرء احتمال بناء جسر يجب ان تمر عليه كل المواصلات . لكن الامر هنا يتعلق بتلك الناحية من الحب التى يجب أن ندعوها بالعقلانية ، لم تقل لى شيئا عن ناحية المادية . ان بيت من لحم ودم ، فما هو شعورك نحو هذه المراة التى من لحم ودم ؟.
أجبت فى شيء من الضيق :
ـ اشعر منها بميل طبيعى .
عند هذه الكلمات تملكها جنون وغيظ دون سبب وقالت :
ـ حسنا . استطيع ان اقول لك انك لن تحصل منها على شيء اطلاقا ، ولا حتى قبلة واحدة فوق الجبين . فى استطاعتك ان تمضي الى المانيا وأن تجثو عند قدميها وتتوسل اليها ولكنها لن تمنحك شيئا ، ولا حتى هذا .
وفرقعت بأحد أصابعها على اسنانها .
ـ ولكننى ...

ـ وكل هذا لان بيت باردة ... باردة تماما ... باردة الى أقصى الحدود . لعلك لم تكن تعرف هذا ... لكنك عرفته الان .

قلت معترضا وغير واثق تماما :

ـ لا توجد نساء باردات . انما هناك نساء لم تلتق بعد بالرجل الذى يناسبهن .

ـ انتم معشر الايطاليين واثقون تماما من انفسكم دائما . تعتقدون أن افخاذكم كالعصا السحرية تأتيكم بما تريدون من معجزات . ولكن قد يحدث ان المراة لا تستجيب لسحركم ولا تعرف ماذا تفعل بعصاتكم .

ـ ماذا تعنين ؟

ـ أنت لا تعرف كل شيء عن بيت .

ـ كل ما اعرفه اننى لا اعرف شيئا .

ـ سأقول لك السبب فى برود بيت .

ـ أهناك سبب محدد ؟.

ـ محدد جدا . اصغ الى جيدا . سأذكر السبب على شكل حكاية ، كما روتها لى بيت مرارا كثيرة . ثم ان بعض التفاصيل الهامة ستبدو بهذه الطريقة اكثر وضوحا واكثر دلالة .

اليك بيت اذن وهى فى التاسعة من عمرها وقد خرجت ذات يوم من منزلنا الريفى بالقرب من ميونيخ حيث تقيم مع الاسرة . توجد أمام البيت مرجة كبيرة جدا تنحدر انحدارا خفيفا حتى النهر . والنهر قريب . هناك صفان من الاشجار تخفيانه عن الانظار . نحن فى شهر يونية والجو حار ، وعشب المرجة مرتفع وغزير ويصل حتى ركبتى بيت ، تتجه نحو النهر لكى تستحم . وتقطف عودا من العشب فى حركة آلية تمشى وهى تلوكه بين اسنانها لانها تحب مذاقه . تمسكه بطريقة خرقاء تجرح أصبعها كما لو أن حد موسى هو الذى جرحها . وتصيح بيت « أيها الشقى » وتضغط على الجرح لكن الدم يسيل مدرارا . وتسمع صوتا يقول : انه شقى هذا العود ، اليس كذلك ؟ وترفع عينيها وترى رجلا فى الاربعين من عمره ؛ لونه اسمر وعيناه فاتحتان ووجهه شديد الشحوب ويرتدى زى أهالى التيرول بسراويل واسعة وسترة من الجلد . يبتسم لها ويقول فى اصرار ورفق « دعينى ارى هذا الجرح » وتمد بيت يدها له . وبعد أن يفحص أصبعها يقول « انه جرح تافه ، سأضع قبلة صغيرة فوقه ولن تشعرى بألم بعد ذلك . ويرفع الرجل يد بيت

الى فمه ويمتص الدم بسرعة ويقول « هاانت ذى ترين . لقد توقف النزيف . ولكن أين تمضين ؟ الى النهر . اعطيني يدك ، سنمضى هناك معا . ويأخذ يدها ولا تجد بيت الشجاعة لكى تمنعها عنه . ولكن ما أن يبدآن السير نحو النهر ، وسط الاعشاب الطويلة ، حتى تغدو يد الرجل باردة وتتفصد بالعرق . وتجد بيت أنها تريد أن تعبر عما تشعر به وتقول فى صوت مرتفع : اننى خائفة .. خائفة » ينهرها الرجل قائلا « مم تخافين ايتها الغبية . سنصل الى النهر وسنستحم معا . ويتابعان السير وهى تقول : اننى خائفة ، « اننى خائفة » . يحاول الرجل تهدئتها . ويختفى كلاهما خلف الاشجار .

وتخرج بيت بعد نصف ساعة من خلف الاشجار ، تجرى وهى تفكر فى الشر الذى لحق بها ، واحست به تماما كما أحست بالجرح الذى أصابها به عود العشب .. الم حاد كالذى يسببه حد موسى قاطع . تجرى وتفكر دون انقطاع فى الضرر الذى يؤلمها . تنظر الى ساقيها وترى الدم الذى يسيل أعلا فخذيها ، وعندئذ يستقر منها العزم على دخول البيت من الباب الخلفى . وتصعد الى غرفتها بالطابق الثانى دون أن يراها أحد .

سكتت ترود وهى تنظر الى مستفهمة ، وقالت :

ـ مارأيك ؟

سألتها أناعندئذ :

ـ اتكون هذه القصة السبب فى برود بيت ؟

ـ نعم . السبب الذى تذكره هى على الاقل .

شعرت بالضيق من حكاية اغتصاب بيت مثلما نشعر عند اكتشافنا السبب البغيض لتصرف غير عادى من شخص عزيز علينا. واليوم امحى ذلك الاحساس على الفور تقريبا بسبب عبارة نطقت بها ترود بطرف شفتيها . وسألتها :

ـ لماذا تقولين على الاقل ؟ أيمكن أن تكون هذه القصة غير حقيقية ؟

اجابتنى بلهجة هى بين الجد والهزل :

ـ كل شيء مع بيت ممكن . ستقول لى لايمكن اختلاق بعض الامور مثل الشبه بين الجرح الذى أصابها من عود العشب وجرح الاغتصاب . حسنا . ان أكثر التفاصيل القريبة من الصدق فى قصص المولعين بالكذب كبيت ، مختلفة .

سألتها هذه المرة فى فضول :

ـ وانت مارايك ؟.. اهي قصة مختلفة ام لا ؟
لم تجبني على الفور وقالت اخيرا :
ـ بعد امعان الروية والتفكير اقول انها قصة مختلفة . هل تعرف ما الذي يجعلني اعتقد ذلك .
ـ ماذا ؟
ـ وصفها للرجل الذي تزعم انه اغتصبها . لونه اسمر ووجهه شديد الشحوب وعيناه فاتحتان ويرتدي زي أهالي التيرول.
ـ حسنا ؟
ـ حسنا . أضف الى هذا الوصف خصلة من الشعر وسط الجبين وسوف ترى .. هتلر .
تبتسم ابتسامة خبيثة سألتها :
ـ هتلر ؟.. لماذا هتلر ؟
ـ لان بيت ضد الفوهرر بطريقة ملحة . هذا هو السبب . واعلم تماما ان الاغتصاب ربما يكون قد حدث . ان وصف الرجل هو الذي لا يتطابق مع الواقع . أحست بيت بحاجتها الى وصف الرجل الذي اغتصبها بأوصاف الفوهرر . اخبرتك بذلك . فكرة ملحة . ان الامر اقوى منها (ثم اردفت) ومهما يكن فهذا امر قليل الاهمية . وما يجب أن تعرفه انما هو شيء آخر .
ـ اى شيء ؟
ـ هو أنني في الواقع لا أعرف البرود .
دهشت دهشة حقيقية وقلت :
ـ ولكن ماهذا الذي تقولين ؟
ـ أقول الحقيقة . حقيقة لاتريد انت الاعتراف بها ولا يمكن أن تتجاهلها رغم ذلك . عندما لاطفتني اليوم في القارب ، الم يخامرك الاحساس بأنك تلاطف بيت . لاتقل لا . فقد قرأت ذلك في عينيك تنظر الى فترى بيت .
ـ أستطيع أن أؤكد لك أن احدا لم يغتصبني وانا في التاسعة من عمري ، وبالتالي فلست باردة على الاطلاق ، وبمعنى آخر : الاشارة خضراء والطريق حر .
ماذا كان باستطاعتي أن اقول ؟ كنت مذهولا ومصدوما في نفس الوقت من قسوة هذا الاقتراح . وقالت بعد لحظة
ـ اصغ الى جيدا . أنت تناقض نفسك ، فأنت من ناحية ، واثق أن بيت لن تدعك تلمسها الا اذا وعدتها أن تموت معها . ومن

ناحية اخرى تود أن تمارس الحب معها وتتصور أنها . بعد ان تضاجعها ، تعدل عن نيتها فى الانتحار . هـــذا صحيح . أليس كذلك ؟

قلت : نعم ، هذا صحيح .

ـ حسنا : انني اعرض عليك طريقة بسيطة جدا لانهاء هــذا التناقض ، وهى التظاهر .

ـ وكيف ذلك ؟

ـ سأتظاهر بأننى بيت . بيت لا تصد ولا باردة ومستعدة لان تمارس الحب معك ، وتنوى جديا أن تموت معك . لقد قبلت اليوم الوهم فى القارب ، وامس فى الطريق . سأتدبر امرى لكى يكتمــل وهمك حتى تجاوز الحب وحتى ملامسة الموت ، واذا لم افلح في خداعك فسيكون من حقك ايقاف التظاهر ، تماما كما توقف بروفة عندما نرى أن الممثلين لم يحفظوا ادوارهم جيدا .

ـ ماذا تعنين بملامسة الموت ؟

ـ يجب أن تثق بى . سوف نلامسه ، والامر مرتبط بك لكى يبقى التظاهر تظاهرا .

لم اتمالك الا ان اسألها :

ـ معذرة ، لكننى لا افهم لماذا تفعلين كل هذا . الكى تثبتى لى انك شبيهة تامة ببيت فحسب ؟

ـ ما هذا السؤال ؟ بل لانك تروق لى . ولكى اروق لك يجب أن اتظاهر بأننى أختى .

ـ لن تفلحى ابدأ فى اعطائى هذا الوهم .

راحت تضحك بطريقة تؤكد على ثقتها فى نفسها لدرجة اثارت حيرتى .

ـ هل تريد أن احاول ان اكون بيت لبضع دقائق ؟ انظر .

دفنت ذقنها بين يديها المعقودتين ونظــرت الى مباشرة بكآبة وحزن وقسوة واصرار ، وهى نظرة لايمكن أن اخلطها بأية نظـــرة اخرى ، وكنت اعرفها جيدا وغيرتها فجأة الى بيت ، ولم يسعنى الا أن اظهر دهشتى . واردفت ترود دون ان تضحك :

ـ والان ، اليك ترود .

اختفت النظرة اليائسة الحزينة وحلت مكانها نظرة ساحرة وجذابة ، وانزلقت ترود فى نفس الوقت حتى آخر المقعد ، واحسست بقدمها العارية تتغلغل تحت مفرش المائدة ، بين ساقى وتصعد حتى

بطني ، وقالت وهي تتكلم عن نفسها بصيغة الغائب :
ـ ترى الان ان ترود ترد لك الملاطفة التي منحتها اياها في القارب . هل يروق لك هذا ؟ ولكنك تريد ان تكون هذه القدم ، قدم بيت الحزينة اليائسة . حسنا . بيت تنظر اليك الان بكل اليأس الممكن ، وهي تلاطفك .
ورمشت بعينها كما يفعل الصندوق السحري لكي يغير من وضع القطع الزجاجية الملونة ، واذا بنظرة بيت التعسة من جديد ، والقدم ترتفع في نفس الوقت بين فخذي وتصل الي الهدف . الضغط والملامسات واحتكاكات وخدشات اصابع القدم ، واحسست بحرارة وخدر وانتفاخ ، سألتني ترود في اصرار :
ـ مارايك . يجب أن تعترف ان حلمك في طريقه لان يتحقق بيت وترود مجتمعتان في امرأة واحدة .
وازداد ضغط قدمها بحلاوة عنيفة اشاعت في نفسي عذوبة حارة ومضنية . وتراجعت انا ومقعدي الى الوراء وقلت :
ـ ومتى تبدأ حفلة التظاهر ؟
ـ الليلة . سآتي الى غرفتك ، لا ادرى في أي وقت ، سيكون ذلك بعد منتصف الليل . والان وداعا . آنني متعبة وثملة . لاتتبعني فأنا بحاجة الى ان أخلو بنفسي .
ونهضت فجأة عن مائدتها واتجهت نحو باب المطعم وخرجت . بقيت مكاني ، استدعيت الجرسون وطلبت الحساب .

- ١١ -

عدت الى كابرى فى وقت متاخر ، وما أن دخلت البهو حتى مضيت أني مكتب السنيور جالامينى راسا ، وكان يقرأ جريدته ، قلت له :

ـ أتيت لابلغك باننى سأرحل فى باخرة الساعة التاسعة .

ـ غـدا ؟

ـ كلا . اليوم . الليلة .

ـ ارجوك اذن أن تسدد الحساب وكذلك حساب الليلة القادمة. سوف احاسبك بنصف القيمة .

ـ شـكرا .

ـ هل ستركب الاوتوبيس أم العربة ؟.

ـ العربة . ارجو أن تستعلم فى نفس الوقت اذا كانت هناك مراسلة بين الباخرة وبين القطار الذى ينطلق من نابولى الى المانيا راسا .

ـ حسنا ، سوف أهتم بذلك .

وتحول السنيور جالامينى الى اللوحة التى خلف مكتبه وقال :

ـ آه .. هناك رسالة لك .

رسالة !.. لى أنا ؟.. من الذى يمكنه مراسلتى فى كابرى ؟ ربما أمى ، فمن غيرها ؟ اخذت المظروف وخطوت خطوتين فى البهو ، وفتحته وقرات : حبيبى الوحيد فى الدنيا ، سآتى الليلة الى غرفتك فانتظرنى بعد منتصف الليل ، حبيبتك التى تريد أن تعيش وتموت معك .

ما أن قرات هذا الخطاب حتى صدرت منى حركات خرقاء كتلك الحركات التى تصدر من العرائس التى لا يتحكم صاحبها فى ادارة خيوطها . استدرت وقلت للسنيور جالامينى .

ـ لقد عدلت عن رايى .. لن ارحل .. سوف أرحل فى يوم آخـــر .

ـ حسن جدا . لكن ارجو أن تخطرنى فى الوقت المناسب لصالحك ، والا اضطررت أن أحاسبك بدفع القيمة بأكملها .

نظرت الى السنيور جالامينى فى دهشة بحيث راى انه لابد من تفسير قوله فاستطرد :

ـ اننا فى قلب الموسم ، وغرفنا عليها طلب كبير .

وعندئذ افلتت شفتى فجأة بالسؤال الذى لم يكن قد تكون فى ذهنى بعد :

ـ عفوا . ولكن متى سلمت هذه الرسالة لك ؟ لقد رايت السيدة التى كتبتها منذ قليل ويدهشنى أنها لم تقل لى عنهـــا شيئا .

أجابنى السنيور جالامينى :

ـ تركت السيدة هذه الرسالة صباح اليوم قبل ان تمضى الى البلاج .

حسبت حسبتى سريعا . هبطت ترود الى البحر بعدى ، اذن فقد سلمت هذه الرسالة للمكتب بعد خروجى من البنسيون ، وقبل خروج ترود . وأذن ، وهذا هو الشىء الهام ، فقد صممت ترود صباح اليوم ، وقبل ان تراني على ان تقوم بدور بيت فى التمثيلية التى رتبتها لى ، وهى تمثيلية كانت واثقة بالطبع انها ستفلح فى أن تحملنى على قبولها . والواقع ، اننى ، وكما قلت وانا امضى نحو السلم والرسالة فى يدى قد قبلتها .

ومن البديهى أن خطاب ترود الذى وقعته باسم بيت ارغمنى على العدول عن رحيلى لانه خلق فى وقت واحد جو عرض مسرحى أو تمثيلية ، كرنين الجرس الذى يعلن على خشبة المسرح استئناف العرض بعد انقطاع ، كما يقال ، لاسباب فنية . لماذا يبقى المتفرجون عادة فى اماكنهم ولماذا لا ينصرفون بعد وقت من الانتظار ؟ لثلاثة أسباب محتملة . لأن الفضول يستبد بهم لكى يعرفوا كيف ستنتهى التمثيلية ، ولانهم دفعوا ثمن التذكرة أو لانهم غير فضوليين وغير بخلاء ويهتمون بالمؤلف . لم يكن السببان الاولان من هذه الاسباب الثلاثة مقبولين ، فانا لم أكن فضـــوليا لكى أعرف كيف ســـتنتهى المسرحية ، فقد أصبح بينى وبين ترود الان اتفاق مضمر ، ولسوف تنتهى تلك المسرحية بتلك العلاقة الطبيعيـــة التى رفضتها بيت فى البداية رفضا باتا ، والسبب الثانى لم يكن قائما على أساس يذكر فاذا عدلت عن السفر الى ألمانيا رفضت أن ادفع ثمن التذكرة . أعنى اننى بقبولى المسرحية رفضت مشروع الانتحار المــزدوج . بالاختصار كنت اشاهد التمثيلية مجانا . ويبقى السبب الثالث ؛

وكان يبدو أنه الوحيد المقبول ، فانا بعدولى عن السفر الى المانيا وقبولى القيام بالتمثيلية كنت اثبت اننى أهتم بقدر المؤلف ، اعنى اننى لم اكن مغرما لا بترود ولا ببيت وانما بشخص وهمى سوف يتدخل أثناء التمثيلية بينى وبين التوامين . ولم يكن ذلك الشخص الوهمى ترود ولا بيت ، وانما امراة ثالثة بها القليل من كل منهما ، ما دامت مستعدة لممارسة الحب بالطريقة الشهوانية التى تروق لترود ، مع احتفاظها أثناء الحب الطبيعى بالروحية اليائسة الخاصة ببيت ، وكل هذا دون ان تطلب منى دفع اليأس حتى الانتحار ولا الحب الطبيعى حتى مغامرة صيفية فظة على شاطىء البحر . لكن من الذى أختلق تلك المرأة ذات الوجهين . للوهلة الاولى كانت فكرة التمثيلية ترجع الى ترود ، بعد امعان الروية والتفكير . ادركت اننى قد أكون صاحب هذه الفكرة . فتلك المرأة التى فى خيالى . هى فى نفس الوقت ترود وبيت ، كنت أمارس معها الحب وأقاسمها اليأس دون أن أصل الى الانتحار ، الم تكن نفس المراة الرقيقة التى أراها بجوارى فى تلك الحياة التى ادعوها باليأس المستقر ؟ من ناحية اخرى ، كان الامر منوطا بى لكى تستمر التمثيلية ، اعنى أن تأخذ المراة الثالثة مكانها بين ترود وبيت ، فهى فى الواقع المرأة التى أحس أننى احبها . وقد اتضح فى النهاية ، أننى بفضل هذه التمثيلية سأحصل على ذلك الشىء الذى ليس فى امكان ترود بأن تمنحنى اياه .

وبدأت اكرر على نفسى ان ذلك الشىء هو اليأس بدون الموت، وباصطلاح آخر ، كان هو الرد على السؤال الذى ظننت عند مجيئى الى كابرى اننى قرأته فى لوحة دورر وهو « هل يمكن ان يعيش المرء فى اليأس دون أن يتمنى الموت ؟ لان الرد الذى كنت أتوقعه آيجابيا كان مهما جدا بالنسبة لى . لشعرت بالاسى للطابع الخاص لتمثيليتنا وأنا أقول لنفسى ان فيها شيئا عاما ونزيها . وبفضل هذه التمثيلية لن أمارس الحب مع بيت فحسب وانما سأؤكد حقيقة ليست جيدة لها فحسب وانما للجميع .

وفى وسط هذه التأملات ، نمت فوق فراشى بكامل ثيابى ، ورأيت حلما . كنت جالسا أمام نافذة مغلقة تطل على شرفة أو على رواق ، تظهر ترود خلف الالواح الزجاجية ، تكلمت فلا أسمع صوتها بسبب النوافذ المغلقة . اشرت اليها اننى لا أفهمها ، عندئذ لجأت الى ايمائية مفحمة فأشارت الى نفسها وهى تلمس صدرها

باحدى يديها ثم تأتي بحركة كأنها تمشى فى الرواق وتدخل غرفتى من خلال الباب الذى اوصدته بالمفتاح . واقول كلا براسي . لا اريد أن تدخل ترود غرفتي لانني انتظر شخصا آخر ، وبالذات المرأة التي توهمتها كل من ترود وبيت بعد . وتحتج ترود وهى واقفة خلف زجاج النافذة ، وتأتى باشارات مثيرة ، وتغمز لى بعينيها ، وتخرج لسانها ، وتمتص شفتيها وتفتح بلوزتها وتكشف صدرها ، لكنني ارفض دائما . واذا بى أرى مكان ترود بيت ، كالعادة بوجه حزين كامد تعيس ، لكنها بخلاف ترود لا تأتى بأية اشارة ولا تتحرك انما تنتظر أن أدعوها للدخول من الباب الذى خلفى ، اشير براسى مرة أخرى : كلا ، وتمضى بيت كما مضت ترود من قبلها . اسمع طرقا على الباب ، وانا واثق ان الشخص الذى يطرقه ليس ترود ولا بيت وأنما المرأة الثالثة التى انتظرها فى تلك اللحظة . اصيح بها أن تدخل ، ولا ريب أننى لم أصح بما فيه الكفاية لأن الطرق يستمر بطريقة ملحة ومحتشمة وحريصة فى نفس الوقت . عندئذ أنهض وفى نيتى أن أرى من الذى يطرق الباب .

حسنا هناك من يطرق الباب فعلا ، فى الحاح ولكن ، وكما تحققت فى الحلم فى تكتم وفى حياء . لم أكن احلم . كيف امكننى أن أفكر ، منطقيا انترود هى التى تطرق الباب ، ترود التى جاءت مبكرة عما قالت ، الغريب أن هذا الافتراض لم يسبب لى اى سرور ، لم أكن قد تأهبت بعد للتمثيلية . ومع ذلك نهضت ومضيت لكى أفتح الباب . دهشت عندما لم أر ترود امامى وانما امها .

كانت بولا ترتدى بيجاما صينية من الحرير الاسود مرسوم على صدرها تنين متعدد الالوان ، وذراعاها النحيفتان اللتان يغطيهما النمش يبدو كأنهما يخرجان من كمين اشد رهافة . ومرة أخرى لرأسها التى تبدو كرءوس الرجال شعر قصير جدا أسود وبراق بخصلتين مثنيتين عند الاذنين وانف معتدل مسيطر ، وفم مكتنز شهوانى ومزدر . وكما لاحظت اول مرة دهشت من الفرق بين الجزء العلوى من جسمها والجزء السفلى . فالاول مسطح تحت حرير البيجاما ، والثانى عضلى ابتداء من الفخذين . كان فخذاها من القوة بحيث انه عند اول حركة يبدوان كأنهما يريدان ان يشقا قماش البنطلون . لا ريب أن عضلاتها اكتسبت قوتهما من ركوب الخيل ، والمعروف ان ركوب الخيل هى الرياضة المفضلة لبولا . وانا أنظر الى فخذيها اللذين اكتسبا القوة من الضغط على جانبى

الجياد أحسست لحظة انهما يشيران الى طبع بولا الظاهر الامومة والمحب لترود ، لكنها تحت تلك الامومة وذلك الحب كانت تبدو متسلطة ومتشددة ومتملكة . بدات تقول على الفور باللغة الالمانية :

ـ أظن انك كنت تتوقع أن ترى ترود رغم أن موعدها معك فى منتصف الليل . لكن حين قالت انك تنوى مرافقتنا الى المانيا رأيت أن أتحدث اليك كى أقول ان رحلتك هذه لا جدوى منها .

فكرت أن ترود ، بسبب غيرتها من اختها ، طلبت من امها التدخل لكى تصرفنى عن الرحلة . ان هناك ما يبرر ذلك فى هذه العبارة « كى اقول لك أن رحلتك هذه لا جدوى منها » قلت لنفسى على الفور انه لابد من المقاومة . واننى لن اقبل اى شرط ولا اية مجاملة أو اى تهديد . ثم ماذا يمكن لام بيت أن تقول لى ؟ أن ابنتها تحب زوجها وانها لا تهتم بى ، وان كل ذلك لا يخرج عن كونه مغامرة صيفية ولا يجب ان آخذها مأخذ الجـد ؟.. وان الزوج ، بحكم وظيفته يمكنه ان يطردنى من المانيا ، واننى فى كل الحالات اذا ذهبت لبيت فسوف أبوء برفض مهين . انحنيت امامها ودعوتها للدخول ، فدخلت ومضت على الفور وجلست فوق المقعد ، بجوار الفراش ، عاقدة ساقيها فى غير مبالاة ، كما تفعل سيدات المجتمع . ولمحت سلسلة صغيرة من الذهب حول ساقها اليمنى . تذكرت ان سلسلة مشابهة تحيط بساق بيت . بدأت تقول فى ادب جم :

ـ أرجو المعذرة لقدومى دون سابق موعد فالمرأة لا تدخل غرفة رجل الا لاسباب أقل ما يقال عنها انها عاطفية . اما انا فامرأة من طراز خاص تقريبا . ثم اننى ، كما لعلك لاحظت ، أتيت لكى اتكلم معك عن حبيبتى ترود .

امرأة من طراز خاص تقريبا ... حبيبتى ترود ... لم تكن هذه لغة أم . اردفت تقول مؤيدة انزعاجى هذا :

ـ لا تظن اننى ما كنت لآتى لو لم افكر فيك انت ايضا . فاننى اتيت هذه الليلة خصوصا من أجلك .

احتقنى هذا الايثار بالذات لما فيه من رياء مضحك بسيط . وكنت قد جلست على حافة فراشى ، فنهضت وقلت :

ـ أما هذا فكلا . ما شأنى بهذه القصة ؟.. وما دخل ترود فيها . انت هنا بسبب بيت ، ولا فائدة من الانكار . ليكن مفهوما ان ما من أحد يمكن ان يمنعنى من الذهاب الى المانيا للقاء بيته .

لم يبد عليها اى قلق او اضطرات لانفعالى ، انما نظرت الي فى شىء من الفضول ثم قالت فى رفق :

ــ تجمل بالهدوء واجلس واصغ الى .

ــ انا هادىء جدا ، وبكل الهدوء اقول لك ان فى نيتى الرحيل الى المانيا غدا .

اتت باشارة متسامحة من يدها وقالت :

ــ هدوء ... هدوء ... هدوء .

عدت فجلست فوق الفراش وقلت وانا احاول ان اتكلم بلهجة جدية :

ــ معذرة ، لكن من العسير على ان احتفظ بهدوئى حين يتحدث الى احد عن بيت .

ــ لم آت لكى احدثك عن بيت ، وانما عن ترود ، وعن ترود فحسب .

أحسست بشىء من الارتياح . رايت اننى لم افهم شيئا . تريد بولا أن تجنبنى رحلة لا جدوى منها ، وتؤكد لى انها لم تات لكي تحدثنى عن بيت ، وما كنت لاقوم بهذه الرحلة الا للحاق ببيت بالذات . اذن ، لماذا جاءت بولا . رايت فى هذا التناقض ارادة طيبة لا وجود لها فى الواقع .

ــ انني أفهم . انت أم ترود ايضا . ولكن حيث انه لا يمكنك ان تلومينى فيما يتعلق ببيت فانى افترض ان لديك الكثير مما تريدين قوله لى عن علاقاتى بترود . حسنا . اننى على استعداد لتزويدك بكل ما تريدين من تفسيرات ، ولكن فى مقابل ذلك اريد أن تقدمى لى انت ايضا تفسيرات لاشياء كثيرة .

أجابتني فى لهجة تبشر بالخير ، وبدون حماس ، وهى تخرج من حقيبتها فم سجائر من الصدف والفضة :

ــ لا تخش شيئا . سأفسر لك كل شىء . اعطنى سيجارة اذا سمحت .

قدمت اليها علبة سجائرى ، فأشعلت واحدة أخذت منهـا نفسا على الفور ثم قالت :

ــ انا لست أم ترود .

تمتمت : لست أم ترود ؟. ماذا تعنين ؟ لقد قدمت نفسك على انك ام ترود وبيت .

استطردت تقول فى هدوء :

ـ اكرر لك اننى لست أم ترود . انا صديقة لها فحسب . انا ممثلة واعمل فى نفس الفرقة مع ترود .

ـ ما زلت لا افهم . عرفت دائما ان الممثلة هى بيت ، وان ترود تشرف على مزرعة لتربية الكلاب . فما هذه القصة ؟

هزت راسها وقالت :

ـ حان الوقت لكى تعرف . بيت لا وجود لها ، ولم يكن لها وجود على الاطلاق . تظاهرت ترود امامك بأنها بيت .

ذهلت . وذهلت جدا ، ولكننى كنت صافى الذهن . احسست اننى اقع ، واقع فى هوة لا قرار لها . ومن غير ان اكف عن التفكير . وانتهيت أخيرا الى أننى أستطيع أن أصدقها . رأيت أن دهشتى تمتزج الآن بريبة لم أتوقعها حتى ذلك الوقت . خطر لى ان الحياتين غير الموجودتين لبولا كام وبيت كتوام ليستا غير اكذوبتين مضحكتين للتخلص منى . كان افتراضا صعب على تصديقه اكثر من الاكذوبة التى يراد بها ان تكشفنى . وعلى كل ، لم لا ؟ لم اجد شيئا افضل لى فى ارتباكى . من أن اقول :

ـ لكننى تناولت وجباتى اياما كثيرة وبيت جالسة امامى ، على مائدة بجوار مائدتى . وقد كلمتها .

كدت أن اقول : واذا كانت قد قالت لى انها تحبنى !. واذا كانت قد اقترحت على أن ننتحر معا كما فعل كلايست وهنرييت فوجل !. ولكن الحياء منعنى ، واردفت بلهجة ساخرة :

ـ اعترافاتك ليست مقنعة . هل يمكن معرفة ماذا يختفى وراء كل هذا ؟.

حدقت فى كأنها ترانى لاول مرة وقالت :

ـ ارى انك لا تصدقنى . يمكننى أن اطلب من ترود ، اذا اردت ، ان تؤيد كل ما اقول .

ـ ومن يقول لى ان ترود ليست على اتفاق معك ؟ واعود فأقول ماذا وراء كل ذلك ؟

ـ لا شيء الا الرغبة فى وقف دعابة استمرت أكثر من اللازم.

عدت اقول فى برود :

ـ اية دعابة ؟

خطر لى فجأة ان بولا تعنى بدعابة كل ما وقع من غموض مربك بينى وبين بيت .

نظرت الى فى اشفاق ، لا ريب انها ادركت اننى لم افهم .

وبصقت قطعة من التبغ التصقت بشفتها ثم قالت :

ـ أنا وترود صديقتان حميمتان جدا ، وكل منا تشتغل بالتمثيل . وربما بسبب مهنتنا هذه نلجأ الى اللهو احيانا ونقوم بدعابات كالادعاء مثلا اننا شخصان آخران ونتنكر ونسخر من الناس ولكن فى غير خبث او ضرر ... لمجرد الضحك وحسب . وعندما استقرت نيتنا ان نقضي اجازتنا فى ايطاليا ، وفى كابرى على الخصوص ، وهى كما تعلم مكان مشهور لان عددا كبيرا من الشبان الايطاليين يرتادونها لا لشيء الا لحصار الفتيات الالمانيات الساذجات والطاهرات ، اتفقت انا وترود على أن نقوم بدعابة طيبة نجعل منها دون جوان اضحوكة . كان يجب على ترود أن تسبقني هى وزوجها لكي تسترعي انتباه أول شاب يبدو أنه يناسب دعابتنا . ثم أصل انا بعد بضعة ايام زاعمة انني ام ترود واحل محل زوجها . وكانت الدعابة تقوم على الخصوص على خلق شخصية اخت توأم تدعى بيت ، وان تشبه بيت فى الشكل وتختلف عنها فى الطباع ، فقد خطر لنا أن تكون بيت امرأة رومانتيكية ، مولعة بكلايست وهنريت فوجل . وبعد أن تتأكد ترود من أنك تحبها جدا كان يجب عليها أن تقترح عليك الموت معها ، وعندئذ تختفي بيت او تتظاهر ترود بمغادرة كابرى على ان تعود اليها برفقتي مدعية أننى أم التوام . وقد طلبت ترود منك أن تخون أختها معك ، ثم فى وقت معين توقعك فى الخجل بأن تكشف لك ان حبك لبيت لا وجود له فى الواقع . واردفت بولا تقول « وقد سارت دعابتنا تماما كما نود حتى اللحظة التى تظاهرت فيها ترود بأنها بيت ، ولكن حدث عندئذ شيء لم نتوقعه ، ولهذا قررت أن آتي اليك لكى احدثك فى غرفتك الليلة .

سألتها : وما الذى لم يكن متوقعا ؟

اجابتني فى اخلاص وازدراء :

ـ حدث أنك لست الكازانوفا الذى كنا ننتظره ، وانك وقعت فى حب بيت بحيث استقرت نيتك على الرحيل الى المانيا كي تطلب منها أن تتزوجك .

اظن انه كان من المستحيل عندئذ ان اشك فى صدقها ، وقد تأكدت انها تقول الحقيقة من شيئين اولهما غباء وفظاظة ما تدعوه دعابة : ممثلتان المانيتان فى فرقة صغيرة متجولة تقضيان أجازتهما فى ايطاليا ويستقر منهما العزم للمزاح على حساب شبان ، معتمدتان على الفكرة القائمة ان شباب ايطاليا كلهم كازانوفا ، اما السبب

الثاني فادبى ، وهو الانتحار المزدوج على طريقة كلايست ، فكيف لا نتبين فى عناصر المداعبة المذكورة نقص الثقافة التى تميز الطبقة البورجوازية الالمانية .

هناك شيء آخر فهمت منه ان بولا لا تذكر الحقيقة ، فان ترود لم تخترع نسخة اخرى منها كما قالت بولا ، وانما اكتفت بالاتفاق مع صديقتها على خلق فتاة تختلف عنها ٠ فقد كانت تعتقد انها مرحة ومفرمة بالحياة وشهوانية ذات عقل سليم ، مندمجة تماما فى مجتمع بلدها بالذات فى حين انهما صنعا من بيت فتاة غير مثقفة وباردة وسوداوية تعيش على هامش الحياة . واخيرا كانت ترود نازية تكره المفكرين والنتيجة أن بيت يجب أن تكون العكس . اثار هذا التشابه اهتمامى فى البداية ، لكننى حقدت على نفسى لاننى لم اخمن تفاهة الفكرة .

هذه التأملات لم تأخذ منى غير بضع ثوان . رفعت عينى نحو بولا ، وكان وجودها نشط ذهني فادركت انني لم افهم شيئا بعد . والواقع ان كشف هذه الدعابة خلق موقفا خلقه موقف آخر مختلف، لكنه غامض ومضحك . لقد غاب عنى المعنى الحقيقى والعميق للدعابة المذكورة ، رغم احساسى بأهميته ، فقد ارادت بولا وترود القيام بدعابة ما ، ولكن لماذا هذه الدعابة بالذات ما دام قد راق لهما اللهو على حساب كازانوفا ايطالى ، ولماذا جعلا من شخصية بيت فتاة غير طبيعية تماما ومؤمنة بالانتحار على طريقة كلايست ؟.

اصررت اكتسابا للوقت :

ــ اتفقنا . ترود ممثلة وانت ايضا ممثلة ، ارادت كل منكما ان تلهو على حسابى . ولكن موللر ؟... انه ليس ممثلا وانما هو زوج وزوج غيور ، فكيف تفسرين تواطؤه معكما .

اجابت بولا دون تردد :

ــ ان كلا منا يحب عزيزتنا ترود ، ربما اكثر من اللازم ، وقد ارتضى الويس الدعابة بدافع الحب مثلى . ويبدو أنه لم يتقن القيام بدوره ، أليس كذلك ؟ كان ذلك مقدرا لانه كان شديد الغيرة .

لزمت الصمت لحظة ثم استطردت تقول وقد بدا اخلاصها عدوانيا هذه المرة :

ــ لم يشأ القيام بدور الزوج الذى يسمح لزوجته بأن تغمز بعينها لجارها على المائدة . لكننا اقنعناه ، انا وترود بأن اخبرناه

أن جميع الايطاليين يعتقدون أن النساء لا يمكنهن مقاومتهم ، وان الوقت حان لتلقينهم درسا ناجعا .

تذكرت على الفور « دروس » موللر التى أشبعنى بها وقلت :

— أشكركم نيابة عن الايطاليين .

— لم يكن خليقا بك أن تغضب ، وكما قلت لك ، اذا كنت قد أتيت اليك الآن فذلك لان دعابتنا لم تجر كما كنا نتوقع ، فأنت ايطالى مختلف عن الباقين .

احتججت : لست ايطاليا مختلفا عن غيرى ابدا . ارجوك أن تعرفى أننى متمسك بأن اكون مثل مواطنى ومتماثل معهم .

راحت تنظر الى فى ود ، ود سببه بلاشك أننى الاخر ، مثلها ، ومثل موللر ، يبدو أننى أحب « العزيزة » ترود ، بسطت وداعبت راسى المطرقة وقالت :

— يجب أن نكون أصدقاء . ربما تأتى الى المانيا لكى تلتقى ، ليس بامرأة وهمية ، وانما بترود بلحمها وشحمها وان تشاركنا فى الضحك لهذه الدعابة .

لم اكن مصغيا اليها . كنت اتبع تسلسل افكارى . سألتها فجأة :

— هل تعرف ترود انك اتيت لكى تكشفى لى حقيقة توأمها المزعومة ؟

— هى لاتعرف ذلك بعد . قلت لها اننى خارجة اشم قليلا من الهواء النقى فى الحديقة . ولكننى سوف أخبرها .

قلت فى شىء من الاهتياج :

— كلا ، كلا . ارجوك ، لا تقولى لها شيئا . اريد ان اخبرها بذلك بنفسى .

— ولكن لماذا ؟

ترددت قليلا ثم نويت أن أقول لها الحقيقة دون مواراة :

— لاننى أريد أن أفهم ما حدث حقا ، والطريقة الوحيدة لذلك هى الا تخبريها بشىء وأن تدعيها تستمر فى القيام بتمثيليتها . اذا أنت اخبرتها فلن أعرف أبدا ماوراء ماتقولين انه دعابة .

— صدقنى . لم يكن الامر غير مزحة حمقاء ، وهذا كل شىء .

— حسنا . أريد أن أتحقق بنفسى أن الامر كله لم يكن الا مزحة حمقاء .

— الا تصدقنى ؟

— انا لا اثق فى أحد غيرى .

نظرت الى نظرة حيرى ، دون وعى او عداء . قالت فى رفق :
ـ كيف ستخبرها بذلك ؟ فى مقدوركم أيهـــا الايطاليون أن تكونوا قنبلة القلب تماما ، وان تتصرفوا بعنف فى مثل هـــذه الامور ..

ـ لا تخشى شيئا . سأتكلم معها كمفكر ، كمفكر ايطالى ، والمفكرون لا يستخدمون العنف

ـ تريد الا تعرف ترود شيئا وأن تستمر فى قيـامها بدور بيت لانك تريد أن تنتقم بأن تلهو بها كما يلهو القط بالفأرة . لا يمكننى ان اسمح بهذا .

لا أدرى لماذا احسست مرة واحدة بنفس الود الذى ابدته بولا نحوى . ومهما يكن فقد بدا لى انها تحب المراة التى احبها . قمت ومضيت وجلست على مسند مقعدها ، واخذت يدها السـمراء الجافة وقلت :

ـ تؤكدين انك تحبين ترود ، ومن المستحيل ان تفهمى اننى اريد أن اعرف بطريقة أفضل المراة التى احبها واعشقها .

ارتدت الى الخلف بغتة ، نظرت الى من اعلى راسى الى اخمص قدمى فى ذعر ، ثم قالت :

ـ انت لا تعشق ترود ، وانما تعشق بيت .. اعنى امراة لا وجود لها ..

ـ هذا صحيح .. لكن ترود هى التى اخترعت بيت ، أريد ان اعرف لماذا اخترعتها هى بالذات بدلا من اية امراة أخرى .

بقيت بولا جالسة مكانها ، مطوحة براسها الى الخلف ، وكل عضلات عنقها مشدودة فوق صـدرها الذى راح يعلو ويهبط . وانفتحت بلوزتها كاشفة عن ثديين صغيرين بحلمتين بديتا مرسومتين وسط دائرتين كما لو كانتا تجعيدتين . وانا ارى ذلك الصدر الاشبه بصدور الرجال لم يسعفنى الا أن اقارنه بالسلسلة التى حول ساقها وبشعرها القصير المقصوص وبالطريقة التى تضع بها السيجارة بين شفتيها كما يفعل بعض الرجال الراضين عن انفسهم ، ثم قلت لنفسى ان هذه النقاط مجتمعة من شأنها احداث انطباع وفكرة رجولية . وفجاة تاكدت انه توجد بينها وبين ترود علاقة شاذة تنم عنهـــا اللهجة المؤثرة والودية التى تتكلم بها عن صديقتها . يبدو ان بولا خمنت مايدور فى ذهنى لانها قالت فى لهجة تكاد تخلو من الود :

ـ ارجو ان تعود وتجلس على الفراش ، فانني لا احب الطريقة التي تنظر بها الى صدري .

انها تنقل رغبتي الشهوانية لترود اليها هي باتهامي انني أشعر نحوهما برغبة لا اشعر بها الا نحو ترود . خطر لى انه لو أن هاتين المراتين عاشقة ومعشوقة كما اصبحت مقتنعا تماما فمن السهل أن اعرف حقيقة ترود من بين شفتي بولا ، ثم أن التمثيلية المدبرة بيني وبين ترود يمكن ان تتم سواء عرفت ترود ان الدعابة انكشفت أم لم تعرف ، فقد كان بيني وبينها شيء يتجـــاوز الدعابة ، بحيث لم تكن لنهتم بها وكأنها لم تكن .

قلت دون أن اغير مكاني على مسند المقعد :

ـ هذا مفهوم . لن الهو مع ترود كما يلهو القط مع الفأر . اخبريها انني اعرف ان القصة لم تكن الا دعابة ، ولكنني أطلب منك أن تقنعيني انها دعابة حقا ، ولا اكثر من ذلك .

ـ وكيف افعل لاقناعك مادمت تصر أن ترى ان هناك سببا غامضا فى حين انه لا يوجد اى سبب غير ذلك .

ـ يكفي أن تردى على بعض الاسئلة .

ـ أية أسئلة ؟

ـ لا شيء خاص .. أسئلة يمكنك ان تردى عليها تماما .

نظرت الى . يبدو أن فكرة الحديث عن ترود لاتزعجها . قالت فى شيء من التردد :

ـ على شرط الا ارد الا على الاسئلة التى اراها جائزة .

ـ طبعـــا .

تركت مكاني من مسند المقعد ومضيت وجلست على الفراش فى حين استطردت هو تقول :

ـ أفهم تماما انك تريد أن تعرف المزيد عن ترود . ولكنني أقول لك أن هذه هي المرحلة الاولى من الحب ، وبعدها ســوف تعزف عن المعرفة وتقتنع بالحب .

تبدو منفعلة ، اردفت :

ـ سأرد على أسئلتك فحسب لانني أشعر أنك تحب حبيبتنا ترود حقا .

أشعلت سيجارة ، ربما لكى أتخذ مســـلك شرطى أو مفتش بوليس وبدأت :

ـ اليك اول سؤال ... أريد أن اعرف منذ متى انضمت ترود الى الحزب .

بدا عليها الجد ، ولكن دون اى تظاهر ، كأنها وجدت نفسها أمام سؤال لم تتوقعه ولكنه سخيف :

ـ دعني ارى .. انضمت اليه منذ سنة ونصف تقريبا .

ـ اى قبل ان يصعد هتلر الى الحكم ؟

ـ نعم ، نعم ، قبل ذلك .

ـ هل كانت تهتم بالسياسة قبل انضمامها الى الحزب ؟

ـ كلا ، بقدر ما اعلم . كانت ممثلة ، وهذا كل شيء .

ـ لم تكن تهتم بالسياسة اذن ، ولكنها كانت تخالط أناسا يهتمون بها ، واذا كان الامر كذلك فهل كانوا ضد الاشتراكية الوطنية .

ـ لا ادرى . كانت ترود تخالط رجال المسرح .

ـ قالت ترود وهى تتكلم عن بيت انها لم تفلح كراقصة ولم تفلح كشاعرة وكذلك لم تفلح رسامة ، فهل كانت تتكلم عن نفسها ام ماذا ؟

ـ مجرد اختراع . لم تكن ترود راقصة ابدا ولا شاعرة ولا رسامة . كانت ممثلة فحسب .

ـ نسبت ترود لتوامها ثلاث محاولات فاشلة للانتحار المزدوج ، فهل تظنين أن هذه المحاولات الثلاث لها علاقة بحياة ترود ؟

ـ ابدا . اخترعت انا وترود هذه المحاولات الثلاث متخذين كلايست نموذجا لنا . كانت هذه أمتع لحظات دعابتنا . حرصنا على اتقان شخصية بيت . اضفت انا اليها بعض النقاط ، واضافت ترود نقاطا أخرى . كنا نضحك فى جنون . واذ فرغنا من بناء الشخصية قمنا ببروفات كما يفعلون فى المسرح ، فاضطلعت انا بدور كازانوفا الايطالى ، وقامت ترود بدور بيت التعسة السوداوية الغامضة تماما ، كما كانت تفعل معك عند اول لقاء لكما على سطح الباخرة . لله كم ضحكنا معا . ومع ذلك فلو انني كنت على الباخرة فربما صرفتها عن اختيارك .

ـ لماذا ؟

ـ لاننا كنا بحاجة الى ايطالى عادى ، وكان يبدو من مظهرك لاول وهلة انك لست شخصا عاديا .

ـ ولكن الشخص العادى ما كان ليقبل فكرة الانتحار ابدا . ثم ان اللهو بالسخرية علي العشاق الايطاليين العاديين او غير العاديين لم يكن يستدعي اقحام كلايست . فلماذا هو بالذات ؟

ـ انه من مؤلفينا المفضلين ، إنا وترود . ثم ان بيت كان يجب أن تكون رومانتيكية ؟ فأين نجد أكثر رومانتيكية من كلايست ؟

ـ اتفقنا . لكنني اريد أن تردى على هذا السؤال بصراحة الا تعتقدين انه كان فى حياة ترود ، فى اى وقت من الاوقات ، ميل الى الانتحار ؟

ـ اذا كنت تقصد أن ترود حاولت الانتحار مع شخص آخر فقطعا لا .

ـ لا أعنى مع شخص آخر وانما وحدها .

نظرت أمامها مترددة شيئا ما فى البداية ثم انتهت بأن اعترفت قائلة :

ـ حدث شىء منذ سنتين جعلنى افكر فى الانتحار .

ـ اى شىء .

ـ كنا نعيش انا وترود فى تلك الفترة معا . وذات يوم ، عندما عدت الى البيت شممت رائحة غاز قوية ، فمضيت الى غرفة الحمام ، وكان الباب مغلقا من الداخل ، ولان به الواح زجاجية كسرت لوحا وادخلت يدى وادرت المفتاح ودخلت . كانت ترود ممددة عارية تماما على الارض وبدات اطرافها تتجمد بحيث انني ، لكى اخرجها من الحمام شددتها من شعرها ، وحملتها فوق الفراش واستدعيت طبيبا . وفيما بعد قالت ترود ان الامر مجرد حادث غبى ، وانها نامت فى البانيو ، وانطفأت شعلة السخان واخذ الغاز يتسرب . ولكنني تذكرت جيدا وانا اتحدث مع الطبيب تليفونيا انها فتحت عينيها ورأتنى واقفة بجوار الفراش اتحدث فى التليفون فتمتمت تقول : اريد أن أموت . دعينى اموت . كانت عبارة من تلك العبارات التى تقال فى اوقات معينة ، وانا معك فى هذا ، لكنها لم تكن عبارة فحسب ... ربما كانت شيئا آخر ..

ـ مثل ماذا ؟

نظرت الى مستريبة وقالت :

ـ هناك أشياء لايمكن أن تفهمها . لايمكن لاجنبى ان يفهم مايدور فى المانيا . حاول ان تتبعنى على كل حال : اولا ، ترود تمر

بأزمة عصبية اصبحت لاتؤمن بشيء وتبصق على كل المثاليات ، وتعيش فى الانحلال .

احسست على الفور اننى ارى ازدواجا . عاشقة ترود تزدوج وتصبح بورجوازية تذيع الافكار المبتذلة للدعاية للمجمع الاشتراكى الوثنى وسألتها :

ــ ماذا تعنين بالعيش فى الانحلال ؟

هزت كتفيها وقالت :

ــ ماذا دهاك ؟.. تعرف تماما ماهو الانحلال .

ــ قلت لى منذ قليل ان هناك امورا فى المانيا لايمكن لاجنبى ان يفهمها ..

ــ ارجوك الا تقاطعنى .. ثانيا ، تدفع حياة الانحلال هذه ترود منطقيا الى التدمير الذاتى ، ومن هنا محاولة الانتحار . ثالثا : تكتشف ان المثاليات موجودة وانه يكفى ان تردد البصر حولها لكى تكتشفها ، وتفهم انها لايجب ان تعيش لنفسها فى فردانية عقيمة وان الحياة من اجل الغير معناها فى اللحظة التاريخية التى نعيش فيها الان المساهمة فى نهضة المانيا .

يالها من ازدواجيـــــة . كيف كانت بولا تتصرف كى توفق بين حماسها الوطنى وبين الشذوذ الجنسى .

كان وهمها « الشعبى » يوضح بغرابة الهوى « الخاص » الذى يلتهمها . اصغيت اليها ، لكننى لم استطع ان امنع نفسى من تصورها وهى تحنى وجهها الضامر القــــاسى والضارى نحو ترود الوهاجة وهى مستلقية تحتها عارية . وقلت :

ــ صفوة القول ان ترود انضمت الى الحزب . هذا تحول حقيقى ... نوع من الهداية .

ارتبكت قليلا ثم وافقت فقالت فى صوت خافت :

ــ هذا صحيح . هو تحول .

ولزمت الصمت لحظة ثم اردفت :

ــ لا يجب ان تسخر من تحول ترود ، فقد شهدته انا نفسى ويجب ان اعترف اننى بقيت مشدوهة من تلقائية مشاعرها .

ــ لماذا ؟ هل اهتدت الى الاشتراكية الوطنية بطريقة تختلف عنك ؟

أجابت على الفور وفى شيء من الترفع :

ـ أنا لم اهتد . اعني انني لم انضم الى الحزب لكي احل أزماتي الاخلاقية . انني انتمي الى اسرة عريقة عسكرية ، والوطنية لدينا شيء تقليدي . وقد ادركت منذ البداية ان هتلر هو الرجل الذي تحتاجه المانيا . ثم ان المكان الذي اهتدت فيه ترود له معناه .

ـ الا تعرفين اين كان ذلك ؟

ـ اثناء أحد الاجتماعات .

سرت الرعشة في بدني ، فان سر شخصية بولا المزدوجة كامرأة سحاقية ووطنية اتضح لي . كانت النازية ضرورية ليس من اجلها هي ، فهي لم تكن بحاجة اليها لانها نشأت في اسرة عسكرية وانما لأجل المانيا . اي من أجل جميع الذين من طراز ترود الذين لاينتمون الى طبقة تستند على تقاليد وتجد نفسها بعدم انتمائها هذا تعيش أزمة أخلاقية . وهذه وجهة نظر كنت اعرفها تماما .. وجهة نظر دوائر من أشد المحافظين في المانيا . وكانت بولا ارستقراطية ولهذا السبب كانت تستطيع التوفيق بين الشذوذ والسياسة العادية . وقلت :

ـ انت أيضا كنت موجودة في ذلك الاجتماع ، بما انك قلت انك شاهدت ماتدعينه تحولا .

ـ كنت قد اختلفت اليه برفقة ترود .

ـ واسرتك ؟ من اي بلد هي ؟

ـ من بوميرانيا .

ـ لاريب ان اباك كان ضابطا كبيرا .

ـ كان جنرالا . وقد مات منذ بضع سنوات .

ـ هل انت متزوجة ؟

ـ يبدو لي أن هذا استجواب حقيقي . حسنا . انني مطلقة . وكان زوجي هو الاخر ضابطا كبيرا في الجيش . ولم انجب اطفالا . هل تريد أن تعرف شيئا آخر ؟.

ـ معذرة . اظن انني اخبرتك برغبتي في معرفة كل شيء عن ترود ، وحيث انك تحتلين مكانا مهما في حياتها فان من المنطق أن أعرف كل شيء عنك .

ـ لماذا تظن انني أحتل مكانا مهما في حياة ترود ؟.

ـ يخيل لي أنك قلت منذ قليل انكما تعيشان معا . والمعيشة معا شيء مهم ، أليس كذلك . وبهذه المناسبة لماذا تعيشان معا ؟

ـ كنا ننتمي الى نفس الفرقة المسرحية . ولم تشأ ترود أن

تقيم مع اسرتها ، فعرضت عليها ان تقيم معى ، خاصة وان سكنى كبير ، وقد قبلت .

ـ هل مضت ترود للاقامة معك قبل طلاقك أم بعده ؟

ـ بل قبله .

ـ وهل رضى زوجك باقامة ترود معك ؟

خيل لى عندئذ أن حمرة خفيفة من الاحتشام او الغضب صبغت ملامحها القاسية الكامدة . ومع ذلك فقد اجابتنى فى دقة :

ـ هل تريد ان تعرف اذا كان زوجى قد رضى بصداقتى لترود ؟ حسنا . سأرد عليك على الفور . لم يشعر زوجى بأية مودة نحو ترود ، وهذا احد الاسباب التى ادت الى طلاقنا .

ـ لعل زوجك لم يرضه تحول ترود ؟

ـ ان لزوجي عادات تقليدية صارمة ، وهو لايهتم بالسياسة .

ـ وبالمناسبة ، لقد تحدثت عن تحول ترود كما لو كان شيئا خاصا وانك شاهدته ، فهل يمكن أن تقولى لى كيف حدث هذا .

نظرت كمن يفكر قبل أن يرد ثم قالت :

ـ سبق هذا التحول حلم ، حلم غريب أضاء روح ترود عشية ما تدعوه هى بتحولها ، كنت أنا وترود ننام معا ..

قاطعتها قائلا : أكنتما تنامان معا ؟

ـ نعم ، طبعا .

ـ فى نفس الفراش ؟

ـ نعم . انه فراش كبير لشخصين ، ولكن ما أهمية هذا ؟

ـ لا شيء . استمرى .

ـ فى الليلة التى سبقت الاجتماع الذى أعقبه هذا التحول صرخت ترود فجأة وهبت جالسة فى الفراش ، أضاءت النور وراحت تفحص سبابة يدها اليمنى فى اهتمام كبير . صحوت بدورى وسألتها لماذا تنظر الى اصبعها فقالت لى انها رأت حلما غريبا . رأت نفسها فى كنيسة مرتدية ثوب الزفاف وتمشى فى بطء متأبطة ذراع الفوهرر ، وهو يرتدى زى أهالى بافاريا ، جوربان بيضاوان وسراويل من الجلد وسترة من الجوخ الاخضر . وكان الفوهرر وترود يتقدمان فى بطء نحو المذبح الذى انتثرت حوله الزهور ، وفوقه علم مرسوم عليه الصليب المعقوف . ومن السهل ادراك ان الفوهور وترود سوف يتزوجان طبقا لطقوس وثنية لا تدرى ترود شيئا عنها . وبينما يعزف الارغن مقطوعة الزفاف قدم احد جنود الحرس الخاص بهتلر ابرة له

فى طبق • أخذ الفوهرر الابرة ، وأحسست ترود على الفور بوخـزة فى أصبعها • رفع الفوهرر أصبع ترود الى شفتيه وامتص الدم ، وفى هذه اللحظة بالذات استيقظت ترود •

ــ ماذا قلت لها عندئذ ؟

ــ حاولت أن أهدىء من روعها وأن أواسـيها ، ولكنها ظلت تبكى وهى لا تكف عن فحص أصبعها • وطبعت على ذلك الاصبع قبلة صغيرة فالتصقت بى وعاودت النوم •

لزمت الصمت لحظة قصيرة . أعادت النقطتان المميزتان لهتلر : السروال الجلدى والجرح الذى امتص دمه الى ذاكرتى ، ربما عن عمد، نقطتى الاغتصاب الذى عزته ترود الى بيت الخيالية • قلت وأنا أبذل جهدا كبيرا :

ــ والتحول ؟

ــ ما أن وصلت الى مكان الاجتماع حتى نظرت الى منصة الاحتفال ، لاحظت المصادفة العجيبـة مع حلم ترود ، فقد كان الفـوهرر يرتدى ، كما فى الحلم ، الزى البافارى ، وقلت لترود : أنظرى ، أن الفوهرر يرتدى نفس الزى الذى رأيته فى حلمك •

ــ وماذا قالت ؟

ــ ضغطت على ذراعى بقوة بحيث آلمتنى ، ولكنها لم تقل شـيئا • كانت مفتونة بهتلر ، لا ترى أحدا غيره ولا تسمع سـواه ، لم أقل شيئا ، اكتفيت بأن الاحظ عليها تأثير خطاب هتلر • وكمـا يحدث عادة اثناء خطب الزعيم ، كان الجمهور يقاطعه كثيرا بالتصـفيق • ولكن ترود لم تصفق ، ولم تأت برأسها بأية حركة تدل على استحسانها بقيت صامتة ، عيناها محدقتان بالمنصة ، وكيانها كله معلق نحوه ، بل لعلها لم تكن تسمعه ، تنظر اليه فحسب • وأخيرا انتهى الخطاب، حدث ما تدعوه بتحولها ، بينما كان التصفيق يكاد لا ينقطع اطلقت ترود صيحة ورفعت ذراعيها وراحت تصفق •

ــ وبعد ذلك ؟

ــ وقفت على طرفى قدميها ، وبدت كأنها تريد أن تراه بطـريقة أفضل ، يقف بجوارها رجل بدين ، عرض عليها أن يحملها بين ذراعيه فوق الجمهور قبلت ترود فحملها الرجل البدين بين ذراعيه لكى ترى الفوهرر كما تريد •

قلت : تحول حقيقى •

ــ نعم • ومن الواضح أن شيئا قد حدث لها ، ولكن كلمة تحـول لا تروق لى كثيرا •

ـ وكيف يجب أن تقولها ؟
ـ أظن انه يكفى أن يفكر المرء لكى ينضم الحزب • ومهما يكن فهذه مسألة سياسية ، كانت ترود تعانى فى ذلك الوقت من تلك الازمة الاخلاقية التى حدثتك عنها •
ـ اذن اسرعت ترود بعد هذا الاجتماع وانضمت الى الحزب ؟
ـ أبدا • استمرت تعيش كما كانت من قبل ، ثم وقعت حادثة الحمام التى كانت النزوة الخبيثة لترود القديمة المحتضرة ، وولدت ترود الجديدة بانضمامها الى الحزب •
ـ هل أنت واثقة تماما مما تقولين ؟
ـ لست واثقة من أى شىء • كل ما أعرفه أن ترود كانت تكره الحياة قبل انضمامها ، وانها أحبتها بعد ذلك •
ـ نعم ، ولكن أية حياة ! الحياة العامة أو الحياة معك ؟
نطقت بهذه الكلمات رغما عنى ، الواقع ان غيرة مفاجئة اوحتها الى غيرة أخرى جعلتنى أتصور ترود جاثية على ركبتيها ووجهها مدفون بين ساقى بولا القويتين ويدا هذه الاخيرة تمسك رقبتها بشدة وتوتر لكى تبقيها على هذا الوضع • لم تحاول بولا أن تتظاهر بأنها لم تفهم ، فقد اعتدلت فى جلستها وهى تقول :
ـ ماذا تعنى بقولك هذا ؟
ـ أعنى منذ متى تمارسان الحب معا ، أنت وترود ؟
ولم تكلمت بهذه الطريقة ظننت اننى توهمت بأننى عبرت كل الحواجز التى كانت تفصلنى عن بولا •• اردفت أقول مسرعا
ـ افهمينى جيدا ، اننى أحب ترود ، وأحب كل الذين يحبونها ، وفى سؤالى لأحد غيرى وغيرك يحب نفس الشخص ، وهذا كل شىء •
أدركت على الفور أنها لن تقبل تفسيرى هذا • ولعله كان لديها تفسير آخر مطابق لنفس العلاقات التى بينها وبين ترود ، فقد نهضت لكى تقول بصوت يتهدج سخطا :
ـ اننى أفهم ، تريد أن نمارس الحب معا نحن الثلاثة : الالمانيتان الساذجتان والايطالى المرهف الباحث عن المجون ، كلا ، أيها السيد ، كلا ، وألف كلا أيها السيد الايطالى ، ان لبولا وترود رأيا آخر فى الحب •
ومضت نحو الباب وفتحته وتوقفت على عتبته لكى ترمينى بسبة أخيرة :
ـ أنتم ايها المفكرون •• لا هم لكم الا تلويث كل ما تلمسون •
وخرجت • وانقفل الباب •

ها أنذا مستلق فوق فراشي ، في الوضع المفضل لى عندما أريد أن انساق مع افكارى ، اظن انه كان من الافضل أن أفكر منطقيا فى علاقاتي مع ترود استدراجا للنوم ، ولكن مجموع ما أطلقوا عليه اسم دعابة كان مصدره بالاحرى الخيال اكثر من العقل • وباستلقائي فوق فراشي لكي أفكر في الاحداث الاخيرة رأيت في غموض انه ليست هناك نتيجة لكي أستخلصها طالما ان علاقاتي الحقيقية والصادقة مع ترود لم تبدأ الا اليوم وان من المناسب أن أتصور أن ما يمكن أن يقع فى المستقبل هو التحقيق منطقياً فيما حدث فى الماضى •

كان أول ما اتضح لى وأنا أفكر فى هذه الدعابة المشهورة هو أنني لم أشعر بذلك الاحساس من الكبت والتبرم الذى تسببه عادة دعابة سيئة والتى يشعر بها من وقع ضحية لها ، قلت لنفسى ان أى شخص مكانى كان يغضب ثم يطرح الحادث عن ذهنه بهزة من كتفيه وعبارة من نوع « أنا أستحق ذلك » أو شىء من هذا القبيل ، أما أنا فعلى النقيض من ذلك أدركت أننى لا أشعر بأى غضب ، ونتيجة لذلك لم تكن بى أية رغبة فى تصفية الحادث . كان ضميرى المبهور يلح على أن أغذى احساس الحب السليم الذى ازداد قوة وعمقا ، ذلك الاحساس الذى سمح لترود أن تجرنى بهذه البساطة الى الخيانة ، وقد تغير هذا الاحساس الآن الى فضول : اردت ان اعرف المزيد وكذلك أردت المضى الى الامام فى مغامرتى الغريبة ومواجهة نتائجها غير المتوقعة حتى النهاية .

اذا كنت لا أريد اعتبار هذه الدعابة كمزحة غبية قامت بها ممثلتان من الضواحي في أجازة صيف ، وكشىء له معناه يخص ترود ، وترود فحسب فسوف أرى عندئذ ، كما سبق لى القول أن لا شىء قد انتهى ، وانما يبدأ كل شىء من الآن ، وقد بدأ كل شىء بهذا السؤال الذى القيته على نفسى أثناء حديثى مع بولا ، لماذا اخترعت ترود هذا النوع من الدعابة ، أما كان بمقدورها أن تتظاهر بحب كبير وأن تغذيه بشىء من الزنا لكي تجعل من دنجوانية الايطاليين أضحوكة بدلا من أن تلجأ الى يأس كلايست والى الانتحار المزدوج ، حسنا ، يمكن تفسير

كل شيء بمهنة ترود التمثيلية ، ولكن لماذا عبرت هذه المهنة بهذا النوع الغريب من الخيال بدلا من أى شيء آخر ؟

هنا يتدخل الحب ، لم تكن ترود لغزا يجب حله باستخدام العقل كانت مخلوقا من البشر خيل لى اننى ، بعد اعتراف بولا ، احبها أكثر فأكثر لان دعابتها بما أثارته من تورطات غامضة جعلتها تبدو فى عينى أكثر عمقا وأكثر تعقيدا ، والسحر الذى سبق أن صدر من شخصية بيت الخيالية تضاعف اليوم بحقيقة أن ترود وبيت هي نفس المرأة ، وان هذه المرأة ، لكى تضع دعابتها موضع التنفيذ عرفت كيف تزدوج تماما بأن جعلت من نفسها امرأتين مختلفتين ، بل يمكن أن نقول امرأتين متعارضتين ، وهذه العملية ، جزئيا عن غير وعى تقريبا تدل على احساس ، اشبه بكثير من ناحية ترود بالحب نحوى ، فقد أرادت أن تتفوق على نفسها من أجلى لكى تحبنى ولكى أحبها .

أما أنا فقد اكتشفت أننى لم أكن عاشقا لا لبيت التى اخترعتها ترود ولا لترود التى اخترعت بيت ، وانما كنت عاشقا لامرأة كانت فى نفس الوقت بيت وترود ، وفى نفس الوقت المخترعة والمختلقة .

كانت لدى هذه المرأة كل ما أستطيع أن أتمناه ، ولكننى لم أستطع الحصول عليه الآن بسبب تتابع بيت وترود بالتبادل . كانت يائسة كبيت ولكنها مستعدة لممارسة الحب كترود ، نقية النفس كبيت ولكنها بهيمية كترود ، كانت على حافة الانتحار كبيت ولكنها لم تشأ الموت حقا كترود . وانطبقت الدائرة فى صالحى ، ترود وبيت ممتزجتان فى امرأة واحدة سمحتا لى بتحقيق مشروعى فى ترسيخ اليأس كوضع عادى فى الحياة البشرية . ما كنت لاستطيع تحقيق هذا المشروع أبدا من غير وجود امرأة محبوبة لان الوحدة على المدى الطويل كانت ستدفعنى اما الى رياء العجز ، واما الى الانتحار الذى استخدم كطعم لى فى شرك الدعابة .

وصلت الى هذه النتيجة بكل بساطة ، وهى ان اطلب من ترود أن تنفصل عن زوجها وأن أصحبها خارج بلدها وان أعيش معها فى ايطاليا . رأيتنى ،أنا وهى ، فى احتمال مضىء وخيالى تقريبا كأول زوجين يعيشان بدون آمال كاذبة فى الضوء البارد والنقى ليأس نهائى .

وفى انتظار ذلك ، أزعجتنى كثيرا فكرة أن ترود ستأتى الى غرفتى تتظاهر لآخر مرة أنها بيت ، لم أستطع التباطؤ على صورة ترود وهى تدخل غرفتى ، سجينة وهمها كمن تسير أثناء النوم وهى لا تعلم اننى أحبها واننى أستطيع أن أفعل أى شيء فى سبيل الحب ، حتى اخفاء

زيارة بولا لى ، وحتى الوصول الى عتبة الانتحار •
كان هناك طبعا احتمال أن تكون بولا قد حدثت ترود بزيارتها لى • ولكنّ الشيء الذى اتفق فيه انه اذا كانت بولا قد تحدثت فان ترود تعرف ما أعرفه ، واذا كانت بولا لم تتحدث فان ترود لا تعرف ماأعرفه ومهما يكن فان ترود ما كانت لتتخلى عن تمثيليتها ، فان علاقاتها الحقيقية الصادقة معى لم تبدأ بعد •

كنت قد بلغت بأفكارى هذا المدى عندما دق الجرس معلنا وقت العشاء فأسرعت الى الرواق ، أردت أن أكون جالسا فى مقعدى عند قدوم بولا وترود ، سأعرف من مظهرهما اذا كانت بولا قد أطلعت ترود على زيارتها لى أم لا ، لكننى وجدت انهما سبقانى ، واحتلتا مقعديهما، الاولى لصق الجدار والاخرى أمامها ، بديتا كتلك الممثلات اللاتى ما أن يظهرن حتى تعدن الى الاذهان الادوار التى قمن بها • ورغم اننى أعرف الآن أن بولا لم تكن أم ترود وان ترود لم تكن بيت فقد تذكرت الدورين اللذين قامتا بهما فى التمثيلية التى اختلقتاها على حسابى ، وجلست مكانى ، وأدهشنى ان التمثيلية ما زالت قائمة ، كانت بولا لا تزال تتظاهر بمسلك الام الكريمة المتسامحة ، سليلة أسرة عريقة، أما ترود فلم تتظاهر بمسلك ابنتها فحسب وانما راحت تتصرف كما لو كانت بيت الخيالية ، كانت مخلصة للسيناريو ، لا تعرف أن بولا قد كشفت لى الحقيقة ، فراحت تنظر الى فى حزن وكآبة ، ولا تكاد تلمس الطعام وقد دفنت ذقنها فى راحتيها ، وفكرت عندئذ : الواقع أن ترود لا تتظاهر ابدا بأنها بيت ولكن بيت هو الاسم الذى أطلقته من الناحية الروحية على نفسها .

ما زالت الدعابة قائمة اذن ، أدركت ذلك على الفور من المودة التى ردت بها بولا على تحيتى ، وكنت أظن دائما أنها عدوتى ، ثم اننى رأيت ترود تنحنى نحو صديقتها لكى تهمس فى اذنها ببضع كلمات تأكدت ، فضلا عن شذوذها الجنسى ، من تواطؤها المستمر بالنسة لى ، آه ، نعم ، لم تنته المهزلة بعد ستمتد وستستمر ، على كل حال حتى الليلة المقبلة ،عندما تمنح ترود نفسها لى دون أى مقابل انتحارى لانها تريد للسيناريو الذى دبرته أن ينجح بينها وبينى فحسب • تأكدت لى هذه الافتراضات عند الفراغ من العشاء وعند مغادرتى لغرفة الطعام ، كانت الصديقتان ترقبانى وتنتظرانى فى البهو ، وهما تتظاهران بالانهماك فى الحديث مع السينور جالامينى ، وما أن رأتنى بولا حتى ابتعدت عن ترود وأقبلت نحوى وقالت :

ـ مساء الخير ياسنيور ، هل لك أن تتنـــاول القهـوة معنـــا فى الصالون ؟

تقابلت نظراتنا لحظة وهممت أن أقول لها « اذن فقد اطلعت ترود على ما دار بيننا » وأدركت بولا نيتى لانها أسرعت تقول همسا :

ـ حذار ٠٠ أن ترود لا تعلم اننا تقابلنا ٠

قلت من طرف شفتى : شكرا ما سيدتى ٠

ـ لا تشـكرنى ، فلدى أسباب تحملنى على الظن أن ترود تريد أن تبرر موقفها معك على حدة ٠

وهكذا ، لم تعرف ترود أننى أعرف ٠ أو لعل المرأتين قد اتفقتا أن يحملانى على الاعتقاد أن ترود لا تعرف ، ولكن اذا صح هذا ، فلماذا هذا الوفاق الذى أكدته مودة بولا الغريبة نحوى ، لا ريب أن المرأتين قد قررتا ، كما قررت أنا أن علاقاتنا الحقيقية لم تبدأ الا الآن ، أجبت وأنا ابتسم محاولا الا أظهر شيئا من انطباعاتى :

ـ بكل سرور ٠ لكن شريطة أن نمضى الى مقهى القرية لتناول القهوة هناك بدلا من البقاء فى هذا الصالون المحزن الكئيب ، ان القمر بدر وفى امكاننا القيام بنزهة حتى مطل سيزار أوجستا لكى نرى ضـوء القمر على البحر ، ما رايكما ؟

كانت ترود قد انضمت الينا بوجهها الثلاثى الاضلاع ، وقـد بدا أكثر فتنة وسحرا تحت شعرها الاشقر الذى يتهدل فى غير تنسـيق أو نظام فوق كتفيها العاريتين ، وبثوبها الساتان الاخضر المجعد وحقيبتها الصغيرة ذات اللؤلؤ ، فى يدها المعروقة التى يكسوها النمش تنظر الى من عمق عينيها الواسعتين المكدودتين والحزينتين ، وكانت تشبه مرة اخرى بيت ، هذا توكيد جديد بأن المهزلة ، بعد استراحـة قصيرة مستمرة فى طريق غامض ٠

أسرعت تقول : أوه ، نعم ٠ لنمض الى القرية ولنتمش فى ضـوء القمر ٠٠ ماما ٠٠ لا تقولى لا يا ماما ، أنا أيضا ابغض هـذا الصالون المغلق ٠

ولكن بولا أرادت الاستمرار فى دور الأم القاسية فقالت فى برود :

ـ انت تعرفين تماما ياترود أنه لاجدوى من الحديث عن نزهة فى ضوء القمر ، ماذا يقول كل هؤلاء الالمان الذين بالبنسيون ؟

تدخلت ضاحكا : ماذا يقولون ؟ ٠٠ سيقولون اننا ثلاثة أشـخاص يفضلون سنة ١٩٣٤ على صالون يرجع عهده الى سنة ١٨٨٠ ٠

نظرت بولا الى من غير أن تبتسم وقالت فى خشونة :

ـ ليس هذا هو السبب .. ولكن أعلن أن خطابا هاما سيذاع اليوم في الساعة الحادية عشرة والنصف .. خطاب غير عادى للفوهـرر ، ويجب أن نبقى بالفندق لكى نسمع الراديو .

صحت : هذا جميل ، فلنمض ونستمع الى راديو القرية .

ـ كلا ، كلا ، يجب أن نستمع اليه هنا .

قالت ترود فى صوت محايد :

ـ هل تقولين ذلك خوفا من ان يظن الماني الفندق اننا لم نشأ الاستماع الى الراديو ؟

وقلت فى اصرار : تقولين الساعة الحادية عشرة والنصف ؟.. أمامنا وقت طويل للقيام بالنزهة .

ـ كلا . يجب أن نبقى هنا . ثم ان النزهة يمكن ان يسـاء تأويلها .

سارت بولا نحو الباب لكي تخرج الى الحديقة . تبعتها انا وترود . كانت مقاعد الخيزران مصفوفة هنا وهناك بجوار الجدار . جلست بولا وهي تقول فى حرص بصوت خافت :

ـ لنبق هنا لحظة ثم نمضى الى الصالون بعد ذلك .

وجلسنا . وتحولت بولا الى وقالت :

ـ لا يجب أن تظن ياسنيور لوسيو انني أم قاسية . الحقيقة انني أحب « عزيزتنا » ترود كثيرا . (مدت يدها وهى تتكلم الى ترود وأمسكت يدها) انني كثيرة القلق ، وهو قلق لا يبرره شيء على كل حال نظرا للوقت الذى نعيش فيه .

سادت لحظة صمت . بينما ترود تنظر امامهـا فى اصرار ، وضعت بولا يد ترود على صدرها ، عند مستوى القلب ثم قالت فى صوت مؤثر :

ـ هل تسمعين قلبى ياترود ؟ ان كنت انت تعيسة فهو ينبض بسرعة وقلق . وان كنت تتألمين فهو يشعر بالضيق ، اما اذا كنت مرحة ومسرورة فهو لايشعر بأي هم . أنا الان خائفة ، اخاف عليك باستمرار لان الاوقات عصيبة ، ولان الناس أشرار ، ولهذا اقول انه يجب أن نبقى هنا هذه الليلة . لاتظنى انني افعل هذا عن هوى أو بدافع الواجب . انما افعل ذلك بسبب حبى لك بالذات ولانه اذا حدث لك شيء فلن اعيش بعدك .

كانت لاتزال تضغط يد ترود على صدرها ، وعيناها المفتوحتان

على سحتهما عادة ذات النظرة الثابتة الشاذة كانت الدموع تحجبهما فى هذه اللحظة وتخفف من سحتهما . استسلمت ترود لصديقتها فى البداية ثم سحبت يدها شيئا فشيئا وهي تقول فى صوت محايد :

ــ حسنا . هذا حسن . لا جدوى ان تقولي كل هذا للسنيور لوسيو . حسنا ، سنبقى فى البنسيون الليلة .

رفعت بولا يد ترود الى شفتيها وطبعت عليها قبلة ثم تحولت الي وقالت :

ــ لاريب انك تشعر بدهشة كبيرة اذ تراني قلقة هكذا . لكن لايمكنك أن تعرف اهمية ابنتي لي .

لم انطق بشيء ، فقد أحسست ، بأنني مخدوع بهذه الطريقة الوقحة من تغيير الحب الشاذ الى حب أمومي ، ولم أستطع ، أيضا أن امنع نفسي من الاحساس بالدهشة ازاء اتساع مشاعر بولا وهى تطبع قبلة أخرى على يد ترود قبل أن تنهض فجأة وتقول :

ــ والان ، يمكننا ان نمضي لتناول القهوة .

عدنا الي الصالون ، ولم يكن نفوري من قضاء السهرة فى الصالون بسبب تفضيلي لضوء القمر فوق سطح البحر الذى فى مقدورنا التمتع به من فوق مطل سيزار أوجستو عن كراهيتي للصالون نفسه . وبمعنى آخر ، فانا كرجل من القرن العشرين ، متردد وكله شكوك ، اشعر بأن دخولي الي الصالون كدخول نوع من المعابد ، لاتزال مبادىء ومعتقدات عصر بائد باقية فيه . القيت وأنا أتبع المرآتين نظرة قلقة على القاعة التى ترجع مفروشاتها الى خمسين سنة مضت ، والتى مقدر لها استقبال بورجوازيين متوسطين من بلاد الشمال فى ليالى الشتاء . بها أربع نوافذ مزودة بستائر ثقيلة من الدمسق الغامق اللون ومقاعد ضخمة مصفوفة بنظام فى أركان القاعة الاربعة . وفى وسط القاعة منضدة مستديرة فوقها مفرش برسومات حزينة هندسية تنساب فى ثنايا متوترة . وفوق المفرش زهرية من البرونز ومجلات وجرائد المانية وانجليزية واسكندنافية وسويسرية ، مصفوفة بعضها فوق بعض فى نظام تام .

وبين النوافذ لوحات داكيرية بالحجم الطبيعي لمشاهير ذوى اللحى بالقرن التاسع عشر : ابسن وفيكتور هوجو وتولستوى وداروين ، وكذلك بعض الملوك الالمانيين غير المعروفين فى الزى العسكرى . لماذا ؟ لان السنيور جالاميني آخر سليل لاصحاب البنسيون لم يفكر فى هدم

هذا المسرح من مشاهير الماضى ، وفكر هذا السليل المحافظ يمكن تفسيره فحسب بالجو الناعس الخامل الذى يخيم على هذا المصيف القديم المعروف باسم اناكابرى .

شعرت بخيبة كبيرة وانا ارى بولا وترود تمضيان نحو ركن من الصالون يجتمع فيه بعض النزلاء من الالمان حول جهاز راديو . وبعد ان قدمتنى بولا لهم « السيد لوسيو ، مترجم من اللغة الالمانية ويجيد التحدث بلغتنا » تهالكت على مقعد بجوار ترود .

كنت اعرف أن أغلب هؤلاء الالمان وزوجاتهم ـ الذين كانت بولا تخشى كثيرا رأيهم ـ من المدرسين وأساتذة الجامعات . واحد منهم لم تكن برفقته امرأة ، اطلقت عليه اسم « لانسكينيه » (أى الجندى المرتزق) . راسه من تلك الرءوس التى يتميز بها العصر الجرمانى اللاتينى : جبين عريض ومرتفع ، وشعر اسمر معقوص وعينان سوداوان واسعتان . نظرة حالمة وهادئة وانف دقيق وفم مستخف وشهوانى فى نفس الوقت . اطلقت عليه اسم لانسكينيه لانه يعيد الى الذهن أحد الافاقين الذين يضعون على رأسهم قبعة مزينة بالريش ويلبسون زردية المغامرين . لم يكن من الافاقين طبعا بل استاذا للتاريخ فى احدى كليات الضواحى .

كان مندفعا فى تلك اللحظة فى حديث محتدم ولم يرد على تحيتى الا بايماءة خفيفة من رأسه . يجادل أستاذا آخر اطلقت عليه بمجرد أن رأيته اسم « التفاحة القرمزية » وهى نوع من التفاح الاحمر الذى ذبل دون أن يفقد شيئا من رونقه الجميل . الواقع ان ذلك الاستاذ كان يشبه تفاحة قديمة قضت فصل الشتاء فوق رف أحد الدواليب. كان طويل القامة ، نحيف الجسم ، له كرش صغير مكور وشعر اشهب ووجه أحمر تتوسطه عينان زرقاوان باهتتان ، وبه ندبة كبيرة تبدأ من أول صدغه حتى ذقنه تدل انه جرح فى أحدى مبارزات السيف .

يدور حديثهما حول عادات وتقاليد وشرعية المبارزة ، وكان مسموحا بها فى ذلك الوقت . كان التفاحة القرمزية من مؤيديها فى حين كان لانسكينيه ينادى بالغائها . وطال جدالهما واحتد كل منهما وهو يتمسك برأيه . واستشاط التفاحة الحمراء غضبا وتحول الى وقال :

ـ انت اجنبى ، ولكنك ، كما قيل لى ، تعرف بلدنا جيدا . ولاشك انك تعرف ان السمة الخاصة التى تميزها هى المسايفة .

فهي شيء يقف فيها الخصمان وجها لوجه ويعرف كل منهما انه ليس فيها هازم ولا مهزوم ، وانما هي تعبير عن الشجاعة والاقدام والصدق والتحدي . وهي على كل حال مسألة تتطلب حذقا ومهارة في استخدام السيف . ولكنني لا ادري اذا كان في مقدور اي اجنبي ان يفهم جيدا هذه السمة الالمانية بالذات .

اكدت له انني افهم جزءا مما يقول . الم أؤد امتحاناتي في جامعة ميونيخ . وراح التفاحة القرمزية يمسح نظارته وهو ينظر الى مليا ثم تحول الى ترود فجأة ، وكانت جالسة لا تتكلم وسألها في لهجة مهذبة وخشنة في نفس الوقت لماذا تلزم الصمت ولا تبدي رأيها .

تحول الجميع نحو ترود . وتملكني نفس القلق . وتمنيت بكل حرارة ان تستمر في القيام بدور بيت ، وأن ترد كما تصوره له توامها. ولكن حدث شيء غريب ومضاد ، فقد فتحت ترود فمها ونطقت بهذه الكلمات العجيبة وهي لاتزال تحتفظ بمظهرها الحزين الكئيب :

ـــ فيم استغرابك ؟.. الا ترى انه مفكر ؟

كان أول رد فعل احسست به هو المهانة . فان بيت ، بيت الوهمية ، والنقية الذهن والمفكرة لايمكن ولا يجب أن تتكلم بهذه الطريقة . كان الامر كما لو أن كاهنا راح يجدف فجأة ، ولكن ما أن مرت الدقيقة الاولى حتى جالت بذهني فكرة مزعجة . نعم . كانت مهانة أن تتكلم بشخصية بيت بهذه الطريقة . لكن المسئولية تقع على النظام النازي الذي يجبر المواطنين على قول غير مايؤمنون به باستخدام الارهاب والتخويف . والواقع ان رد ترود لايخالف شخصية بيت فحسب وانما يؤكد صدقها وطبيعتها . ومهما يكن فان بيت كانت المانية كغيرها ، ولكي تعيش في بلد يسوده الارهاب فانها لا تتردد في الكذب على نفسها وعلى الاخرين .

وعلى الفور تولد من هذا الافتراض افتراض آخر لا يقل عنه ازعاجا ، وكانت النتيجة المباشرة له . فماذا لو ان المرأة التي تكلمت كنازية متعصبة لم تكن ترود تقوم بدور بيت وانما بيت تقوم بدور ترود ؟ واخيرا ، ماذا لو أن ترود لم تكن شخصا من اختراع بيت لكي تتنكر وتدافع بطريقة افضل ضد النظام الارهابي ؟

تساءلت عندئذ لماذا لم أفكر في ذلك من قبل . لم يكن هناك اي شك في أن يأس بيت كان الحقيقة نفسها ، في حين أن شيئا مفرطا ومضحكا يخفي نهم وشهوانية وفظاظة ترود . ماذا يمكن أن

يوجد أكثر صدقا وحقيقة من اليأس فى هـــــذه الاوقات حيث الدكتاتورية الارهابية ، واقل صدقا وحقيقة فى نفس هذه الاوقات من فرحة الحياة السليمة ؟ ادهشتنى قدرة شخصية بيت من جانب، ومغالاة شخصية ترود من جانب آخر . ألم تكن مغالاة وطابع الاختراع بالنسبة للواقع والقدرة وعلى العكس طابع الواقع بالنســــــبة للاختراع .

الواقع أن النظام الهتلرى لم يكن الا نظاما قائما من جهة على الايمان ومن جهة اخرى على الارهاب يتضح هذا الايمان من تصرفات يمكن للارهاب التظاهر بها بسهولة لانها تصرفات بسيطة وشـديدة التشابه لتصرفات الارهاب ، وفى هذا تفسير للمغالاة المفرطة والمضحكة تقريبا فى شخصية ترود السياسية التى تتمادى الى ان تطلب ان تتأكد أن عملية الختان اجريت لى . وفى هذا أيضا تفسير لسوقيتها وهيجانها وشراهتها وقسوتها ، وكل الاشياء التى تفرط فى القيــلم بها لكى لا تبدو انها مصنعة . وتبقى الان مسألة تواطؤ الزوج وبولا فى « الدعابة » . بعد لحظات من التفكير ، رايت ان موللر والصديقة كانا يعرفان تماما أن شخصية ترود كانت اختراعا أملاه الارهاب ، ورضى كل منهما بها بسبب الحب الكبير الذى يكنانه نحو بيت . ثم ، لماذا ظهرت ترود فى اللحظة التى فيها بولا مكان الزوج بجوار بيت . هنا ، فالامر يفسر نفسه بطرق الدعابة التى ارادت بها أن احبها وأن تحبنى . كان يجب أن تكون بيت هى نفســـها ، ولكن تخيب ظنى وتصدنى كان يجب ، ان تتقدم خلف صورة ترود .

جاءنى التأكد من صحة انطباعاتى فجأة من الاساتذة وزوجاتهم ، فان رد بيت بخصوص التصرف الشاذ للانسكينيه كان مطابقا تماما لطبع ترود الخيالية ، وأثار جدلا جديدا ليس فيما يتعلق بلانسكينيه وانما بمن هو المفكر فعلا . عندئذ قلت لنفسى ان هذين الاســتاذين كانا مرعوبين هما الاخران شانهما شأن بيت ، وانهما ، لهذا السبب يتظاهران بالاحساس بمشاعر أو بآراء كانا بعيدين كل البعــــد عن الاحساس بها . افلا يكون هذان الاستاذان ، بسبب مهنتهما بالذات من المفكرين أيضا ، لكنهما الان ، وبعد رد ترود بدا انهما يتباريان لابعاد الاتهام الشائن عنهما . ولو لم تكن مشاغل اخرى لطربت دون شك فى شىء من الخبث وأنا ارى هذين الرجلين اللذين قضيا حياتهما فى البحث بين الكتب ، وهما يحاولان اليوم أن يتناسيا بزعمهمـــا أن

هناك ثقافتين ، احداهما سليمة وبناءة « المانية » والاخرى منحطة وهدامة . تبدلت مشاغلي كثيرا منذ أن تصرفت ترود بطريقة امتثالية نحو المفكرين ، ولم يعد من الممكن تمييز الحقيقة من الكذب ومن حقيقة الكذب ، ولكن أيضا ، وارجو المعذرة لتلاعبي بالالفاظ ، تمييز الحقيقة في الحقيقة .

مثال ذلك من الذي يقول لي ان لانسكينيه لم يكن هو الاخر عميلا محرضا يجب الحذر منه وهو يتظـــــــاهر بالامتثالية الاكثر ارثوذوكسية . وهنا يجب أن أقول انني لم أكن واثقا أبدا من ما يدور اليوم حقيقي : حقيقة انني بدا لي نموذجا للوضع الشاذ المتفكك الخاص بكل مجتمع قائم على الارهاب .

كنت افكر وأنا الاحظ الاساتذة الذين يتجادلون بدقة لمعـرفة من الذي يستحق لقب المفكر في معناه السيىء ومن الذي يستحقه في معناه الايجابي . ثم وقع نظري من جديد على المراتين . كانتا منهمكتين في حديث مستفيض . الصقت بيت فمها بأذن بولا الكبيرة ، وراحت هذه الاخيرة تصغى باهتمام كبير ، وفي نفس الوقت في استمتاع شبه شهواني الى ماتهمس به صديقتها . واذ رأيت شفتي بيت تتحركان في اذن بولا لم يسعني الا ان أشك ، بغيرتي السخيفة التي أبالغ فيها انها بدلا أن تتحدث ، دون أن يبدو عليها أى شيء ، كانت بيت تدير طرف لسانها في أذن صديقتها بمداعبات حارة نافذة . وعندئذ رأيت فجاة ان مسألة ازدواج بيت لا أهمية لها على الاطلاق ، وان مايهمني هو الحب الموجود بين هاتين المراتين ، وهو حب مشترك تماما تكنه كل منهما للاخرى ، وهو نفس الحب الذي يبدو انه لايمكن أن يكون بيني وبين المرأة التي مازلت أصر على حبها . ولم أدر عندئذ كيف جرت الامور فانني نظرت بغتة الى ســــاعتي في تباه ونهضت وقلت بالالمانية في صوت مسموع :

ــ أنا آسف ياعزيزتي مدام موللر ، لكنني مضطر ان اصطحبكما . ان أمامنا مايكفي من الوقت للتنزه في ضوء القمر قبل اذاعة خطـاب الفوهرر الشهير .

في لهفتي الشديدة التي تدفعني الى ابعاد بيت بكل وسيلة عن صديقتها كانت هذه هي الحجة الوحيدة التي خطرت بذهني . وفي نفس اللحظة ساد صمت قصير بين الجماعة لم أعزه في غيرتي الى الصدفة وانما الى أن الاساتذة وزوجاتهم شاهدوا سلوك المراتين

الفاضح ، وأنني بدلا من أن أكلم بيت نظرت اليهم أطلب مساندتهم. ورن صوتي في خشونة في جوف الصمت . ونظر الى الجميع في دهشة ، وابتعدت بيت عن بولا وقالت بكل هدوء :

ـ انني آسفة . ولكن هذا مستحيل . لا أريد أن يفوتني خطاب الفوهرر .

اجبت في صوت حاد :

ـ توقعت هذا الاحتمال . سنصغى الى اذاعة الخطاب في راديو المقهى .

رأيت بيت تنظر الي في اهتمام زائد ، كما لو كانت تزن الامر قبل أن ترد ثم قالت دون أن ترفع صوتها :

ـ صحيح انك أجنبي . ولكن يجب أن تدرك انه من المكدر ان نمضي النزهة في ضوء القمر في الوقت الذي يعلن فيه الفوهرر انه سيذيع شيئا يمكن أن يغير حياتنا ومصير الانسانية .

حجة لا تقبل الجدل من الممكن ان تكون الثقة قد املتها عليها كما كان يمكن أن يكون سببها راجعا الى الارهاب . لكنني لم ار فيها الا رفضا عنيدا لمرافقتي الى الخارج بعيدا عن بولا والاخرين . وشيء ما قطع الحبل الذي ظل ممدودا ومتوترا طوال هذه المدة ، وقلت :

ـ انني آسف . سأقوم بنزهتي وحدي . ارجوك المعذرة .

واسرعت بالانحناء وخرجت من دائرة المقاعد ومضيت الى البهو .

ما كدت اخرج من الصالون حتى ادركت انه ليست بى اية رغبة فى القيام بنزهة . انما هى الرغبة الملحة فى ابعاد بيت عن بولا ، وابعادها كذلك عن النازية المتمثلة تلك الليلة فى الالمان الجالسين حول الراديو ببنسيون داميكوتا . ولنقل اننى باصطحابى لبيت كنت اريد التحقق من شخصيتها . فان بيت اذا كانت لا تشعر بكثير من الخوف فان فى استطاعتها تماما أن تقضى طوال مدة خطاب هتلر فوق دكة عامة امام منظر القمر وهو مكتمل بدرا . اما ترود فان الاثنتين رفضتا الخروج معى . أهى بيت المرعوبة التى تتظاهر بأنها ترود ام هى ترود المتعصبة التى تتظاهر بانها بيت . وجدت نفسى ، كما ترون ، فى موقف شديد القلق فيما يتعلق بشخصية المرأة التى احبها .

فى هذه الحالة الذهنية الغريبة والحزينة والبعيدة عن ارادتى والمثبطة للهمة ، دون أن افكر فى شىء تقريبا ، وبدلا من الخروج ، استدرت وبدأت اصعد درجات السلم . لم اعرف ما سوف أفعل ، ولكننى عرفت فحسب اننى لا اريد أن ابتعد .

بلغت غرفتى وفتحت الباب وترددت. هل يجب انأغلقه بالمفتاح ام أدع بيت (او ترود) تأتينى كما وعدت . والسمة المميزة لترددى هى اننى ادرت المفتاح دورة واحدة لم استقرت نيتى فأدرته ثانية فى الاتجاه المخالف ، وتركت الباب مواربا . ثم مضيت وجلست امام المكتب موليا ظهرى للباب . رأيت على المكتب كتابا عرفت فيه على الفور . مجموعة خطابات كلايست ، وكان مفتوحا وقرأت :

« اوه . ما اعجب هذه الدنيا ! صحيح اننى انا وهنرييت حزينان وسوداويان . بدأنا بأن تحاببنا بالحب وخير دليل على ذلك هو أننا سنموت معا قريبا » .

قرأت هذه السطور ، وفى نفس الوقت ، سمعت الباب الذى تركته مواربا خلفى يفتح ، واليد التى فتحته دفعته ثانية فى هدوء حتى أغلقته ، ثم سمعت صوت المفتاح يدار فى القفل . لم يشأ

الشخص الذى دخل ان يفاجئه احد فى غرفتى . وراح قلبى يدق بسرعة ، لان الصمت الذى تبع ذلك طال ، وتحرك شخص خلفى فى بطء ورشاقة الى حد اننى شككت فى سمعى ماذا يريد منى ذلك الزائر الغامض ؟ لم يسعفنى الوقت للرد لان يدين اطبقتا على عينى فجأة ، وقال صوت حلو مالوف ، بعيد عن السخرية :

والان ، خمن من انا ... ترود أم بيت .

وعندئذ خطر لى ان ترود بعد أن خدعتنى وحملتنى على مسايرتها مدة طويلة ها هى ذى (أو لعلها بيت) لم أدر اى اسم اطلقه عليهما ، تسلم بأننى غفرت لها كل شىء . وفى نفس الوقت تستعيد اللعبة كأنه لم يحدث شىء . احسست بالرغبة فى أن اواجهها بما اظنه ، واطردها ، ثم لم اعرف بماذا ارد . كنت مخلصا وحزينا فى نفس الوقت . وقلت :

— وددت ان تكوني بيت ، ولكننى اخشى كثيرا ان تكونى ترود.

— ولماذا تخشى أن أكون ترود .

— لاننى احب بيت ولا احب ترود .

— مهما يكن فان هذا الخوف مجاملة لى بصفتي ممثلة ، فمعنى ذلك اننى اتقنت القيام بدورى جيدا .

— اتقنت القيام بدورك جيدا ؟... ماذا تعنين ؟.

— اعنى اننى قمت بدور ترود باتقان تام .

كنت مبهوتا . كانت تؤكد فى تلك اللحظة ببديهة غامضة ما افترضته انا ، وهو ان شخصية ترود كانت اختراعا . وادهشنى التطابق بين شكوكى وبديهيتها كدليل على الحب الذى يجمع بيننا . كنا متحابين ، وبسبب هذا الحب جال بخاطر كل منا نفس الشىء . اخذت يديها وانتزعتهما من وجهى ، وأرغمتها على أن تدور بمكتبى. وها هى الآن أمامى ، واقفة تنظر الى عينى بعينى بيت . وقلت لها :

— دور ترود ؟ اذن فانت بيت اخيرا . هل لبيت وجود حقا ؟ من الصعب تصديق ذلك ، مع اننى فكرت نفس الشىء منذ لحظات ، فى الصالون .

— متى ؟.

— عندما قلت ان استاذ التاريخ مفكر .

— ولماذا فكرت ذلك ؟

ـ لانه لا يمكن ان تكوني صورة كاريكاتورية : اى ترود ، وانك بالضرورة يجب أن تكوني شخصا حقيقيا ، اى بيت .

ـ وفى اى معنى ترود صورة كاريكاتورية ؟.

ـ فى معنى أن امراة سليمة كترود ، مرحة ونازية لا يمكن الا ان تكون شخصية خيالية . اما بيت ، فعلى العكس ، فهى الشيء الحقيقي والصادق والواقعى .

نظرت الى مليا دون أن تنطق فاستطردت :

ـ هل تعرفين أن بولا جاءتني اليوم بالذات لكى تكشف لى ان علاقاتنا حتى الان لم تكن الا دعابة .

ـ طبعا . أعرف ذلك ، فقد حدثتك بولا بالاتفاق معى .

ـ بالاتفاق معك ؟... لماذا ؟

ـ لانني لم اشأ أن يستمر هذا . لم اشأ ان تأتى الى المانيا .

ـ اتكونين قد غيرت رأيك الان ؟.

ـ نعم . غيرت رأيى .

ـ لماذا ؟.

ـ يمكنك ان تخمن السبب وحدك ... لكي أمارس الحب معك بكل بساطة .

أخذت راسى بين يدى كشخص يخشى ان يفقد عقله :

ـ لنعد الى البداية . التقيت بك على سطح الباخرة ، وكنت مع زوجك . ونظرت الى بطريقة معينة . وتمر بضعة أيام وانت مستمرة فى النظر الى بنفس الطريقة . واعلم مصادفة انك تدعين بيت موللر وباتخاذك كلايست نموذجا وانك تريدين ممارسة الحب معى على أن نموت بعد ذلك معا . ومع ذلك ، ففى اللحظة التى تم فيها الاتفاق على كل شيء تقررين الرحيل وتعودين مع زوجك الى المانيا وتخبرينني بقدوم اختك التوأم ترود . وتأتى ترود مع امرأة تقدم نفسها على أنها امك . وتفهمنى ترود بكل بساطة انها تريد أن تمارس الحب معى . وانا أحب بيت وترود لا تروق لى . وعندئذ تعرض على ترود عرضا غريبا . بسبب شبههما ستتظاهر بأنها اختها ، وبهذا أتوهم انني امارس الحب مع بيت دون ان انتحر مقابل ذلك . وما أن تصل الامور الى هذه النقطة حتى تأتى بولا لزيارتى فى غرفتى وتكشف لى أن الامر كله مجرد دعابة ، وأن بيت لم توجد أبدا . وحتى قبل أن اعتاد على هذا الاعتراف تأتينى

أنت وتقولين لى أن بولا كـذبت وأن لبيت وجودا وان الشـــخصية الخيالية هي ترود . هل أنت متفقة معى على صحة تسلسل هذه القصة ؟.

ـ نعم .

ـ قولى لى الان ، لاى سبب اخترعت شخصية ترود ؟

ترددت قليلا فى بادىء الامر ثم قالت :

ـ اخترعتها لاننى لم اشأ أن اورطك الى ابعد من ذلك . اردت أن تقتصر علاقاتنا على ابعاد مغامرة صيفية غامضة ومبهمـة على شاطىء البحر .

ـ لقد افلحت فى ذلك تقريبا . ولكن من يقول لى ان ماتقولين صحيح .. من يقول لى انك لا تكذبين الآن ؟ .

هزت رأسها وقالت :

كيف يمكن أن تفكر أنه توجد حقا امراة بمثل سوقية ترود وفظاظتها ، فى اللحظة التى تهم بأن تعانقك فيها تأتى الى شفتيك بحركة مبتذلة وبغيضة . امرأة ترغمك ان تريهـا البرهان انك مختون ، امرأة تأكل من الطعام كميات وافرة وتقوم بممارسة العادة السرية مرتين معك فى القارب . كيف يخطر لك أنه توجد حقا امرأة غولة وغبية مثلها ، متعصبة مثلها وشبقة مثلها .

أخذت صدغى بين يدى وقلت :

ـ ولكنك منذ لحظات ، على المائدة ، نظـرت الى كما كانت بيت تفعل ، وعزفت عن الطعام كما كانت بيت تفعل ، وبدا عليك اليأس تماما كبيت فى حين اننى بعد زيارة بولا لى كان يجب ان اعلم انك ترود تتظاهرين بأنك بيت .

ـ آه . كلا . كنت بيت ... بيت حقا ولم أتظاهر بشىء كما اتظاهر بشىء يوم التقائنا على سطح الباخرة .

ـ والان ، ماذا تريدين منى ؟.

واحت تضحك ، ضحكة من غير مرح ، على طريقة بيت ، وقالت :

ـ أعرف فيم تفكر . تفكر فى الحب . لن تكون ايطاليا اذا لم تفكر فيه . سبق أن قلت لك ذلك . واؤكد لك الان . هنا فى الساعة الثانية صباحا ، بعد أن أتأكد ان بولا قد نامت .

ـ لكن لماذا لا نمارسه الان ؟

قمت سريعا وبسطت ذراعى نحوها . وافلحت فى لمس خدها بطرف اصابعى ، ولكنها تراجعت وقالت :

ــ كلا . ليس الان . لقد اتيتك كى اقول لك انه لم يتغير شىء بيننا فحسب . لم اشأ ان تفكر ، بعد ما حدث فى الصالون ، اننى امرأة فظة . باردة الاحساس كبيت . ولكن يجب أن اذهب الآن . ان بولا تنتظرنى ، وهى تعرف اننى معك ، وهى جديرة ان تأتى لكى تبحث عنى .

قلت وانا اكاد اجن من الغضب :

ــ انها غيورة . واخيرا ، اظن انها الشخص الوحيد الذى تحبينه ، وانها الوحيدة التى تمارسين الحب معها . (لم ترد على توكيدى ، ولم يكن توكيدا بل استجوابا واصررت) هذا صحيح اذن ... بولا هى الوحيدة التى تحبينها .

قالت هذه المرة :

ــ مهما يكن فهى الشخص الوحيد فى العالم الذى يرضى بأن يموت معى .

قلت فى اخلاص تام :

ــ انا مستعد أن افعل ذلك .

ــ حقا . راحت تنظر الى الان فى غير حزن وغير كآبة ، بتعبير لم اعرفه عنها من قبل ، بوعى متشدد ومتصلب . وترددت لحظة ، غير ان ذلك التعبير جعلنى احس ان التى امامى هى بيت حقا . بيت التى لم يكن لها من غرض الا ان تجرنى معها فى مشروعها الانتحارى . وبعد لحظة قلت لنفسى « كل هذا أدب غير جيد ، ولأنه أدب غير جيد فاننى كمؤلف غير جيد لا أستطيع الرجوع الى الوراء . وداعا يا حياة !.. وداعا » . ورفعت عينى وأجبت فى ثبات كبير :

ــ نعم ، حقا .

فتحت حقيبتها لكى تفتش فيها واخرجت منها شيئا وقالت :

ــ حسنا . سنكون عشيقين الليلة ، ثم تكون النهاية بعد ذلك . هنا فى غرفتك ، بهذا . (وفتحت يدها لكى ترينى علبة صغيرة مستديرة من الفضة) انه السيانور سرقته من الويس فى نابولى . لكننى لا اريد ارغامك . بعد ممارسة الحب ، يمكنك ان تختار على كل حال . ولكن دونى ، لاننى ساكون بين الأموات . سيكون لك

مطلق الحرية ان تفعل مثلى أو أن تمضى وتنجو بنفسك بمثل هذا الثمن الزهيد .

لم يسعنى الا ان اصيح :

ــ ولكن كيف يمكن أن تحدثينى هكذا يا بيت وانا احبك كل الحب ؟.

ــ اذا كنت تحبنى حقا فسوف تفهم اننى لا اريد ممارسة الحب وانما اريد أن أموت ... اريد ان أموت فحسب .

سرت البرودة فى جسمى بسبب صوتها المتهدج البارد ولزمت الصمت ولكنها اردفت تقريبا على الفور :

ــ يجب ان اتركك الان . ان بولا لا تنتظرنى فى الصالون .

ــ ولكنك ستأتينى الليلة كما وعدت ، اليس كذلك ؟.

راحت تضحك وقالت :

ــ هل تخشى أن اتراجع فى آخر لحظة ؟ سآتى بكل تأكيد . وكيف يمكن ان تشك فى ذلك ؟ (وترددت قبل أن تستطرد فى لهجة ميلودرامية) اننى على موعد مع شيئين هامين ... الحب والموت . كيف يمكن ان تعتقد أن يفوتنى ذلك ؟

ماذا كان بوسعى أن اقول ؟ أو ان افعل ؟ منعنى من ذلك سخريتها من نفسها ، وازدرائها لى . قمت واستدرت ناحية الباب ، واجتازت هى الغرفة فى خفة ورشاقة وهى تكاد ترقص فى جونلتها الخضراء التى تلمس ساقيها الرقيقتين والانيقتين . وارسلت آلى قبلة بأطراف اصابعها وهى على عتبة الباب وكان هذا آخر عهدى بها .

ماذا افعل الآن ؟ توقعت ان خطاب هتلر المزمع اذاعته فى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء سيستمر طويلا طبعا ، فهو لم يكن خطيبا موجزا او مقلا . والخطاب الذى قيل انه سيكون مثيرا سوف يمتد ساعتين على الاكثر . ثم انه بعد الفراغ من اذاعته ستكون هناك تعليقات من المصطافين الالمان ، وفوق ذلك ، لم يكن من المستبعد ان تكون هناك تأخيرات مختلفة بسبب الموقف الذى نوجد فيه انا وبيت . فما العمل اذن بتلك الساعات الاربع التى لابد لى من انتظارها قبل زيارة بيت ؟

لماذا لا اقضيها مع احد اذن ؟ ليس هناك افضل من وجود انسان غريب يمكن أن يسليني وينسيني القلق الشديد الذى يسيطر على . ولكن مع من اقضى هذه الساعات ؟ تذكرت عندئذ اننى التقيت صباح اليوم بالذات بسونيا فى الميدان ، قالت ان شابيرو قد اقبل من لندن ، فلماذا لا امضى لزيارته . هبطت الى الطابق الارضى ومضيت الى كشك التليفون ، فى ركن البهو ، وسمعت تقريبا على الفور صوت سونيا بلهجتها الروسية فقلت :

— انا لوسيو . اذا لم يكن فى ذلك أى ازعاج لك فسوف اقبل طواعية دعوتك لى هذا الصباح .

— اية دعوة ؟

— دعوتك لزيارة شابيرو .

— ولكنه راقد ، وانا اقرأ له الآن رواية لترواللوب لكى اساعده على النوم . هل تعرف ترواللوب ؟ انه احد مؤلفيه المفضلين ، ولا ريب أنه يفضله لانه ممل جدا .

— أرجو المعذرة ... سأتصل بالتليفون غدا .

وأردفت أحدث نفسى :

— هذا اذا كنت لا أزال على قيد الحياة .

ويبدو أنها سمعت قولى هذا لانها أسرعت تقول :

— انتظر . سأساله ان كان يمكنه ان يستقبلك فى حالته هذه

امنى وهو راقد فى الفراش . انه يفعل ذلك فى بعض الاحيان . انتظر .

وأبقتنى على الخط . وانتظرت وعيناى تحدقان فى باب الصالون المغلق على جماعة من الاساتذة يجلسون حول الراديو ، هم وبيت وبولا فى انتظار اذاعة خطاب هتلر المثير . ولم تدعنى سونيا انتظر طويلا ، وقالت :

— يقول انه يمكنك ان تأتى . ان مزاجه معتدل جدا الان ، وهو ينتظرك .

خرجت من الكشك . وبعد بضع لحظات كنت اطرق باب فيللا شابيرو . سمعت صوت الباب وهو يفتح ، والنور يضيىء السلم ، وفى أعلاه سونيا . وابتدرتنى قائلة :

— هل تعرف انك محظوظ . ان جماعات كثيرة من الانجليز تطلب زيارته باستمرار ولكنه يرفض استقبالهم فى أكثر الاحيان ، فى حين أننى ما كدت اذكر اسمك وأقول له انك اديب حتى عزم على استقبالك بكل الشرف الذى تستحقه مكانتك . هل تعرف ماذا قال ؟ اديب ايطالى ؟ ... كنت اعتقد أن هذه السلالة قد انقرضت دعينا نرى كيف يبدو هذا المتخلف .

تقدمتنى وهى تتكلم فى ممر طويل به ابواب صغيرة محفور عليها زخارف تبرق كأنها أحجار من الماس . دلفنا منه الى ممر آخر ثم ثالث وطرقت آخر باب به ثم فتحته . ووقفت على عتبته وقالت بالإنجليزية دون أن تدخل :

— شابيرو ... السنيور لوسيو الذى حدثتك عنه .

أجابها بالانجليزية فى صوت متردد واهن ولكنه واضح ، وقال انى أستطيع ان ادخل . وانصرفت سونيا على الفور بعد أن اغلقت الباب خلفها .

كان شابيرو فى الفراش كما قالت سونيا . جالسا يعتمد بظهره على وسادتين أو ثلاث ، وكان النور ينعكس من مصباح اباجورة من الحرير الاصفر ويضيىء بصورة غريبة وجها يعيد الى الاذهان وجوه تماثيل الشمع التى نراها فى كنائس الارياف . الشعر الابيض ومصفوف الى الخلف ويلمع كأنه من الفضة . والجبين مقبب قليلا والصدغان مجوفان والوجنتان نحيلتان ، يخيل لمن يراهما انهما من العاج ، والعينان صغيرتان ، يبدوان بلونهما الازرق الشديد الزرقة

كانهما مصنوعتان من حجر كريم أو من ميناء ثمين . شواربه بيضاء تحت انف أقنى ، ولحيته هى الاخرى بيضاء ، يعنى بها كما يعنى بشعره . والشفتان مكتنزتان حمراوان تنطقان بالشهوة والتأمل فى نفس الوقت .

كان يرتدى جلبابا ابيض بازرار جانبية كالطراز الروسى ، وكانت ذراعاه مبسوطتين فوق الفراش ، ولاحظت البياض الشفاف ليديه الصغيرتين ، وفوق الفراش نظارة باطار من الذهب . نظر الى مليا وهو يتفحصنى ثم اشار الى مقعد بجوار الفراش وهو يقول فى ايطالية ركيكة كان يبدو انه يتعمدها ويستطيبها .

هل أنت السنيور لوسيو ؟ تفضل بالجلوس ، ارجو أن تستريح على هذا المقعد رغم أنه غير مريح بسبب انحرافه . وسونيا هى التى تقول لى ذلك عندما تجلس فوقه لكى تقرأ بصوت مرتفع رواية جيدة من العصر الفيكتورى . قد اختارت الليلة رواية لتروللوب . أنت لم تقرأ شيئا لتروللوب بالطبع . أؤكد لك أنه يستحق القراءة . ترددت كثيرا قبل أن أوافق على استقبالك ، والواقع أننى كنت افضل تروللوب ، لكن سونيا قالت لى عنك اعاجيب ضحيت بتروللوب بسببها ، واتعشم أن تكون جديرا بهذه التضحية .

عندما كان يتكلم بلهجة الجد كان وجهه الملتحى العاجى يتخذ تعبيرا متأملا وحكيما . أما الان وهو يضحك فقد طارت هذه الحكمة أدراج الرياح وتبدلت الى ضحكة ساخرة بدت مهياة لكى تقيم بيننا على الفور نوعا من الاتصال الساخر والتلميحى ، وأجبته دون ان اظهر له اننى خمنت نداءه للتواطؤ .

ـ قالت لى سونيا انك لن تستطيع استقبالى الا ليلا ما لم ..

ـ هذا صحيح ، فاننى أكرس ساعات النهار للعمل .. واذا لم أعمل فاننى أتنزه .

ـ وهل تعمل فى متحفك .

ـ كلا . لقد انتهى المتحف بالنسبة لى . ان سونيا تهتم به . أما أنا فأكتب ، او بالاحرى اخترع هذا النوع من الاكاذيب التى يسمونها السيرة الذاتية او المذكرات .

ـ لاريب أن لديك الكثير مما يجب ان تقول ، فقد عشت بين عالمين وبين قرنين .. قرن يحتضر والاخر يولد .

نطقت بهذه التفاهات لكى اشجعه ان يتكلم . تذكرت اننى

عندما سألت سونيا من هو شابيرو قالت لى سله انت نفسك ، لكنه اكتفى بأن قال :

ــ هناك دائما عالمان . عالم يحتضر والاخر وليد . وعندما كنت فى سنك ، كان يمكننى ان أقول نفس الشىء بالذات . لكننى اعتقد أننى ما كنت أقول ذلك لان الدنيا تبدو لى عندئذ مكانا شائعا ، ومهما يكن فان سونيا تؤكد لى اننى لن أخسر شيئا الليلة . قالت انك ستكون أكثر اثارة من تروللوب . اذن أيها العزيز سنيور لوسيو ، بماذا اتيتنى ؟

خيل لى اننى اخذت على غرة . لكننى سرعان ما ادركت ان الامر غير ذلك ، وقبل أن أجد الوقت للتفكير فى احتمال مثل هذا الاعتراف سمعت نفسى أقول فى وقاحة بسيطة :

ــ هى بالاحرى ليست مسألة وانما مشكلة أجد من الصعب جدا حلها .

واذا أثارت اهتمامك فيمكننى ان اعرضها عليك .

ــ ما أغرب هذا ، ايطالى مشكلته بقائه هو بالذات .

حسنا . اننى مصغ اليك . ماهى هذه المشكلة ؟

أجبت فى انفعال لم أستطع التغلب عليه :

ــ مشكلة اليأس .

مرت على وجه شابيرو الذى احتفظ بتعبيره الساحر المرح سحابة من القلق . لم يكن يتوقع شيئا خاصا كهذا بالطبع ، ولا الصوت المنفعل الذى نطق به ، ومع ذلك سألنى فى رفق :

ــ وما هى مشكلة اليأس بالنسبة لك ؟

ــ اتساءل هل من الممكن أن يعيش انسان فى اليأس دون ان يتمنى الموت .

أسرع يقول فى حكمة ، كرجل يريد ان يتخلص من مشكلة مزعجة لكى ينتقل الى موضوع آخر :

ــ طالما هناك يأس فهناك حياة . والمشاكل تبدأ مع الامل . الا تعرف حكمة بلادك التى تقول : « من يعش بالامل يموت يائسا »

قلت : لقد أسأت التعبير دون شك . ان مشكلتى هى التالية : هل يمكن ترسيخ اليأس وتطبيعه بالحياة كأمر عادى دون المضى حتى الانتحار نتيجة له ؟

أحسست بأنني ساذج جدا أمام هذا الشيخ ذي الوجه الساخر . لكن ذلك لم يزعجني ، بل على العكس ، من يدري السبب في تلك اللحظة بالذات ، ربما لانني فكرت ان مشكلة اليأس لم تعد بمشكلة في المعنى الذي تريده بيت ، شعرت بالرغبة في التحدث عنه . لم يهمني في كثير او قليل ان شابيرو ليس بالشخص المناسب لمثل هذه الاعترافات . وفعلا بعد أن أصغى الى في ضجر وخشونة قال في رفق وتكلف :

ـ أيها الشاب المسكين .. عندما يكون المرء في العشرين ..

ـ عفوا . لكنني في السابعة والعشرين ..

ـ في السابعة والعشرين ! عندما يكون الشاب في السابعة والعشرين فان رأيي المتواضع هو انه لايمكن أن يتملكه اليأس .

ـ لماذا ؟

اتخذ سمة الجد بعد أن فكر لحظة وقال :

ـ لان الشباب لا يرى الامور التي تحيط به في الوقت الحاضر ، وهو يفضل دائما أن يرى ما ينتظره في مستقبل بعيد ، ولا شيء في المستقبل : بل لايمكن أن يكون فيه شيء . كل مايهمنا موجود في الوقت الحاضر ، ومع مر السنين يقل تفكيرهم في المستقبل ويزداد التفكير في الحاضر ، وأحيانا يفكرون في الماضي مثلي انا . لعلك لاحظت أن الدنيا التي توشك أن تختفي ، لذا ليس من العجيب أن أفضل الماضي على أي مستقبل ممكن .

ـ ومع ذلك فاليأس موجود .

فكر لحظة ثم ارتسم عليه الجد وقال :

ـ انه موجود كحجة أدبية . قالت سونيا انك متخصص في اللغة الالمانية ، فلا ريب أنك تعرف فرتر وجوته .

رأيت تماما أن شابيرو قد تملكه الذعر بلهجة اعترافي الحميمة جدا . واستبدت بي الرغبة في العودة الى شيء أكثر غرابة ، فقلت في شيء من الخشونة :

ـ ليس من الضروري أن أتخصص في اللغة الالمانية لكي أعرف فرتر وعلى كل حال فان رد فرتر انه ليس من الممكن أن يحيا المرء في اليأس دون أن يتمنى الموت .

نظر الى لحظة بعينيه الجميلتين القاسيتين الشبيهتين بفيروزتين شرقيتين ثم توترت ملامحه من جديد في تكشيرته العادية وقال :

– أما انا فعلى العكس لست متخصصا فى اللغة الالمانية ، ولكن « حياتى » المذهب ، أى رجل يفهم قليـــلا فى أمور الحياة . وأظن أن اليأس الحقيقى ليس هذرا وانما صمت . واذا كنت يائسا حقا فما كنت لتأتى لكى تقول لى ذلك .

كان ردا غير مباشر . تقريبا دعوة لعدم الاصرار ، قلت فى صوت خافت :

– ومع ذلك فأنا يائس .

رمانى بنظرة قلقة يائسة ، كما ينظر المرء الى شخص فى باخرة يحس بأنه على غير مايرام ، ويخشى أن يفرغ مافى جوفه عليه . قال محاولا تغيير مجرى الحديث :

– ولكن اما كان يجب أن تكون فى البنسيون هــذا المساء لكى تصغى الى خطاب صديق الدوتشى ؟ كيف تجلس هنا اذن وتســمع حماقات خاطىء عجوز مثلى بدلا من الاصغاء الى خطاب مسيح المانيا الجديدة .؟

اجبت فى حدة :

– لايهمنى الاستماع اليه .

– الا يهمك خطاب الفوهرر ؟

– افضل البقاء هنا .

أنت اذن لست فاشستيا كعامة مواطنيك ؟

– كلا . لست فاشستيا .

– اتكون ضد الفاشية ؟

قلت بعد تردد قصير :

– اذا كانت الفاشية نظام طبقة العمال فاننى اذن ضــــــد الفاشية .

– وماذا تعتب على طبقة العمال ؟

– لا شيء .. لا شيء اطلاقا . انا الذى على خطأ . فطبقة العمال تمثل الحالة السوية وانا رجل غير سوى . وطبيعتى تجعل من الصعب على أن أعيش مع طبقة العمال .

بدا الاهتمام والارتياح على شابيرو ، ربما لاننى انتقلت مـــن حالة شخصية الى فكرة عامة . وأردفت اقول :

ـ عندما يتعذر على المرء أن يعيش مع الاخرين فمن الاوفق ان ينفصل عنهم .

ـ ها أنت ذا تتكلم بفطنة . لماذا اليأس مادام فى الاستطاعة الحصول على الطلاق ؟.

وددت لو أصرخ بأننى لم أكن يائسا بسبب نظام طبقة العمال ، وانني يائس سواء مع طبقة العمال أو دونها ، ولكننى أمسكت ، فان شابيرو لم يكن بالطبع الرجل الذى أبوح له ببعض الامور . واستولى على الانفعال المفاجيء الذى سبق أن ألم بحلقى للمرة الثانية ، قلت فى صوت مكتوم :

ـ الطلاق فى حالتى معناه الانتحار .

وفى نفس الوقت اغرورقت عيناى بالدموع . واذ رأى شابيرو ذلك اتى بحركة ذعر حقيقى وقال :

ـ رويدك ، رويدك . يبدو لى انك شاب عاطفى جدا . هل تريد أن استدعى سونيا . انها خبيرة فى مواساة المهمومين .

قلت فى صوت اكثر ثباتا :

ـ ارجوك عفوك . ولكننى ثائر بسبب مشاكل خاصة .

قال بصوت ثابت وقاس :

ـ اننى أعذرك . ولكن هذا لا يمنع ان الناس الذين مثلك لا يعرفون تمالك أعصابهم ويتسببون فى ازعاج الاخرين .

عدت أقول وأنا ارفع صوتى قليلا :

ـ أرجو معذرتك يا سيدى . لن يحدث هذا مرة اخرى ابدا .

نظر الى لحظة وقد ادهشته بلا ريب رنة صوتى . وربما كان يتساءل هل سيصل بنا الامر الى ان نتشابك بالايدى .

ثم قال فى وقار :

ـ اتمنى ذلك ايضا . لقد حصلت على ما تريد . اعنى أن ازودك بنصيحة عن افضل طريقة للتعايش مع طبقة العمال أو كما تقول أنت نفسك مع ترسيخ اليأس بدلا من ان تلقى بنفسك من النافذة او تبتلع السم او أن تشنق نفسك فى اول شجرة تقابلك .

وسألت وأنا مسرور كطفل وعدته امه ان تروى له ذات مرة قصة من قصص الحوريات .

ـ وما هى هذه النصيحة ؟

تظاهر بانه يفكر ثم قال فى خشونة :

ـ هي ان تصبح ثريا .
كنت اتوقع ان يقول لي مثلا اهتم بما هو جميل ، فمعرفتي بأن شابيرو جامع للوحات ومؤسس متحف وانه شخص معروف تقريبا في كل الاوساط الفنية ، كانت تبرر ما كنت اتوقعه منه . وقد دهشت لاخلاصه وتخليه عن لهجته الساخرة وقلت في دهشة :
ـ ثريا ؟.
اتي شابيرو بحركة من راسه تدل على الموافقة وقال في رزانة :
ـ نعم . أغتني . كنت شابا فقيرا ، فقيرا جدا ، وكان الجمال مثلي الاعلى ، شأن جميع الفقراء بالطبع . ولدت في احدى قرى لتوانيا بروسيا ، ولم يكن بتلك القرية اى جمال . وفي الثامنة عشرة من عمري سافرت الى انجلترا وفكرة الجمال محفورة في ذهني . وفي لندن ذهبت للاقامة مع قريب لي يعيش في حي صناعي ، قريبا من مصنع كبير للنسيج . لزمت البيت بعض الوقت بسبب مثلي الاعلى . قضيت احسن ايام عمرى في المتاحف . وسرعان ما ادركت ان حياتي ينقصها شيء لا يتفق مع عشقي للجمال . هذا الشيء هو النقص ، النقص الشديد للوسائل التى تتيح لي التمتع بذلك الجمال الذي اخترته كهدف لي في الحياة . وادركت ذات صباح ، عندما صحوت مبكرا وسمعت في جوف الضباب ومن كل اركان الافق صوت صفارات المصنع . واحدة تبدأ واخرى تتابع وثالثة تنهى الصفير . عند هذا الصوت الكئيب (من الخير ان يشتغل المرء بدلا من بقائه من غير عمل) خيل لي انني ارى العمال يسرعون الى ورشهم عبر الشوارع التي لا تزال غارقة في الظلام ، بقبعاتهم المسدلة فوق عيونهم ووجوههم الملتحية وقمصانهم وسراويلهم من الصوف السميك الخشن ، وفي يدى كل منهم سلة طعامه التى تحتوى على السمك والبطاطس المحمرة وغيرها من أنواع الطعام الشعبي . عندئذ ، أدركت انه لابد لي من أن انهض ذات يوم ، في ساعة مبكرة ، ليس على صوت صفارة المصنع وانما على رنين منبه كموظفي المكاتب . كنت فقيرا والجمال للفقراء ممنوع لقلة الوقت . عندئذ حدث تحول في حياتي . كنت احتقر الثروة ولكنني أؤمن عندئذ انني يجب ان اكون غنيا . افتقر الى النقود والى الجمال ، وعرضت في نفس اليوم على عمي ، وكان يتاجر في الفراء أن أشتغل من أجله . لا اريد ان اثقل عليك او ان ازعجك بسيرة حياتي ، يكفيك ان تعرف انني اصبحت ثريا بعد

خمسة عشر عاما . ولكي نعود الى مشكلتك الخاصة اكتشفت انه بفضل النقود يمكن التعايش مع طبقات العمـال دون التفكير فى الانتحار .

قلت : تنصحني اذن بأن اغتنى بدلا من أن انتحر .

ـ جوابي هو نعم .

لا ادري لماذا قررت فجاة ان اكذب ، وقلت فى شيء من العنف :

ـ تحدثني على أنني فقير . ولكنني اخبرك انني لست كذلك . فابي من رجال الصناعة المشهورين والمعروفين . ونحن اغنياء ، وان لم تكن على جانب كبير من الثراء ، فلا أستطيع ان اكون غنيا لسبب وجيه وهو انني غنى فعلا .

لم يرتبك شابيرو ، وكلاعب تنس رد الى الكرة على الفور قائلا :

ـ لا ادري اذن بماذا انصحك . فالفقراء لا يمكن أن يفهموا الاغنياء . وانا ، فى قرارة نفسي بقيت فقيرا ، فلا أستطيع ان افهم من ولد مثلك غنيا .

فجاة ساد بيننا صمت . وفى ذلك الصمت تناهى الينا من خلال النافذة شيء كهدير البحر الهائج ... دوى هائل من التصفيق. ادركت على الفور انه تصفيق يحيى نهاية خطاب هتلر . وفى غرفة مجاورة سمعه شخص ، لعله سونيا ، والنوافذ مغلقة . لكنها فتحتها الآن لتخليص المكان المعتم من الصوت الملوث لذلك الخطاب المذهل . وبدأ الهتاف الشديد يدوى فى مكان فسيح مغلق ، وكلما خفت يعود من جديد فى دوى أشد ومن لحظة لاخرى ترتفع صيحة وحيدة حادة كما لو كانت ابتهالا تغطى على صوت الجماهير . ثم فتح الباب فجاة ودخلت سونيا وقالت فى انفعال كبير وهى تلهث :

ـ اسمع يالوسيو . لا ريب أن شيئا هاما قد حدث فى المانيا. ليست الحرب ولكن داخل البلد . اكتشفت مؤامرة ضد الرجل ذى الشارب كما يقولون واعدم بعض الناس رميا بالرصاص .

نهضت فى حركة غريزية واعتذرت لشابيرو باحسن ما استطيع، ثم تبعت سونيا وهى تخرج من الغرفة ، وعدت بعد قليل الى البنسيون .

هذا الفصل الاخير من ذكريات وقت بعيد كتبته على العكس مبتدئا بالنهاية ، اى باكتشاف جثتى بيت وبولا فى الميجيليارا .
رآهما أحد الفلاحين جالستين فوق دكة تشرف على البحر ، فى وضع رقيق جدا ، متعانقتين وخد كل منهما على خد الاخرى .
سمعت انهما فى صباح اليوم الذى تلا خطاب هتلر اتصلت بالمانيا وعلمتا ان جثة الويس مولر ، زوج بيت ، اكتشفت بين جثث قتلى الليلة سميت بليلة المذبحة الكبرى . وخرجتا عندئذ ومعهما سلة صغيرة تضم طعام الافطار الذى أرادتا تناوله على شاطىء البحر .
والواقع انهما هامتا وقتا طويلا خلال الريف ولم يتناولا شيئا من الطعام ، فقد وجدت السلة فوق الدكة كما هى لم تنقص شيئا .
ثم ذهبتا الى الميجليارا ، وهناك أمام البحر المتوسط الهادىء ابتلعتا الحبوب المحتوية على السيانور .

ولعل هناك من يريد أن يعرف كيف قضيت الليلة فى بنسيون داميكوتا بعد زيارتى لمتحف شابيرو . ويبدو الامر صعب التصديق خصوصا وذاكرتى من الدقة كما هو معروف ولا تفوتها اقل التفاصيل . ولكن فيما يتعلق بتلك الليلة ، فلا يوجد فى ذهنى غير الفراغ او بدقة اكثر غير نوع من الحيرة .

كل ما اتذكره هو اننى صعدت الى غرفتى رأسا لانه لم تكن بى اية رغبة فى سماع تعليقات الالمان على خطاب هتلر المثير ، وعلى الارجح قرات ودخنت كثيرا فى انتظار قدوم بيت . ثم دون ان اعرف لماذا وكيف ، اطفات النور ونمت تقريبا على الفور .

نمت ساعة ، أو ربما ساعتين . لم اعد اذكر . وعندما صحوت احسست احساسا دقيقا بان شخصا يسير فى غرفتى ، وفكرت على الفور فى بيت طبعا . ولكن العجيب اننى لم اشعر بذلك الحماس الذى يثيره عادة الختام السعيد لمغامرة غرامية . قلت لنفسى أن الهدف من هذه الزيارة لا يمكن الان ان يكون الحب .

واخيرا احسست بحرارة نفس فوق فمى ، وسمعت صوت

بيت ينطق أبيات نيتشه التي تتكلم عن اللذة التي تريد الخلود . وكانت تنطقها كلمة كلمة بدقة وحذلقة متناهيتين . ومددت يدي في الظلام ، في الناحية التي ظننت ان بيت فيها . أردت أن امسكها وان أضمها الى . ولكن ذراعي لم تضما غير الفراغ . وباحساس مرير من الغبن صحوت من النوم .

لم يكن ذلك كله الا حلما كانت الساعة قد بلغت الثالثة صباحا . ومن المحتمل ان بولا وبيت كانتا لا تزالان مستيقظتين في تلك الساعة، تعلقان على خطاب هتلر . اضأت النور وادرت البصر حولي . لم يكن هناك أحد . واردت ان اقطع الشك باليقين فمضيت الى الباب ورأيته ما زال مواربا كما تركته . فلازال هناك احتمال قائم في أن تأتي بيت ، عدت واستلقيت فوق الفراش . وبعد لحظة نمت ولم استيقظ الا نهارا .

بقى أن أقول الآن ان بيت ارادت ان تنبئني بموتها مسبقا وان القدر تدخل ولعب دوره لكي لا أعلم بذلك الا أخيرا .

فبعد شهر من الانتحار المزدوج لبولا وبيت ، وفي الريف حيث مضيت للاقامة مع اسرتي ، رحت أقلب صفحات كتاب مجموعة خطابات كلايست ، اكتشفت اكتشافا عجيبا ، فقد وجدت بين صفحات الكتاب قصاصة ورق تضم صورة من خطاب هنرييت فوجل مع تغيير طفيف . وهذا نصها :

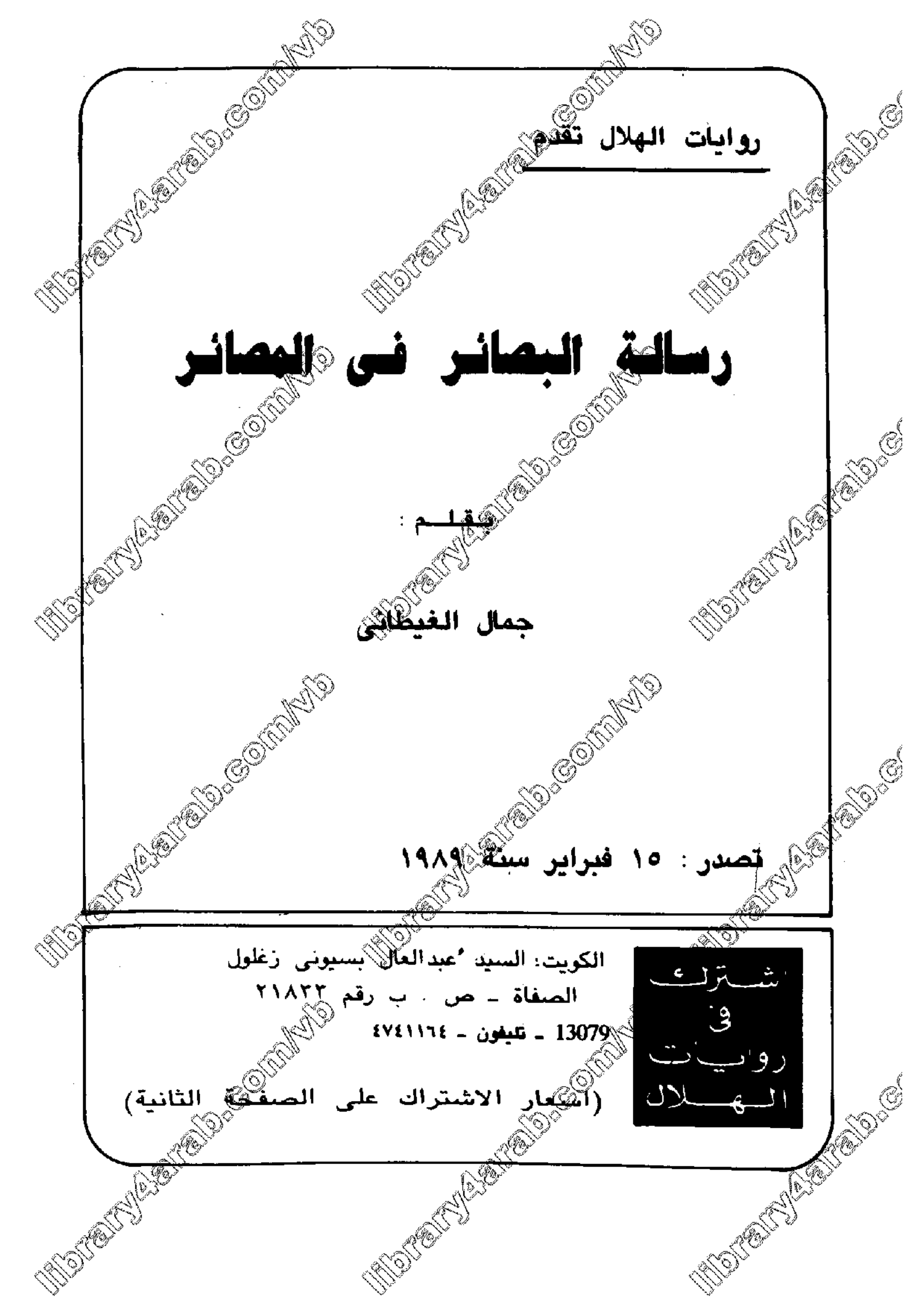
حبيبي العزيز جدا لوسيو ..

ألجأ الى صداقتك التي لم تكف عن اظهارها لي بكل صدق واخلاص ، وارجو ان تمنحني دليلا كبيرا . انا وبولا هنا في أناكابري ، في المكان المعروف باسم الميجليارا ، وفي موقف حرج جدا لاننا الآن في عداد الموتى بعد أن تناولنا أقراص السيانور . ونلجأ الآن الى طيبتك كصديق مخلص لكي تعهد بجثتينــا الى تلك الارض الايطالية التي ... الخ ..

لا أدري في أية لحظة دخلت فيها بيت غرفتي لكي تضع رسالتها المنسوخة عن رسالة هنرييت فوجل بين صفحات كتاب كلايست . ربما في نفس الليلة ، وانا نائم . ربما في الصباح ، بينما كنت اتناول طعام الافطار في غرفة الطعام .

في غموضها حتى النهاية لم تشأ البقاء بعد الرجل الذي يرعبها لان يديه مخضبتان بالدم . ولم تشأ بولا أن تعيش بعد بيت .

رقم الإيداع : ٨٤١٣/ ٨٨
الترقيم الدولى : ٦ - ٣٩٦ - ١١٨ - ٩٧٧ ISBN



روايات الهلال تقدم

رسالة البصائر فى المصائر

بقلم :

جمال الغيطانى

تصدر : ١٥ فبراير سنة ١٩٨٩

اشترك فى روايات الهلال

الكويت: السيد عبدالعال بسيونى زغلول
الصفاة - ص . ب رقم ٢١٨٣٣
13079 - تليفون - ٤٧٤١١٦٤

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية)



البرتومورافيا

● ولد في روما في ٢٨ نوفمبر ١٩٠٧ .

● نشر روايته الأولى « زمن اللامبالاة » عام ١٩٢٩ .

● من أهم رواياتــه « امرأة من روما » و « اجوستينو » و « الملل » و « الاحتقار » ، و « إمرأتان » .

● يعمل أيضا كناقد سينمائي في الصحف الايطالية وقد تحولت كل رواياته إلى افلام مشهورة .

● زار مصر ثلاث مرات كان اخرها عام ١٩٨٨ .

● مفتاح رواياتــه ان اليأس هو الوضع الطبيعي [illegible] ، والأمل هو الشاذ ، [illegible] مخلوق مختنق في [illegible] .

[illegible] الترجمة الكاملة [illegible] البرتومورافيا ..

تدور [illegible] الرواية على شاطىء [illegible] حول شاب يلتقي [illegible] تطلب منه ان تحبه على [illegible] الالماني فون كلايست [illegible] ينتحر الاثنان فوق [illegible] الحب ..

ترى .. هل يوافق لوتشيو على هذا الإقتراح الغريب .. وماذا سيفعل حين يوافق على فكرة حبيبته الجنونية ؟ .

اجابات هذه الاسئلة وغيرها موجودة في هذه الرواية البالغة الاثارة والمليئة بالتشويق والتي حرصنا على ترجمتها مع بداية احتفال السلسلة بمرور أربعين عاما على صدورها ..

" رواية جذابة في ترجمة رشيقة ولغة سلسلة " .

١٢٥ قرشا

REWAYAT AL HILAL
NO . 481 JANUARY 1989